

الدكتور عبد الحبّار أبو مَرْد

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ

حَيَاةَ دَانَارٍ

١٢٣ - ١٤١٧ھ





« لا حُسْنَ لِدُنِّيَا لَا يَكُونُ فِيهَا مِثْلُكَ ، يَا أَصْمَعِي »

هارون الرشيد

**« الأَصْمَعِي أَحَدُ الْأَنْفَةِ الْتِلْلَاتِ الَّذِينَ أَخْذُوا النَّاسَ عَنْهُمْ كُلَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ
الْلُّغَةِ وَالْأَدْبِ وَالشِّعْرِ »**

ابو الطيب المتنوي

« مَا رَأَيْتَ بِذَلِكَ الْمَعْسَكَرَ أَصْدَقُ مِنْ أَصْمَعِي »

الامام الشافعي

« الأَصْمَعِي ثَقَةٌ »

الامام احمد بن حنبل

« الأَصْمَعِي أَعْذَبُ مِنْ تَحْدِيثٍ وَحَكْمٍ »

الباحث

« الْأَصْمَعِي بِلَبْلٍ يَطْرُبُ النَّاسَ بِنَفَاهَهُ »

ابو نواس

« عَجَابُ الدُّنْيَا مَعْرُوفَةٌ ، مِنْهَا أَصْمَعِي »

اسحاق الموصلي

كلمة

لم يكن الأصمعي نكرة ولا مجهولا لدى قراء العربية ، ولكن القليل من الناس من يعرف الحقيقة في سيرة هذا النابغ الذي لمعت شخصيته العلمية في المرحلة الأولى للحضارة الإسلامية ، وشغل اللغويين وأرباب الأدب آثاره الغزيرة القيمة ، وما زال يشغلهم حتى اليوم ذلك لأن ما نشر عنه في ثنايا كتب التاريخ وسير الأعلام لم يتجاوز صفحات معدودة تناقلها المؤلفون بعضهم عن بعض مع قليل من التغير والتحوير ؟ كما تبعثر القسم الأعظم من أخباره في الطرف والتواتر التي رواهـا عنه معارفه ومعاصروه ؛ وضاع الباقـي من تاريخ حياته مع ما ضاع من تراثنا القديم . وما كان الأصمعي - في حياته - محايـداً ولا منطويـاً على نفسه وعلمه وأدبه ، ولكنه كان عضـواً فـقاـلاـ في مجـتمـعـه ، غـزـيرـ الحـيـويـة ، متـدقـقـ النـشـاطـ ، واسـعـ مـجـالـ الحـرـكـةـ وـالـعـلـمـ نـأـوـ الشـعـوـبـينـ ، وـقـادـ مـعـسـكـرـ القومـيـةـ العـرـبـيـةـ ضـدـهـ فيـ صـرـاعـ عـنـصـرـيـ فـكـريـ عـنـيفـ وـدـخـلـ بلاـطـ هـارـونـ الرـشـيدـ فـتـأـلـقـ بـحـمـهـ فـيـهـ ، وـقاـومـ مـعـ قـاـوـمـ الجـبـةـ الـفـارـسـيـةـ الـتيـ تـرـعـهـاـ الـبـرـامـكـةـ ، وـكـانـ لـهـ أـثـرـ فـيـ مـصـرـعـهـ وـنـاضـلـ عـنـ عـقـيـدـهـ وـمـذـهـبـهـ تـجـاهـ الزـعـاتـ وـالـاهـوـاءـ الـمـذـهـبـيـةـ النـاشـبـةـ - يومـئـذـ - فـيـ مـدـيـنـةـ الـبـصـرـةـ فـكـثـرـ خـصـوـمـهـ وـحـاسـدـوـهـ وـشـائـوـهـ ، وـقـالـوـاـ عـنـهـ مـاـ لـيـسـ فـيـهـ ، وـحـملـوـاـ عـلـيـهـ مـاـ لـمـ يـكـنـ لـهـ ، وـنـسـبـوـاـ إـلـيـهـ - بـعـدـ مـوـتـهـ - مـاـ هـوـ بـرـاءـ مـنـهـ ؟ فـشـوهـواـ الـحـقـيـقـةـ فـيـ شـخـصـهـ ، وـبـثـوـاـ التـنـاقـضـ وـالـفـوـضـيـ فـيـ جـوـانـبـ سـيـرـتـهـ

وقد اردنا ، في مؤلفنا هذا ، ان نقدمه الى القراء في اصل صورته ، من غير دخيل ولا تشويه للواقع ، فوجدنا الطريق وعراً شاقاً تحتاج الى البحث الطويل والتمحيص الدقيق . وزاد في المشقة عدم وجود من عالج هذا البحث قبلنا معالجة علمية شافية ، اللهم الا بعض محاولات عابرة ومها يكُن الأمر ، فنحن لا ندعى الكمال في عملنا هذا ، ولا نستبعد ان يكون فيه تقص ، آملين ان يأتي بعدها من يتمه ، خدمة لهذا الرجل الذي كان ولا يزال فضله كبيراً على العربية وادبها

المكتوب عبد العزيز البرمند



المقدمة

نظرة في تاريخ البصرة

١٤ - ٢١٧

- ١ - بناء البصرة وعمرانها
- ٢ - النهضة الاقتصادية
- ٣ - الحركة الفكرية
- ٤ - الشعوبية
- ٥ - الأدوار السياسية ، وقبيلة باهلة

بناء البصرة وعراها

على أثر الانتصارات التي احرزتها جيوش المسلمين ضد قوى الفرس في العراق ، اوعز الخليفة عمر بن الخطاب ، عام (١٤ هـ = ٦٣٦ م) ، الى احد قواه هناك « عتبة من غزوان » اى ينحدر الى اقصى جنوب وادي الرافدين ، ويختار بقعة ارض تناخم بلاد فارس ، فيبني عليها معسكراً ثابتاً يكون نقطة انطلاق للجهاد والفتح وامداد الجيوش العربية الاسلامية الزاحفة نحو الشرق ؛ مشترطاً عليه ان تكون الارض المختارة هذه صالحة للإقامة وال عمران ، وان لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة نهر او سحر

فanhدر عتبة بقطعة صغيرة من الجيش ونفر من الأعراب لا يزيد عددهم على بعض مئات الى غاية جنوب العراق ، فاحتل ارضاً تكثر فيها المياه والمراعي وتجاورها آجام واسعة ينبت فيها البردي والقصب المساعد للاحتطاب والبناء ، وعليها ابنية قليلة يسكنها حرس للحدود من جنود فارس ، فجلهم عنها ، وخططها الى سعة دسакر ، وانشأ في وسطها معسكراً ، وشيد بجانبه مسجداً وداراً للامارة ثم اوعز الى من معه من الناس ان يبنوا بيوتهم على خطة رسمها لهم ، فبنوها بالطين والقصباء على شكل قرية واسعة ؛ وقسم اراضيها الى مقاطعات وزعها على السكان ، وشجعهم على زرعها واستثمارها وسموها « البصرة » لوجود حجارة صلبة بيضاء في تربتها ^(١) وقيل انها سميت كذلك لأسباب اخرى اختلف فيها المؤرخون ^(٢) وعلى اثر تأسيسها ، امها عدد كبير من القبائل العربية المجاورة ، فنزلوا

(١) معجم البلدان : كلمة البصرة .

(٢) وقيل : سميت البصرة لأن ارضها سبخة لينة ..

حولها في منازل متفرقة سمي كل منها باسم قبيلته ؟ ونرح اليها جماعات من سكان القرى والأرياف القرية ؟ ثم هاجر اليها أسر وافراد من عناصر مختلفة ورددت من فارس والمند والخشنة ، وكل ما يمكن ان يحمله البحر الى المرافق من سكان السواحل القاصية والدانية وانصهر هذا الخليط من النازحين في الأكثريات العربية ، فتكلم لغتها واعتنق دينها الاسلام

وهكذا لم تمض حقبة طويلة من الزمن عليها حتى اتسع العمران فيها وامتدت رقعتها الى عدة فراسخ مربعة ، وتضخم عدد قاطنيها خلال عصر واحد الى ما يقرب من مائتي الف نسمة ، وتباور في حوضها طبقات اجتماعية تميزت عن بعضها بنفوذها وثرائها ومنتها وفي مقدمتها « الطبقه الخاصة » المتكونة من الأسر العريقة المنحدرة من الأمراء والقواد والولاة الذين حكموا المدينة ولعبوا ادواراً مهمة في تاريخ الدولة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وايام بني امية ؛ وجلهم من العرب من مختلف القبائل (١)

وكانت هذه الطبقه ذات ثراء واسع بفضل ما استولت عليه من مقاطعات زراعية كبيرة خلال انشاء مدينة البصرة او بعد ذلك بقليل ؛ وذات قوة وشकيمة لانهاء معظم اسرها الى تلك القبائل التي استوطنت اطراف المدينة واحتفظت بياضها وشدهما وعنوانها القبلية

وتليها « الطبقات الوسطى » على اختلاف درجاتها واصنافها وفيها التجار والزراع والصناع ورباب المهن الحرة والعمال والكافسيون بكدهم

(١) ذكر المؤرخون عدداً كبيراً من هذه الأسر التي عاشت الى عهد الاصبعي وعرفت بعكاتها الاجتماعية وسعة ثرائها كأسرة « المهلب » و « بنو نافع » و « ابناء عقل » و « آل قبيبة » و « ابناء عامر » و « الالاليون » واسرة « ابي بكرة » ، نسبة الى كل من المهلب بن ابي صفرة ، ونافع بن الحارث ، ومعقل بن يسار ، وقبيبة بن مسلم الباهلي وبعبد الله بن عامر بن كريز ، وبلال بن ابي بردة ، وفقيع بن الحارث بن كلدة المعروف بأبي بكرة وهو اخو زياد بن ابيه من امه .. ولكل من هؤلاء وغيرهم تاريخ معروف .

اليومي ، وت تكون من خليط من تلك العناصر المختلفة عربية وبنطية ونوبية وخراسانية وهندية وغيرها على ان طبقة اخرى كانت تساكها وتنماز من غيرها بفقرها وبؤسها ، وجلها من المسؤولين الاعراب الذين امحت مواسمهم فجاؤوا ينتجون العيش عن طريق الاستجداء والسؤال ، ومن قراء القرى والأرياف المجاورة الذين يسمعون نخارات البصرة ونعمتها فيقصدونها طلباً للعمل في سبيل الحياة

والظاهر ان البون في الثراء بين مختلف هذه الطبقات والأفراد كار شاسعاً ، كما كان الفرق بينها من ناحية المعيشة والسكنى والمظهر يتيناً واضحاً؛ لذلك تبدت المدينة للرأي متناقصة في كل شيء حتى في مجال احیائهما وطراز انشاء بيوتها ومواد عمرانها فن قصور فخمة جميلة بنيت على طراز فارسي انيق تلفها حدائق مزهرة مثمرة غناء ، الى بيوت وجيهة المظهر والزخرف اقيم بالاجر والجص ، الى اكواخ سوت بالطين والقصباء وأغصان الشجر ، وخيمات نسبت من الشعر واحتضنت بالخطب والشوك وسعف النخيل

وكان المسجد الجامع ودار الأماراة قد بنيا - في اول الامر - بالقصباء والطين ؛ ثم جدد بناءها بالاجر « ابو موسى الاشعري » في عهد عمر ابن الخطاب فلما تولى « زياد بن ابيه » شؤون البصرة اقام « معاوية بن ابي سفيان » هدمها واقامها ثانية بالجص ؛ وعني بالمسجد كل العناية ، فسقفه من خشب الساج المطرز ، وركزه على اعمدة دقيقة الصنع جميلة الزخرف ، ونقل منبره من وسط المصلى الى صدره ، وفرض ارضه بالحصى الناعم بعد ان كانت تربة تتعرّف بها ثياب المصليين ؛ وفتح بينه وبين دار الأماراة ببابا يدخله الوالي فيقصد الى المثلث دون ان يتخطى رقاب الناس

وبقي المسجد الجامع موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين؛ وصار يأخذ بالتوسيع شيئاً فشيئاً بدخول بعض البيوت المجاورة، حتى كان عهد هارون الرشيد عام (١٧٠هـ) فأمر بضم دار الامارة كلها اليه، وتجديده ما تقادم من بنائه، وتزيينه بآيات قرآنية كتبت على سقوفه وجدرانه خط جميل والوان لطيفة زاهية

وعلى اثر اتساع العمran في مدينة البصرة ، وتضخم عدد سكانها ، وازدهار حركتها الاقتصادية ، تناشر حولها كثير من الضواحي الجميلة بين الحقول الخضراء وبساتين التخيل والفوواكه ، على ضفاف شط العرب الكبير ، وحول الجداول والقنوات المشعبة منه ؟ وبنيت فيها القصور والبيوت ، واقامت لها اسواق تجارية فرعية ، يقصدها البصريون للنزهة او التجارية والصيد والفنص وتفرع من جوانب المدينة الى هذه الضواحي المتأثرة طرق او سكك يسمى كل منها باسم الصاحية التي تتصل به ، كسكة « المربد » و « سفوان » و « الأبلة » وغيرها

النهاية الاقتصادية

ورغم سوء مناخ البصرة في بعض المواسم ، وارضها السبخة ، فقد ازدهرت فيها الزراعة ازدهاراً عظيماً ، وانتعشت - بفضل موقعها على جانب الشط الذي ترفع مياهه وتتحفظ بمساعدة المد والجزر اللذين يحصلان يومياً في مياه الخليج الفارسي فاتسعت بساتينها واورفت ، وتشققت فيها الترع والأنهار الصغيرة ، وزرعت فيها انواع الفواكه والثمار التي نقلت اليها من بلاد شبيهة لها بالمناخ والتربة ؛ فكثرت حاصلاتها من كل لون ؛ واشتهرت بمحودة التمر وكثرة أصنافه التي عني بها البصريون عناية فائقة

وللمؤرخين آراء مختلفة في اول من غرس النخل بالبصرة فادعى البعض : بأنه كان موجوداً فيها قبل مجيء العرب إليها وتأسيسها على أيديهم ، مستدلين على ذلك بأن جيش عتبة بن غزوان الذي بناها كان يأكل التمر ويتم به غذاؤه عند نزوله أرضها . وقال الآخرون : بأن النخل كان موجوداً في بقاع متفرقة من اراضي العراق الجنوبي قبل الفتح الإسلامي لها ؟ فلما بنيت البصرة ، وتوزعت المقاطعات فيها بين بناتها ، قلوا فسائل التغذية إليها من البقاع المجاورة وعنوا بغرسها . وقيل إن اول من بدأ بغرسها هو أبو بكرة « نفيع بن الحارث بن كلدة » اخو زياد بن ابيه من امه وهو الذي علم الناس اصول زرعها ، وكيفية العناية بها ، وكري الانهار حولها ؛ فكثر ريعها وحسنت انواعها ، وبلغت جودة تمرها حداً قال فيه هارون الرشيد « نظرنا ، فإذا كل ذهب وفضة على وجه الارض لا يبلغ ثمن خل البصرة (١) »

وعرفت البصرة بثروتها الحيوانية ايضاً ، وفي مقدمتها الأساك على انواعها ، من نهر يعيش في شط العرب الواسع الجنبات ، وبحري يأوي إلى الخليج الفارسي من عرض المحيطات وقد عنيت طبقة كبيرة من البصريين بصيده ، فجعلوا له مناطق خاصة يقصدها الصيادون في الموسم ؛ وفرضت الحكومة على صيده ضريبة معينة تتقادها على الحاصل ، وعيّنت له المراقبين والجباة (٢)

وكانت الحيوانات البرية كثيرة فيها وفي اطرافها ؛ ومنها الأهليل الأليف الذي عني العرب بتربية كلخيول والجمال والبغال والمير البيض النادرة والأغنام ، ومنها الوحشي النافر كالظباء والأرانب والثعالب ؛ وحتى الذئاب

(١) معجم البلدان : كلمة البصرة .

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٥ .

والأسود المنتشرة في أودية معروفة غير بعيدة عن البصرة وقل كذلك عن
النعام والطيور على انواعها ، الداجنة منها والثافرة وقد وصف خالد بن
صفوان خيرات هذه المدينة للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فقال
« يغدو صيادونا ، فيجيء هذا بالشبوط والشيم ، ويجيء ذلك بالظبي
والظلمي ، ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً ، وبردوناً هلاجاً ،
وخريدة مفاجأة بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، اوله الرطب ، واوسطه
النب ، وأخره القصب ^(١) »

ولما كانت البصرة قد أصبحت مرفاً مهماً من مراقي الدولة الإسلامية ،
بها قواقل التجارة من البر الى البحر وبالعكس ، كان طبيعياً ان تنشط
فيها حركة التجارة ، فيعمر سوقها ، وتبتذر فيها الحاجات وترخص الأسعار .
وزاد في نشاطها هذا انتقال عاصمة الخلافة من الشام في العهد الأموي الى
العراق في ايام دولة بني العباس فكان للبصرة نصيب في جل ما يرد الى
عاصمة الدولة الجديدة وغيرها من مدن ارض السواد ، من بضائع الهند
وتحفها وعاجها وساجها ، ومن منسوجات الصين واقشتها وحريرها ، ومن
حاصلات جزر الهند الشرقية وتوابلها وعطورها ومواد زينتها وخيزانها ؛
كما كان لها نصيب فيما يصدره العراق من حاصلاته الى البلاد الأخرى
عن طريق البحر

وقد عرف البصريون في ذلك الزمن بنشاطهم في الملاحة وركوب
البحر ، فصنعوا السفن الشراعية الثقيلة ، وامتلكوا الكثير منها ، ومحروا في
اعماق المحيطات ، ووصلوا سواحل البلاد النائية في سهل التجارة ، ونقلوا
بضائعها الى مدينتهم حيث كانت توزع منها الى داخل البلاد والأقصى

(١) معجم البلدان : البصرة .

الاسلامية المجاورة لذلك امتلأت موانئ البصرة بالسفن التي قال فيهـا
الشاعر « ابن ابي عينة المهبي »

يا جنة فاقت الجنان فـا يعدهـا قيمة ولا مـن
الفــتها فــاتخذتها وــطنـاً ان فــوادي لــشمــها وــطنــاً
من ســفنــ كالــنعمــ مــقبــلةــ ومن نــعــامــ كــأنــها ســفنــ (١)

بجانب هذا التقدم الزراعي والاقتصادي لم تــعدــ البصرة من حــركةــ صــنــاعــيةــ
مــوقــفةــ لــكــثــرةــ من نــزــحــ اليــهاــ فــســكــنــهاــ من الفــرســ والمــهــنــودــ والــصــينــيــنــ وــغــيرــهــ منــ
الــقــادــمــينــ من بلــادــ عــرــيقــةــ بــالــصــنــاعــةــ الــمــتــحــضــرــةــ فــصــنــعــواــ اــنــوــاعــ الســلاحــ منــ
الــمــعــادــنــ الــمــســتــوــرــدــةــ مــنــ خــرــاســانــ وــغــيرــهــ ؛ــ وــتــفــنــنــواــ فــيــ صــقــلــ الســيــوــفــ وــتــرــصــيــعــهــاــ
وــتــزــيــيــنــ الدــرــوــعــ وــتــغــلــيفــهــ ؛ــ وــتــقــفــوــاــ الرــمــاــحــ وــالــســهــاــمــ الــتــيــ صــنــعــوــهــاــ مــنــ الــخــيــزــانــ
الــمــنــدــيــ ؛ــ وــصــاغــوــاــ الــذــهــبــ الــوــارــدــ مــنــ الشــرــقــ وــعــمــلــوــاــ مــنــهــ شــتــىــ الــخــلــيــ وــطــرــزــوــهــاــ
بــالــجــواــهــرــ وــالــأــحــجــارــ الــكــرــيــةــ الــتــيــ كــانــ يــأــتــيــ بــهــ التــجــارــ مــنــ ســوــاــحــلــ الــخــيــطــ ؛ــ
وــنــظــمــوــاــ الــلــلــآــلــيــ الــفــاخــرــةــ الــمــســتــخــرــجــةــ مــنــ قــعــرــ الــخــلــيــ الــفــارــســيــ ؛ــ وــطــبــعــوــاــ الرــســوــمــ
وــالــنــقــوــشــ عــلــ كــؤــوســ الــزــجــاجــ بــالــوــانــ شــعــرــيــةــ زــاهــيــةــ كــاــ وــصــفــهــاــ الــأــدــيــبــ الــبــصــرــيــ،ــ
ابــوــ نــوــاــســ بــقــوــلــهــ

تــدارــ عــلــيــاــ الــرــاحــ فــيــ عــســجــدــيــةــ حــبــتــهــاــ بــأــنــوــاعــ النــصــاوــيرــ فــارــســ
قــوارــتــهــاــ كــســرــىــ وــفــيــ جــنــبــتــهــاــ مــهــىــ تــدــرــيــهــاــ بــالــقــســيــ الــفــوــارــســ
وــغــزــلــوــاــ الصــوــفــ وــنــســجــوــاــ الــقــطــنــ وــالــخــرــيرــ ،ــ وــمــهــرــوــاــ بــعــصــرــ الــفــوــاــكــهــ وــطــرــقــ
حــفــظــهــاــ ،ــ وــتــقــطــيــرــ الــخــوــرــ مــنــ الــأــعــذــابــ وــالــتــمــرــ ؛ــ وــاســتــعــمــلــوــاــ الــطــوــاــحــينــ الــمــائــيــةــ
وــالــمــوــائــيــةــ ؛ــ وــعــمــلــوــاــ الــقــنــفــ وــالــمــصــارــ وــغــيرــهــاــ مــنــ الــقــصــبــ وــالــبــرــدــيــ وــســعــفــ

(١) معجم البلدان : البصرة .

النخل الموجود عندهم بغزارة ولم تختلف الصناعة في البصرة عنها في الشام وبغداد شاطئاً وجودة واقتانًا

ييد ان هذه الخيرات الطبيعية والأرباح التجارية والصناعية الوفرة لم تكن موزعة بانتظام على سائر طبقات السكان ؛ ولكنها كانت تفيض على البعض اليسير منها ، وتتضاءل في سواد الشعب حيث يكون الوسط ثم الفقر والتسول ومع ذلك ، فقد كانت البصرة خيراً من غيرها من المدن الأخرى لسهولة العيش ورخص الحاجات فيها وقد وصفها أحد الزائرين لها في تلك الايام فقال « هي خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس اما الجائع فیأكل كل خبز الارزه والصحناء فلا ينفق في الشهر اكثر من درهفين ؛ واما الغريب فيمكن ان يتزوج بجزء من الدرهم ؛ واما المحتاج فلا عليه غائلاً ما بقيت له معدة تأكل كل (١) »

فكان من نتيجة سوء توزيع الثروة هذا ان وجد في المجتمع البصري طبقات اسرفت في التأنيق والترف ، فبنيت في قصورها اجنحة متعددة خصص بعضها حرمًا للأسرة ، وجعل البعض الآخر للضيف وال المجالس ؛ واعتنوا بتأثيث هذه الدور وتنسيق حدائقها ، وركبوا في المراكب الضخمة من الجياد والبراذين البيض والسلاح المحلي بالذهب والفضة وانواع الزينة والألبسة الفاخرة

وكان الشعار السائد في لباس الرجال - يومئذ - العامة العربية المكورة ، او القنسوة الفارسية الضخمة ، والجبب الملونة ، والثياب المصنوعة في مصر او اليمين المنسوجة من الكتان والقطن الفاخر او الصوف الناعم والمطرزة احياناً بخيوط دقيقة من الفضة او الذهب ، والنعال العربية او « السيرية »

(١) معجم البلدان : البصرة .

الفارسية ، والجوارب القطنية او الحريرية او الصوفية المغلفة من اطرافها بالجلد الرقيق . واما النساء من هذه الأسر الموسرة فكمن يقلدن الدمشقيات ثم البغداديات بزيتها ، من غلائل حريرية رقيقة ، وثياب من الدمشق ، وعصابات في الرأس مزركشة باللؤلؤ والجوهر ، واحذية خفيفة تنسج احياناً بخيوط معدنية لامعة

وكان في البصرة ، كما في غيرها من امهات المدن ، اسوق عاصمة لبيع الرقيق الایض والأسود والأصفر ؛ وفيهن الجواري الحسان اللاتي يؤتى بهن من البلاد المفتوحة حرباً ، او من المولدات في بعض الأقطار الاسلامية للتجارة والربح وتکاد لا تخلو اسرة غنية في البصرة من جارية او عدة جوارٍ على اختلاف اجناسهن من تركية او رومية بيضاء او صينية صفراء او حبشيّة سوداء ، يشترين لأجل الخدمة او التسرى كعادة ذلك العصر واسواق اخرى لبيع العبيد من الرجال المجلوبين من بلاد السودان والنوبة والحبشة لأجل العمل والخدمة في الحقول والمزارع وقد كثر عدد هؤلاء في البصرة في العصرين الأول والثاني العباسيين الى حد كبير فكان لهم فيما بعد شأنٌ تاريخي خطير (١)

الحركة الفكرية

بجانب ذلك التقدم العمراني والاجتماعي والتعاشر الاقتصادي ، نشطت في البصرة حركة فكرية ، اتسعت على مدى الأيام وتضخمـت فكانت احدى القواعد الرئيسية لصرح الحضارة العلمية والأدبية الاسلامية التي نعيش اليوم على تراثها الحالـد ولم تتنافـس البصرة في هذا المجال - يومئذ -

(١) انظر ثورة الزنج في تاريخ الصبرى وغيره في القرن الثالث المجري .

غير مدينة الكوفة التي شيدت بعدها بستة أشهر على وجه التقرير يقول المؤرخون عندما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، وانضوى تحت لوائها مالك شاسعة مأهولة بشعوب غير عربية اعتنقت الاسلام ، بدأ الناس يلجنون في قراءتهم القرآن ، فخفيف عليهم من الانحراف عن اصول الدين بسبب ذلك اللحن الذي قد يغير في معاني كتاب الله ؛ فظهر جماعة من المفكرين ، وضعوا قواعد رئيسية ملزمة في القراءة ، سميت « علم النحو »، ثم ظل هذا العلم يتسع ويترکز وينظم حتى اكتمل في نهاية القرن الثاني للهجرة

لم احتاج المسلمين بعد ذلك الى فهم بعض المعاني القرآنية الصعبة اللغة والادراك على غير العرب ، وحتى على العرب الذين ولدوا وعاشوا بين الشعوب الغريبة ، فنشأ « علم التفسير » ولما كان التفسير يحتاج الى معرفة اللغة الصحيحة ، رجعوا الى اقوال العرب القدمين ، وقارنوا معانيها بمعانيه ، والفاظها بالفاظه ، وكلماتها بكلماته ، فظهر من ذلك « علم فقه اللغة » الذي اصبح فيما بعد اساساً لتأليف المعاجم اللغوية

ولما كانت اقوال العرب القدmins من خطب واشعار وامثال وحكم وغيرها ، غير مدونة في ذلك العهد ، ولا مجموعة عند احد من الناس ، ظهرت جماعات من العلماء اشتعلوا بجمعها وتسجيلها وتصحيحها بعد ان كانت مبعثرة في صدور الرواية والحفظ من الأعراب الفصحاء المتقللين مع قبائلهم في بوادي قلب الجزيرة العربية واطرافها فاختص بعضهم برواية اللغة ، واختص الآخرون برواية الأدب ، وان كان من الصعب التفريق بين الاختصاصين لارتباطهما المتين بعضهما

وكان هنالك نوع آخر من الرواية في قراءة القرآن حسب لهجات

القبائل التي تختلف في تلفظ بعض الكلمات اختلافاً سطحياً لا يتعلّق بجواهر معاني الآيات ؟ فبني عدد من العلماء بتدوين هذه اللهجات في قراءة الكتاب المزدوج ، فنشأ من ذلك علم « القراءات السبع » نسبة إلى أولئك العلماء السبعة الذين جمعوا هذا العلم عن الصحابة والتابعين^(١)

واستعانوا أيضاً - لأجل تفسير معاني القرآن وأحكامه - بالرجوع إلى أحاديث النبي عليه السلام وكانت الأحاديث بعد وفاة الرسول قد تبعثرت في صدور الحفاظ من صحابته ، فعملوا على جمعها وتدوينها ودراستها ، فكان « علم الحديث » الذي تشعب فيما بعد إلى فروع تتعلق بشرحه وتأويله وغريبه وصحيحه ومنحوله ودراسة أحوال رواه ، إلى آخر ذلك ثم فكروا في إيجاد تشريع يستعينون به للحكم في قضايا الناس وما يتعلق بأحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، وكان اعتمادهم في ذلك قبل كل شيء على القرآن والحديث ، فاستنبتوا منها الشريعة وأحكامها وتوسعوا في ذلك حتى نشأ علم « الفقه الإسلامي » بفروعه المعروفة كعلم النظر والمناظرة ، والجدل ، والفرائض ، والشروط ، والقضاء والفتوى ، ومحوها . وكان من أثر انتشار العلوم القرآنية هذه وتوسيع المسلمين في مواضيعها ، أن كثُر النقاش والجدل حول المعتقدات الدينية واهدافها وفلسفتها ، فظهر

(١) القراء السبعة الأوائل :

عبد الله بن عامر البصري	—	المتوفى عام ١١٨
عبد الله بن كثير	—	١٢٠
عاصم بن أبي النجود	—	١٢٨
يزيد بن القمّاع	—	١٣٢
أبو عمرو بن العلاء	—	١٥٤
جزة بن حبيب	—	١٥٦
نافع بن عبد الرحمن	—	١٦٩

علم الكلام وسمى اصحابه « المتكلموں » ، ومنهم « المعزلة » ثم تفرع الاعزال الى طوائف مختلفة في القرن الثاني للهجرة

ولما كان تفسير القرآن والحديث واستخراج الأحكام منها يستلزم معرفة الأسباب التي نزلت من أجلها الآيات وقيلت الأحاديث النبوية ، عمدوا الى جمع السيرة الحمدية وتدوينها بالتفصيل ثم اضطروا لأجل التحقيق في مسائل الحديث الى البحث في اسانيدها والتغريق بين ضعيفها ومسندها ، فجرهم ذلك الى النظر في تراجم رواة الأحاديث ومعرفة احوالهم وسيرهم وتقسيمهم الى طبقات فكار هذا من أهم البواعث في انشاء « علم الأنساب » ، وعلم السير والطبقات ثم جعوا اخبار العرب في الجاهلية والاسلام دونوا حواتهم وأيامهم وغزواتهم وفتوحاتهم فظهر « علم التاريخ » . وأجلائهم الحاجة بعد ذلك الى دراسة احوال البلاد وأراضيها وطبيعتها ، ومعرفة كيفية انتقالها الى أيدي المسلمين - حرّباً كان أم صلحاً - لكي يطبقوا على اهلها احكام الجبائية والخارج وغيرها ، فساقهم ذلك الى التنقل في أنحاء المملكة الاسلامية ومعرفة مواقعها وحدودها وسهولها وجبلها ومياهها ، فتكوّن عندهم « علم الجغرافيا » ، ولكن بدأ في اول الأمر بشكل بدائي بسيط ثم تطور بعد القرن الرابع والخامس الى علم أتم وأدق ، وظهر عدد من الرحالة الذين جابوا هذه البلاد ودرسوها احوالها وكتبوا عنها ، ورسموا خرائطها بقدر ما استطاعوا ثم نشأ غير ما ذكرنا علوم أخرى كثيرة يضيق هذا البحث المقتضب عن حصرها وعدها

كانت مدينة البصرة - كما قلنا - في مقدمة البلاد الاسلامية التي نشأت فيها هذه النهضة العلمية وقد اختلف الباحثون في اسباب ذلك وتضاربت آراؤهم والأصح منها هو ان جماعة من الصحابة الحافظين

للقرآن والأحاديث نزلوا فيها وسكنوها في أوائل تأسيسها ، وتبعهم عدد آخر من علماء التابعين من العرب والموالي ، كما سكنتها معهم جمورو كبير من المفكرين وطلاب العلم من شعوب غير عربية ذوي حضارة عريقة بالعلم والأدب والفن ، فابنوا من ذلك جو ديني علمي ، تبرعمت فيه تلك النهضة ثم تفتقت على مر الأيام ، وازدهرت بفضل وجود المسجد الجامع الذي أصبح مركزاً للدرس والتعليم ؛ وبفضل مجاورة « سوق المربد » الذي استحال بعد قرب إلى مركز ادبي سياسي واجتماعي ؛ وقرب الجزيرة العربية موطن اللغة الفصحى ومستودع الاتصال الفكري العربي القديم والجديد

بدأ الدرس والتعليم في المسجد المذكور على شكل بدائي بسيط ، ثم أخذ بالتطور والتوسع حين أخذ شيوخه وأساتذته في التوغل والبحث والتدقيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح شيئاً بكلية علمية راقية ، تعقد فيه الحلقات من الطلاب على شكل دوائر ، يحيط كل منها باستاذ يتربع أمامهم على منصة تتکيء بحدى اسطوانات المسجد ، ويلقي عليهم محاضراته مما جمع في الأواحة او حفظ في ذاكرته من العلوم النقلية او العقلية على اختلافها .. وقد لا يكون الدرس في فرع علمي واحد ، وربما تشعب في نفس الوقت الى فروع مختلفة من تفسير القرآن ، ورواية الحديث ، وقاعدة حوية ، وفقه لغوي ، مع شيء من الأدب والأخبار والأنساب وغير ذلك

كانت ابواب المسجد الجامع مفتوحة ليلاً نهاراً للكل راغب في الفائدة العلمية ما دامت هنالك حلقة معقودة لأستاذ من الأساتذة .. وللطالب حرية الكاملة بدون قيد او شرط في اختيار الحلقة التي يريد ملازمتها والأستاذ الذي يرغب الجلوس اليه والافادة منه ؛ كما له حق التنقل بين الحلقات متى

شاء وليس عليه امتحان مفروض يؤديه ؟ وليست هنالك شهادات تعطى او درجات تقدر

وقد يلزム الطالب حلقة اسناذ من هؤلاء الأساتذة الكثُر أعواماً طويلاً وبدون انقطاع ، فتشائِ بين العالم والتعلم صلة ودية وصداقة وحرمة تعود على الطالب بالفائدة من تعلم وتوجيه وإرشاد وقد ينتقل طالب العلم بين الحلقات في اوقات مختلفة ويتعرف الى اساتذة عديدين فيأخذ عن كل منهم العلم الذي يتمتاز به ويختص فيه وحتى الأساتذة افسهم ، يحضر بعضهم حلقات زملائهم ليسمعوا منهم مسألة من المسائل او يأخذوا قراءة من القراءات او فرعاً من فروع العلم التي لم يختصوا بها ولا يجدون بأساً في ان يجلسوا مع طلابهم امام زميل لهم ، ما دام ذلك في سبيل الحصول على الفائدة وربما جرت المناقشات والمناظرات حول مسألة من المسائل الدقيقة بين هؤلاء الأساتذة ، فيأتي كل منهم بحججه وبياناته ومستنداته وأمثالته حتى تنجلي حقيقة تلك المسألة ويتبين الصواب وتم الفائدة على الجميع

ولم يكن المسجد هذا مقصراً على الأساتذة والطلاب ، بل كان يحضر حلقاته خليط من سائر طبقات المجتمع البصري من عشاق العلم والأدب والشعر ، وفيهم الناجر والصانع والأمير والفقير ، وحتى الأعراب الفصحاء أو الأدباء من يغدون الى البصرة في شؤونهم الخاصة ، فيدخلون المسجد ويجلسون في حلقاته ، ويناقشون شيئاً عارضين ما عندهم من أدب يحفظونه او شعر يروونه او نادرة سمعوا بها ، او شيء من انتاجهم الشخصي في الشعر او الرجز او الكلام الفصيح المأثور وهكذا يصبح المسجد اشبه بسوق ادبي رائق ، بضاعته السؤال والجواب والانشاء والأخذ والرد والمناقشة

والنقد والتحليل

وهنالك جمّهُرَة من الظفَرَاء يعرِفُون بـ «المُسْجِدِين» ، يتَخَذُون المسجد ندوة لهم ، فيطَلُّون مَكْوَثُهُم فيَهُ ، وغشيانهم له . ولم يَكُونُوا - في الواقع - من صنف واحد ، ولَكَنْهُم خليطٌ من النَّاس ، فِيهِمُ الرَاوِيَةُ والأَدِيبُ والشَّاعِرُ وَالْعَالَمُ وَمَصْطَنْعُ الْحَكْمَةِ فَتَرَاهُم يَسْتَطِرُّونَ مِنْ هَذِهِ التَّقَافَاتِ الَّتِي يَرْخُرُ بِهَا جَوُّ الْمَسْجِدِ ، وَيَحْضُرُونَ حَلَقَاتِ الأَسَاتِذَةِ الْمُعْرُوفِينَ بِالْأَدِيبِ وَالظَّرْفِ وَخَفَةِ الرُّوحِ ، لِيَسْتَمْتَعُوا بِمَا يَقْعُدُ فِي مَجَانِسِهِمْ مِنْ نَادِرَةِ طَرِيقَةٍ أَوْ شِعْرٍ رَقِيقٍ أَوْ رَوَايَةٍ فَكِيرَةٍ ، أَوْ مَلْحَةَ عَذْبَةٍ أَوْ غَلْطَةٍ تَنْتَشِرُ حَوْلَهَا نَكَاتٌ لَاذِعَةٌ وَبَعْضُ هُؤُلَاءِ الْمُسْجِدِينَ لَا يَغْرِقُ فِي عِلْمِ الْعُلُومِ ، ولَكَنْهُمْ يَصِيبُونَ مِنْ هَذَا وَذَاكَ ، ثُمَّ يَجِلسُونَ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، يَتَحَدَّثُونَ فِي شَتِّي الْأَحَادِيثِ وَيَتَجَاذِبُونَ اطْرَافَ الْمَسَائِلِ وَالْتَّوَادِرِ عَلَى أَنْ فِيهِمْ مِنْ كَانَ يَلْزَمُ الْحَلَقَاتِ بِمَدِ الْأَجْلِ التَّحْصِيلِ وَالْأَغْرَاقِ فِي الْفَائِدَةِ وَالْعِلْمِ ، فَلَا يَكَادُ يَنْتَهِي مِنْ حَلْقَةٍ حَتَّى يَبْدُأُ بِالْأُخْرَى ، ثُمَّ يَعُودُ فِي سَاعَاتٍ فَرَاغَهُ لِلْاجْمَاعِ بِصَحْبَهِ مِنْ هُؤُلَاءِ الْمُسْجِدِينَ الظُّفَرَاءِ

وَلَمْ يَكُنْ لِأَسَاتِذَةِ الْمَسْجِدِ مِنْ شِيوُخِ الْحَلَقَاتِ هُؤُلَاءِ رُوَاتِبٌ يَتَقَاضُونَهَا مِنْ جَانِبِ حَكَمِيٍّ أَوْ شَبِهِ حَكَمِيٍّ لِقاءِ اضْعَافَهُمْ أَوْ قَاتَلَهُمْ فِي اعْطَاءِ الدُّرُوسِ (١) ؛ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَبرَّعُونَ بِذَلِكَ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ الْعَامِ ، وَيَرَوُنَ فِي عَلَمِهِمْ هَذَا شَيْئاً مِنَ التَّقْوِيَّةِ وَالتَّقْرِبِ إِلَى اللَّهِ فَكَانُ بَعْضُهُمْ يَشْتَغلُ بِالْمَهْنِ الْحَرَةِ كَالْتَجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ لِسَدِ حَاجَتِهِ ، وَكَسْبِ مَا يَعِيشُ بِهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا وَاسِعُ الْحَالِ ؛ وَإِنَّمَا الْفَقِيرَ الْفَعِيفَ مِنْهُمْ فَيَقْبَلُ فَرْضًا مِنْ أَمِيرِ مُوسَرٍ أَوْ ثَرِيٍّ

(١) كَانَ بَعْضُ هُؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ يَشْتَغلُ بِالْتَجَارَةِ ، وَبَعْضُهُمْ يَقْبِلُ الْفَرْضَ ، وَآخَرُونَ يَعِيشُونَ فِي كَفَافٍ .

يعطف على العلم والعلماء

ولم يدفع طلاب العلم ثمناً لتحصيلهم ودراستهم ، الا ما كاف على سبيل المدية والاكرام يقدمه الأغنياء منهم لأساتذتهم في النسبات ؛ على ان القسم الأكبر من اولئك الاساتذة كانوا يزهدون حتى بهذا النوع من العطاء ، احتفاظاً بثوابهم الديني وبما يصيرون من احترام واجلال في مجتمعهم .
والقليل من اولئك الشيوخ من يتقبل المدية والمنحة من طلابه^(١)

كانت هذه الجموعة الضخمة من العلماء والمتعلمين والمستمعين - في صحن المسجد - في حركة مستمرة وجهد متواصل في سبيل البحث والحصول على المزيد من الفوائد الفكرية التي يعثرون عليها عند بعضهم ، او التي يفترشون عنها في خارج المسجد قاصدين منازل الأعراب المجاورة لمدينة البصرة ، او في سوق المربد ، او عند القبائل القاطنة في فيافي الجزيرة العربية ، كما يبحث جنابة « الكمة » عنها في مواطنها الخصبة

وكان اقرب المصادر الى هؤلاء الباحثين عن اللغة والأدب ، هي منازل الأعراب الذين استوطنوا في اطراف مدينة البصرة ، وعددتهم كثير ، وفيهم الفصيح والعلم والراوية ؛ وكانوا لا يخلون على علماء المسجد وطلابه باعطائهم ما لديهم من تلك الفوائد التي يحتفظون بها ويتوارثونها من اسلفهم ، لأجل تدوينها وحفظها والاتفاق بها

واما « سوق المربد » فقع على بعد ثلاثة اميال من البصرة ، نحو الصحراء وكان هذا السوق ، في أول اعره ، ارضاً خلاءً ينزلها الأعراب القادمون من الصحراء ليتصلوا بمن يتعاملون معهم من تجار البصرة ، فيبيعونهم انتاج مواشيهم ، ويشربون منهم ما يحتاجون اليه في بواديهم النائية

(١) انظر كتاب البخلاء للباحث .

من لباس وطعام وأشياء أخرى وكانوا يسمونه « سوق الأبل » ثم أطلق عليه اسم « المربد » ، وبنيت فيه البيوت كما تبني في الضواحي عرف هذا السوق من يوم تأسيس البصرة فلم يطال عليه الزمن حتى عرف واشتهر ، وصار مركزاً اجتماعياً وسياسياً وأديرياً على طراز اسوق العرب في الجاهلية ؛ تلقى فيه الخطب ، وتنشد فيه القصائد والاراجيز ، وتتكلل فيه الجماهير المعنية بالسياسة عند المناسبات وقد لعب في العهد الأموي أدواراً خطيرة في سياسة الدولة ؛ إذ كان يرد اليه الشعرا الكبار امثال الفردق وجرير وراعي الأبل والطرماح وغيرهم ، ويؤمه الخطباء المفوهون امثال سجان وائل وخالد بن صفوان وغيرها فينتحي كل منهم زاوية خاصة به ، ويلتف حولهم الناس ليسمعوا قصائدهم الغراء ، او خطبهم الفياضة في تأييد سياسة الدولة او معارضتها ، وفي هجاء بعضهم بقائل البعض الآخر ، او في تأييد مذهب دون غيره ، الى آخر ما هنالك من النزاعات المتضاربة في ذلك العهد فن شاعر اموي الهوى ، الى آخر علوي المذهب ، او خارجي النزعة ، او عباسي الدعوة ، او زيري الفكرة ، او غير ذلك .. وكان هذا الاتجاح الفكري يحفظه الرواة وينقلونه الى مجالس المدن والمحاضر ومنتدياتها ، فيتحدث بها الرأي العام

فلا انطوى عهدبني امية ، وانتشرت رايةبني العباس ، وتركت دولتهم في العراق ، خدت جذوة السياسة في سوق المربد ، وضعف شأن الخطابة فيه ، وتقلص ظل الشعر السياسي عنه ، وتبدل جو ذلك الصراع الفكري بجو آخر يعني بالبحوث الأدبية واللغوية ، فامتلأت جوانب السوق بالباحثين عن اللغة الفصيحة ، والشعر الغريب والقديم ، والأخبار والأنساب والنادرة والحكمة وغرت المربد موجات من طلاب العلم في مسجد البصرة

يبحثون عن الأعراب الفصحاء ورواة الأدب والأخبار منهم ، ليتعرفوا اليهم وأخذوا ما عندهم ، او يدعونهم الى ضيافتهم في البصرة ، ويقدون لهم المجالس ، ويثيرون معهم الماقشات والجدل لأجل الحصول على الفائدة وهذا ما كان يشجع بعض فصحاء الأعراب ورواتهم على المجيء الى المربد لاعطاء ما عندهم لهؤلاء الراغبين في جمع اللغة والأدب والأخبار ، لقاء بعض الفوائد الهدية التي هم في اشد الحاجة - احياناً - اليها وهكذا بقي المربد زمناً طويلاً كمصدر غني لتنمية حركة المسجد في البصرة التي تحدثنا عنها

ثم شعر بعض رجال العلم وقادة النهضة في مسجد البصرة بأن هنالك الكثير من فصحاء الأعراب ورواة الأدب القديم يسكنون البوادي البعيدة عن المربد ، ولم تدفعهم الحاجة الى قصده والمجيء اليه ، فشدوا رواحهم اليهم ، وتوغلوا في فجاج الجزيرة العربية يقطعون بواديها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً للبحث عنهم والالتقاء بهم واخذ ما عندهم من ذلك التراث الثمين قبل ان يتبعثر ويتخلص فيضيع

وقد ظهر في العصر الأول العاسي عدد من هؤلاء الرواد الذين بذلوا شطراً من حياتهم في الاسفار واجتاز الصحاري اليابسة لأجل الاتصال بالقبائل في منازلها النائية ، هذه الغاية ، امثال خلف الاحمر وابي عمرو بن العلاء والأصمسي وغيرهم والى هؤلاء وامثالهم يعود الفضل الأكبر في جمع اللغة العربية الصحيحة والشعر والأدب ، وتنمية تلك النهضة التي آتت مراتها فيما بعد

وإذا كان لكل حركة باعث ومشجع ، فإن الذي كان يشجع اوئل تلك العلاء والأدباء علىبذل تلك الجهود الجباره المضنية في جمع ذلك الانتاج

العربي الفكري من علم وأدب ، وتوسيع نطاقه ، وتنظيمه وإذ كاء شعلته ، هو - في الحقيقة - ذلك التقدير الاجتماعي ، واقبال الناس على العلم والأدب ، وتشجيع رجال الدولة لكل حركة فكرية في ذلك العهد الا ما كان منحرفاً عن سن الدين

كان الخلفاء الأول في صدر الاسلام يفضلون قراء القرآن ومن يحفظه على من لا يحفظه ، في العطاء وتوزيع الأسمى على المجاهدين من خنائم الحروب والفتورات . ولم يقصر خلفاء بني امية في ذلك ، بل فتحوا ابوابهم للمفهوماء والعلماء ، وقربوا اليهم الكتاب ، وبدلوا مما في خزائنهما لشعراء ورواة الأدب وزاد هذا في عهد بني العباس الأول ؟ فقد كان ابو جعفر المنصور نفسه احد فقهاء عصره وعلمائهم ؛ وكان ابنه المهي اقل علمآ منه ولكنه أندى يدأ في اكرام العلماء واعطاء الشعراء ؛ وفاقه في ذلك كل من ولديه موسى المادي وهارون الرشيد ومن جاء بعدهم من الخلفاء وقد جاء في الأخبار ان بعض خلفاء المسلمين - خلال هذه الفترة - كان يرسل الى عامله ، في اي قطر بعيد ، ليوفد اليه احد رواة الأدب كي يروي له تتمة قصيدة سمع اولها او احد اياتها و منهم من كان يسمع شيئاً من الشعر فيطرب له ، فيسأل عن قائله ، ويبعث له بعطاء من عنده وهو في بيته ومنهم من كان يرسل المسائل الفقهية الصعبة الى مجتهد عالم في بلد قصي ليحييه عليها ، ويكرمه من اجل ذلك

كان هذا الاهتمام والتشجيع من اكثرا الخلفاء يجعل ولاة الدولة وعمالها على الأقاليم ينحون هذا المنحى تقليداً لملوكهم ، فيجالسون العلماء ويقربون الأدباء الموجودين في مناطقهم ، ويحرضون على مصادقتهم والاسترشاد في بعض الأمور بآرائهم ، ويحثون الناس على احترامهم ، ويعنون في اكرامهم ، ويصحبونهم

في المراكب معهم ، ويتباهون بن كات نابغاً مشهوراً منهم ، ويزلونهم عندهم حسب طبقاتهم فالفقهاء والمحثون ، ثم علماء اللغة والنحو ، ثم رواة الأدب والأخبار وكثيراً ما كانوا يعقدون لهم المجالس للمناظرة والجدل والمساجلات الأدبية ، ثم يقدمون لهم الهبات والمنسح بعد ذلك وربما اختاروا بعضهم من النواuge المشهورين ليشغل منصباً في الدولة ، او ليقرب الى الخليفة فيكون في حاشيته او من ندائه وجلاسه ، او من مؤدي اولاده

ولم تكن هذه النهضة الفكرية في البصرة مقصورة على دراسة العلوم الشرعية والسانية ، وجمع الاتاج الفكري القديم ، وتدوين اخبار الغابرین من عرب الجاهلية وصدر الاسلام فحسب ، بل كانت مشحونة ايضاً بالاتاج الأدبي الحديث لكثره من نبغ في هذا العهد من الشعراء والأدباء والكتاب والمنشئين ولا نغالي إذا قلنا بأن الفترة التي عاش فيها صاحبنا الأصمعي بين عامي « ١٢٣ - ٢١٧ هجري » كانت فترة انتاج ادبي غير بلغت به مدينة البصرة قمة مجدها كما بلغتها في العلوم المختلفة التي تحدثنا عنها وكان هذا الاتاج الجديد مختلف في اخيته وأسلوبه وديباجته عن ذلك الاتاج العربي القديم ، ولا سيما في الشعر

والسبب في ذلك اختلاف وسائل العيش وسبل الحياة بين العهدين فقد كان كل من الأدب الجاهلي والأموي عربياً صافياً يغلب عليه طابع البداءة وخسونه الصحراء فلما تحضر العرب وسكنوا المدن ، وانطلقوا بالعناصر الأخرى من الفرس والروم وغيرهم ، وتغلغل الترف ونعومة الحضارة في صفوفهم ومواطن إقامتهم ، واقتنوا الثروات الطائلة ، وتسروا الجواري الحسان والتفت قصورهم بالحدائق الورقة والجنان المزهرة ، وانغمسو باللذة والنعم

بعد التقشف والبداءة ، وكثير من تعلم العربية من علماء الموالي وأدبائهم ، واحتكوا بالعرب فكريًا واجتماعيًّا ، تغيرت الأخيلة والديباجة في الأدب العربي كل التغيير ، فجاءت وعليها مسحة من هذه الحضارة ورونق من ذلك الترف

وأكثر ما يمتاز به الشعر في العصر العباسي الأول عنه في العهد الجاهلي والأموي المعاني الجديدة ، والدقة في الوصف والرقابة في اللفظ والاسراف في وصف النساء وذكر المهرة والرياض والأزهار ، مع كثير من المجموع والخلالعة في وصف الغيمان والتغزل بالذكر ، وغير ذلك مما لم يكن موجوداً في المهد الاولى

اما الخطابة فقد ضعفت ديبياجتها في العصر العباسي ، وتضاءلت روعة الاسلوب البدوي المتين فيها ، ولكنها تقدت باسلوب وافكار وآراء سياسية جديدة ولم تكن « الكتابة والانشاء » عند العرب الا بقدر ما كان عندهم من الرسائل القصيرة وما يكتب بين الخلفاء والعمال ولكنها نشطت في اواخر العهد الاموي واواسط العصر العباسي الاول حيث بدأ التأليف في الشؤون الاجتماعية والادبية ، ونبغ كتاب مشهورون لكل منهم أسلوبه الخاص به ، أمثال « عبد الحميد الكاتب » و « عبد الله بن المتفق » و « عمرو بن بحر الجاحظ » وغيرهم من ادباء البصرة

وكان التأليف وتصنيف الكتب يزداد باطراد كلما زدت النهضة العلمية واتسعت جوانبها ؛ ف تكونت طبقة من الناس ، اطلق عليهم اسم « الوراقين » يشتغلون بنسخ هذه التأليف الجديدة وبيعها على الناس بأثمان مناسبة وكان لهم في البصرة دكاكين في الاسواق تعرف بهذا الاسم ولم يكن عملهم مقتصرًا على نسخ المؤلفات العربية فحسب ، بل كانوا أيضًا ينسخون

الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية الى العربية ، حيث كانت الترجمة قد نشطت في اوائل العصر العباسي وبدأ العرب يقرأون الكثير مما اتبجه فلاسفة اليونان والرومان وحكماء الفرس والهنود والسريان وغيرهم وقد نبغ في هذه الفترة من الزمن عدد كبير من المתרגمين نقلوا الى العربية كمية لا بأس بها من انتاج هذه الشعوب العربية بالعلم والحضارة

وما يجدر بالذكر ان نهضة البصرة العلمية كانت - كما رأينا - تستند في الأكثر على العلوم الشرعية ، وتستمد معظم مواردها من القرآن والحديث واللغة ، وكان الطابع الديني ظاهراً فيها فلما توغل الباحثون في دروس المسائل الدينية واستقصاء المفاهيم البعيدة من نصوص القرآن ، واختلف المجتهدون في آرائهم الفقهية ، وتوسع البعض في المحاجة الفلسفية وتفرع النقاش والجدل في المسائل الدقيقة القابلة للتأويل والقياس ، وتوفرت الكتب الأجنبية المترجمة امام المطالعين ، تكونت زمرة من المفكرين من ضعاف الايمان بالدين ، وجاهرت بآرائها الخالفة لتعاليم الاسلام وتظاهرت بالاخذ عرفت بطبقة « الزنادقة » ؛ ولكنها كانت عرضة للمطاردة والتنكيل من الخلفاء وعلمائهم على البلاد

هذا ما كان من امر النهضة العلمية والادبية ، واما من ناحية فني الموسيقى والغناء فلم تصل البصرة فيها الى ما وصلت اليه كل من المدينة المنورة في العهد الاموي ، وبغداد في أيام هارون الرشيد ولكننا لا نقول بأنها حرمت كلياً من هذين الفنانين الجميلين ، فقد ورد في اخبار البصرة اسماء بعض المغنين والموسيقيين غير انهم لم يكونوا في مقدمة زملائهم الآخرين بوغماً فيها

وكان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة والنهضة التي ازدهرت في العصر الأول العياسي ان كشفت « الشعوبية » عن وجهاً القناع ، وظهرت بوجه سافر بعد ان بقيت في اواخر العهد الأموي كامنة مستترة ، ولعبت دورها الخطير في البصرة بوجه خاص ، وفي المدح العربية الأخرى بوجه أعم

ويختلص الأمر في ذلك ، بأن العرب في صدر الاسلام ، ولا سيما في العهد الأموي ، كانوا يسمون غير العربي من ينتهي اليهم بالولاء « مولى » وكان بعض التعبصين للقومية العربية منهم لا يرون هؤلاء أكفاء لهم وإن كانوا مسلمين مثلهم فلا يُكنونهم بالكتنى ولا ينادونهم إلا بأسمائهم أو بألقابهم لما في الكلمة من تودد واحترام ولا يسمحون لهم بالسير في الصف معهم إلا وراءهم في المراكب ؛ ولا تستخدمهم الدولة في المناصب الكبيرة التي كانت مقصورة على العرب وحدهم وإذا اقيمت مائدة عربية حضرها عدد من العرب ، قام الموالي في خدمتهم ؛ وإن أطعموا أحداً معهم من الموالي لعلمه وفضله اجلسوه في طريق الخباز لكي يعلم من يراه انه ليس من العرب في الصيم ولا يجوز لأحد من الموالي ان يصلى إماماً على جنازة احد من العرب إذا كان هنالك بين المصلين عربي واحد ولو كان غريراً وإذا اراد احد من الناس الزواج بنت احد الموالي خطبها قبل كل احد من (مواليها) ، اي الى العربي الذي ينتهي ابو البت اليه ، فإن وافق كان للخاطب بعد ذلك ان يخطبها من ابيها ، وإن لا يجوز له بعد الرفض ان يتقرب الى خطبتها ؛ وإذا وافق الأب او الأخ ولم يوافق (الموالي) العربي فسخ عقد النكاح إذا كان قد عقد

وغالبًا بعض هؤلاء العرب في استقرارتهم ، فصاروا يطلقون على ابنائهم من امهات غير عربيات اسم « المولدين ». واصطلحوا على العربي من ام غير عربية كلمة « هجين » ، والمعنى في الشيء هو النقص او العيب وجرى العرف عند امراء بني امية ان لا يبايعوا امويًّا بالخلافة فإذا كان من ام غير عربية منها كانت ميزاته وكفاءته ؟ وهذا ما اخر بعض امرائهم عن الوصول الى هذا المنصب وهم أحقر من غيرهم به فقد كان القائد المشهور « مسلمة بن عبد الملك » - مثلاً - من خيرة رجالهم وأقدر فرسانهم وله تاريخ مجيد في الغزوات والفتح ولكنهم لم يبايعوه حين شعر كرسي الخلافة بعد ابيه لأن امه كانت رومية وفي رواية ان الخليفة « عبد الملك بن مروان » خطب يوماً من احد اشراف العرب ابنته ليزوجها احد ابنائه ، فأجابه قائلاً « لك ما تريده يا امير المؤمنين ولكن جنبي هجنة ولدك »

وكانت هذه النزعة الاستقرائية محصورة في رؤساء العرب من البدو ، وفي الطبقة العليا من رجال الدولة وغيرهم من ذوي المكانة وربما كان الباعث لها هو الشعور قبل كل شيء بفضل عنصرهم العربي على غيره من العناصر الأخرى ، لأنهم هم الذين فتحوا البلاد بسيوفهم ، وأخضعوا هذه العناصر بالقوية ، وهم الذين نشروا الاسلام ، وهدوا الشعوب الى طريق الحق بعد ان كانوا من الكافرين

والظاهر ان الخلفاء الأمويين كانوا يغذون هذه النزعة في نفوس العرب لا كرهاً بالموالي او ترفعاً عليهم فحسب ، ولكنهم كانوا ايضاً يرون عددهم قد تکثر وتضخم في البلاد العربية ، وصاروا يشعرون بالخوف من تغلبهم على الأمور قيل ان معاوية بن ابي سفيان دعا « احنف بن

قيس^(١) » وقال له « اني رأيت هذه الحمراء - اي الموالي - قد كثرت ، واراها قد قطعت على السلف ، وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترى ؟ » فلم يوافق احنف على هذا الرأي وأقنعه بالعدل عنه^(٢) وربما فكر معاوية بذلك بعد ان تذكر مقتل الخليفة عمر بن الخطاب على يد رجل فارسي ، ورأى ما كان للموالي من اليد الطولى في إثارة الفتنة على عثمان بن عفان وقتله

ومهما تكن العلل والأسباب ، فقد بعثت هذه الأستقراطية العربية رد فعل في نفوس المفكرين من غير العرب ، فترسب في صدور بعضهم الحقد والبغضاء ضد العنصر العربي الذي يحكمهم ولا يرى المساواة والأخوة معهم ، كما امر بذلك الدين الاسلامي وكان اول من أحس بهذا وفكر به هم ابناء الطبقة المتعلمة من الموالي الفرس الذين كانوا يذكرون حضارتهم واستقلالهم وسيادتهم في العهد القريب قبل الفتح الاسلامي ولكن هؤلاء لم يستطيعوا في العهد الاموي التظاهر بهذا الشعور خشية البطش وإنزال العقاب ؛ فقد قيل ان الشاعر « اسماعيل بن يسار » الفارسي الأصل ، دخل على الخليفة « هشام بن عبد الملك » وأنشده قصيدة في مدحه ، استهلها بالتفاخر بأمجاد الفرس ، فغضب هشام من ذلك ، وأمر بضرره واخراجه من البلاط ، ثم نفاه خارج بلاد الشام^(٣)

فلم زال حكمبني امية وتأسست الدولة العباسية بمعاونة الفرس ،

(١) احنف بن قيس احد زعيم بنى عميم وأحد الرجال المرموقين في العراق في ذلك العهد .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٧٠

(٣) الأغاني : ج ٤ ص ١٢٠

استوزر بنو العباس رجالاً من العجم الموالي ، فخفت حدة ذلك التعصب العربي ، وزال الضغط عن الآخرين حتى إذا اتسعت الحرية في ابداء الرأي والقول على اثر ازدهار الحضارة الفكرية في كل من البصرة والكوفة وبغداد ، وقوى احتكاك العناصر المتعلمـة بعضها تظاهر الحاذدون من الموالي ببعضهم للعنصر العربي ، وقالوا وكتبوا في ذلك ما شاؤوا ، فسميت حركتهم هذه بـ « الشعوبية » ، وأطلقوا كلمة « شعوبـي » على كل من يكره العنصر العربي ولا يفضلـه على غيره

وكان اول من ظهر من الشعوبـين ، في اواخر العهد الأموي ، انس يقولون بأن الله خلق الانسان من طين ، وأنزلـهم من صلبـ رجل واحد ، وجعلـهم شعوباً وقبائل ليتعارفـوا ؛ وأن الدين الاسلامي ساوي بين المسلمين وجعلـهم في ميزان واحد ، وآخـي بين المؤمنـين ، ولم يفضل عريـباً على عجمـي إلا بالتفـويـل ولكنـ المتعصـبين من العرب كانوا لا يرونـ في هذا الرأـي والمسـاواة انصـافـاً لـنـصرـهم للأسبـاب التي ذـكرـناـها

ثم تطورـ الأمر الى اسوـا من ذلكـ في العـهد العـبـاسي ، فـظـهرـ منـ الشـعـراءـ الشـعـوبـينـ منـ هـجاـ العـربـ وـأـقـذـعـ فيـ هـجـائـهـمـ

فيـ بلـدـةـ لمـ تـصلـ « عـكـنـ »ـ بـهـاـ طـنـاـ ولاـ خـباءـ ولاـ « عـكـ وـهـدانـ »ـ ولاـ « لـجـرمـ »ـ ولاـ « نـهـدـ »ـ بـهـاـ وـطـنـ لـكـهـاـ لـبـنـيـ الـأـحـرـارـ أـوـطـاـ اـرـضـ تـبـنـيـ بـهـاـ كـسـرـىـ مـاسـكـنـهـ فـماـ بـهـاـ مـنـ بـنـيـ الـلـخـنـاءـ إـنـسـاـنـ وـبـنـغـ مـنـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ الشـعـوبـينـ اـيـضاـ عـلـمـاءـ وـرـوـاـةـ اـدـبـ ، فـأـلـفـواـ كـتـبـاـ فيـ « مـثـالـبـ الـعـربـ »ـ وـجـمـعواـ اـشـعـارـ الـهـجـاءـ الـيـ قـالـهـاـ شـعـراءـ القـبـائـلـ بـعـضـهـمـ ، فـلـمـ تـبـقـ قـبـيلـةـ إـلـاـ اـصـابـهـاـ نـصـيبـ منـ ذـلـكـ الـهـجـاءـ ، حـتـىـ قـرـيشـ . وـحـرـفـواـ الـأـخـبـارـ وـالتـارـيخـ وـالـأـشـعـارـ وـنـسـبـوـهـاـ إـلـىـ غـيرـ قـائـلـيـهـ ، وـزـادـوـ فـيـهـاـ مـنـ

عندهم لغاية في نفوسهم ؛ ولم يكتفوا بذلك ، بل وضعوا الأحاديث اختلافاً على لسان النبي عليه السلام ، فأساؤوا للأدب والتاريخ والدين اساءة كبيرة

وكان الذي يحميهم أحياناً من طائفة العقاب ، ويسبّجهم على ذلك ، نفوذ الموالي الفرس من الوزراء ، أمثال « يعقوب بن داود » و «بني برمك » الذين ساهموا في حكم الدولة ، واستولوا على أزمة الأمور في عهد الرشيد ، ومدحهم الشعراء الموالي بما لم يمدح بهمّه الخلفاء

ولم يقف علماء العرب وشعراؤهم موقف المتفرج أمام هذه الموجة الاعتدائية على عنصرهم ، بل تصدوا لها وقارعوا الحجة بالحجّة ودافعوا بما يستطيعون ، فابعث من جراء ذلك حرب كلامية طال مداها وأشغال الناس زمناً طويلاً وكانت مدينة البصرة أكبر ميدان لهذا الصراع العنصري ، وذلك لضخامة الطبقة المتعلمة فيها من العرب والموالي معاً ولم تكن الكوفة مثلها في هذا الأمر ، لبعدها عن تخوم فارس وقلة الأسر الكبيرة من غير العرب فيها ولم يكن هذا الصراع على حدته في بغداد - أول الأمر - لتأخرها في إنشاء نهضتها الفكرية ؟ غير أن الشعوبية نمت فيها بعد ذلك وتزعمت ، وأخذت لها صبغة سياسية وتوغلت في صفوف الحكمين ورجال البلاط بفضل وجود البرامكة وأعوانهم من الفرس ، قتمخت عن تأثير وخيمة بشعة

الادوار السياسية ، وقبيلة باهله

والبصرة وان لم تكن في يوم من الأيام عاصمة خلافة كما كانت المدينة والشام والكوفة مثلاً ، ولكنها من أهمّات المدن التي لعبت أدواراً

سياسية خطيرة في تاريخ العرب والمسلمين ، سواءً كان ذلك في أيام الخلفاء الراشدين ، أم في العهد الأموي ، والعباسي الأول فنها خرج « حكيم بن جبلة » العبدى مع جماعة من قومه ، والتحقوا بالثأرين الذين زحفوا من بعض الأقطار الأخرى إلى الحجاز ، وحاصروا دار الخليفة عثمان بن عفان في المدينة فقتلوه ؛ وبابعوا علياً بن أبي طالب وصاروا في جيشه

وفيها حدثت معركة الجمل - على بعد ثلاثة أميال منها ، في المربد - بين جيش علي بن أبي طالب وجيش طلحة والزبير ومعهما « عائشة بنت أبي بكر الصديق زوجة النبي » واقتسم البصريون بينها ، فقتل في تلك الموقعةآلاف كثيرة من المسلمين ، حتى انتصر علي ، ودخل البصرة وخطب بالناس في مسجدها مؤنباً من اشتراك من أهلها ضده في القتال

وفيها وفي أطرافها جرت المعارك الطاحنة بين الخوارج وجيوش بني أمية بقيادة القائد المشهور « المهلب بن أبي صفرة » البصري الذي حارب هؤلاء الثوار أعواماً طويلة في الاهواز وفارس وخراسان وغيرها وفي عهد الحجاج بن يوسف الثقفي ، عامل بني أمية على العراق ، أصحاب البصرة نصيب كبير من تلك الحروب والفتن التي أثارها عليه خصومه في المناسبات .. وغير هذه الحوادث حوادث أخرى تارikhية لم يسلم من غواتها الشعب البصري .^(١)

فكان خلفاء بني أمية يعنون كثيراً بمدينة البصرة ، ويتهمنون بأمرها ويعباون بأحوالها لكثره القبائل المحاطة بها ذات الشكيمة والقوة وشدة المراس فبقيت البصرة موالية لهم حتى أواخر عهدهم فلما نشطت الدعوة

(١) تاريخ البصرة حافل بالحوادث السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة ، ليس في النزاع الداخلي بين المسلمين فحسب بل في اشتراك قبائلها وابنائها في الفروقات والفتح أيضاً .

العباسية ، واندلعت ثورتها في خراسان ، وزحفت جيوشها لفتح العراق ،
بقيت البصرة منيعة ولم تستسلم إلا بعد حرب دموية دارت في أزقها
وأحياها وفي أطرافها ولما ثار العلويون في الحجاز بقيادة محمد بن عبد الله
العلوي « النفس الزكية » سار أخوه ابراهيم الى البصرة وما حولها وتغلب
عليها وجمع منها جوحاً كثيرة ، وزحف لقتال جيش أبي جعفر المنصور
العباسي ، ولكنها لم يتوقف ، فقتل في الميدان بعد فرار أصحابه
يتبعين من هذا جلياً بأن الرأي العام في البصرة كان واعياً حسناً ،
وكانت له قيمته ووزنه في المجال السياسي والتيارات التي انتابت دولة
المسلمين منذ قامت هذه المدينة حتى أواخر العصر العباسي الأول ، وما
بعده ايضاً واذا تتبعنا الحوادث التاريخية في البصرة رأينا بأن الرأي العام
السياسي فيها كان في اول امره عثمانيّاً ، ثم صار اموياً ، ثم أصبح عباسياً ،
ثم تجرأ بعد ذلك الى شعب وطرائق قدداً

وللأوضح أكثر من هذا نقول بأن الحديث عن نشاط البصرة في
الميدانين العسكري والسياسي لا يعني ذلك الشعب الخلطي من عرب وغيرهم
في حوض المدينة وبين جدرانها ، بل يعني تلك المجموعة الكبيرة من
القبائل النيخة في اطرافها وضواحيها ، والتي بقيت محتفظة بعاداتها وتقاليدها
ونزعتها الى الفروسية والقتال ، ولا يربطها بالبصرة غير عدد يسير من ابنائها
ومجموعة من زعمائها الذين هجروا حياة البداوة الى ترف القصور ولكنهم لم
يقطعوا صلاتهم بعشائرهم ما دامت هي قوتهم في الأزمات وسندهم في
السياسة والمحروب إذا اقتضى الأمر

ولما كان الحديث عن كل قبيلة من هذه القبائل وتاريخها في البصرة
يطول شرحه ، نكتفي بالبحث عن قبيلة « باهلة » التي ينتمي اليها « الأصممي » .

قبيلة باهلة

وهي قبيلة عربية ينتهي نسبها الى « معد بن عدنان » وفي سبب تسميتها « باهلة » روایتان ؛ تقول احدهما ان احد اجدادها « باهلة بن اعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مصر بن نزار بن معد بن عدنان » ، وهي رواية ضعيفة لعدم وجود اسم باهلة في أنساب الباهليين كاهم . والأصح هو ان « باهلة » اسم امرأة « مانك بن اعصر » ؛ غير ان التاريخ لم يحدثنا عن سبب نسبة هذه القبيلة الى امرأة دون غيرها من الرجال ؛ وربما كان لهذا الأمر قصة لم تصلنا اخبارها ولتكنا عثرنا على رواية تقول ان باهلة هذه كانت زوجة مالك بن اعصر ، وقد توفي عنها زوجها مالك وهي شابة ، فتزوجها « معن بن مالك » وهو ابن زوجها - من امرأة اخرى - فولدت منه « قتيبة بن معن » و « وائل بن معن ^(١) » وقد حثتنا عن أنساب مشاهير الباهليين فوجدناهم جميعاً يتصلون بمعن عن طريق احد ولديه « قتيبة او وائل » ، مما يدل على ان الباهليين هم اولاد « معن بن مالك » من زوجته باهلة التي تزوجها بعد وفاة ابيه عنها

ويبدو لنا ان العرب استهجنوا - يومئذ - زواج هذه المرأة بابن زوجها وهي في مقام امه ف QBIBOوا اليها اولادها الذين انجبوthem من معن ، فكان هذا احد الأسباب الرئيسية في الخطاطف مزلة هذه القبيلة في نظر

(١) ينتهي نسب الأصمعي مثلا الى معن عن طريق ابنته قتيبة . وينتهي نسب مسلم بن عمرو ابن الحصين الباهلي بمعن عن طريق ابنته وائل . وهكذا

الآخرين (١) وزاد الطين بلة هو ان هذه القبيلة - كـما جاء في احدى الروايات - خضعت زماناً طويلاً لجارتها القويتين « فراة » و « ذياب » فاستخدمتها وأذلتها ، فأصبح الانتهاء الى باهلة لا يدعوا الى الاعتزاز والفاخر ، وصار بعض الباهليين اذا سئل عن نسبه قال أنا من قيس بن عيلان ، او من سعد بن قيس ويتجنب كلمة باهلة (٢)

وقد وجدنا في بطون كتب الأدب شيئاً كثيراً من الشعر والنواذر في هجاء هذه القبيلة والتقويم بضعة نسبها عند العرب كقولهم

أباـلـ يـنـبـحـنـيـ كـلـبـكـمـ وـأـسـدـكـمـ كـكـلـابـ العـرـبـ
ولـوـ قـيـلـ لـلـكـلـابـ يـاـ باـهـلـيـ عـوـىـ الـكـلـابـ مـنـ لـؤـمـ ذـاكـالـتـسـبـ
وـقـوـلـهـمـ سـئـلـ اـعـرـابـيـ ؟ـ أـيـسـرـكـ أـنـ تـدـخـلـ الجـنـةـ وـأـنـ باـهـلـيـ ؟ـ؟ـ
قالـ نـعـمـ ،ـ بـشـرـطـ أـنـ لـاـ يـعـرـفـ أـهـلـ الجـنـةـ ذـلـكـ

غير أن الذي يدرس مجموعة ما قيل في باهلة من هذا اللون الأدبي يجد على معظمها طابع الحداة والمصنعة والتعمد في الاتهام ، وقلما يعثر على قول قديم في ذلك رغم كثرة ما قيل عند العرب من الشعر في هجاء بعضهم البعض ؛ مما يدل على أن خصوم باهلة قد أكثروا من هجائهم وذمها في اواخر العهد الأموي والعصر الأول العباسي ، لأسباب اهمها ذلك الصراع الدامي بين اسرتي القائدين المعروفين « المطلب بن ابي صفرة الأزدي » و « قتيبة بن مسلم الباهلي » والتنافس بينهما على زعامة البصرة ؛ وأخبارهما في ذلك معروفة (٣) وثانيهما ذلك الخلاف الشديد بين

(١) كان العرب في المحايلية يتزوجون نساء آبائهم ، وقد حدث ذلك كثيراً ، ولكنهم كانوا لا يستيقعون هذه السنة عددهم .

(٢) امالي القالى : ج ١ ص ١١٧ - كان الاصمعي نفسه اذا سئل عن نسبه في البداية قال : أنا من بي سعد بن قيس ، او احد بن اعصر بن سعد ، ولم يقل باهلياً ولكنه لم يتصل من باهلة عند معارفه .

(٣) السـكـالـمـ : جـ ٦ـ صـ ١١٤ـ

الشيعية والعربيّة ، والحملة القاسية التي شنها الشعويّون من علماء الفرس على المناصرين للنصر العربي من شرّاء باهلة وادبائها وعلمائها الذين كثروا عددهم في البصرة في العهد الأول العباسي ، وعلى رأسهم صاحبنا الأصمّي ، كما سُنِّى في الفصول القادمة

نعم ، لا ينكر بأن قبيلة باهلة ليست في مقدمة القبائل العربيّة الأخرى ان لم تكن في مؤخرتهم اذا نشر تاريخ البطولات والاجماد والكرم واقراء الصيف وغيرها ، ولكننا لا نعتقد بأنها كانت بين العرب ، قدّيماً ، على هذه الصورة المزريّة التي أراد خصومها ، في اواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي ، ان يظهروها بها وقد ذكر لنا التاريخ شخصيات كبيرة ظهرت في المجتمع الجاهلي ، وأخرى لعب دوراً في تاريخ الإسلام ، منهم أبو أمامة « صُدَّيْ » بن عجلار « الصحابي المجاهد وأحد الذين يأيّدوا النبي (ص) تحت الشجرة ، ومنهم « سلمان ابن ربيعة الباهلي » أحد ولاته أبي بكر الصديق ، ومن ابطال حرب القادسية ضد الفرس ، وأحد رؤساء المجاهدين في فتوح ارمينية واذريجان وغيرها في عهدي الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومنهم « أبو هوذة بن شماس » أحد جلساً معاوية والذي هدده حين اساء بكلامه لباهلة^(١) و « سجان وأئل » خطيب العرب المجلبي ، والذي كان يضرب المثل ببلاغته وحسن خطابه ومنهم القائد العظيم

(١) كتاب الحيوان للجاحظ : ج ٣ ص ٤٢٨ - قيل ان معاوية اراد يوماً ان يداعب أبو هوذة بن شماس ، فقال له : هممت ان احمل جماعاً من باهلة في سفينتين ثم اغرقهم ، فقال أبو هوذة : اذاً لا ترضى باهلة بعذتها من بي ايّة . قال معاوية اسكت ايهما الغراب الأربع ؛ قال أبو هوذة : ان الغراب الأربع ربوا درجاً الى الرخة حتى ينقر دماغها ويقتل عينيها . فقضب معاوية وأرسله الى الجهاد ، فجاءه حتى قتل .

« قتيبة بن مسلم الباهلي » الذي سنتحدث عنه وغير هؤلاء من جاءت اخبارهم في كتب التاريخ

كانت قبيلة باهله تسكن اواسط (اليامة) في شرق شبه الجزيرة العربية ، فلما بدأ إنشاء مدينة البصرة نزحت إليها مع من نزح من القبائل الأخرى ، ونزلت على بعد أربعة أميال منها ، في طريق الحج ، على بئر يدعى « الحفير » ، واستوطنت هناك مع مواشيه ، وبقيت محتفظة بعادتها رغم نزوح عدد كبير من افرادها الى داخل المدينة الجديدة واستقرارهم فيها ، فنبع من بينهم رجال كان لهم شأن يذكر في تاريخ البصرة ، شخص بالذكرا منهم اسرة « مسلم بن عمرو بن الحسين الباهلي » التي كان لها صلة ود وصداقة باسرة صاحبنا « الأصممي »

كان « مسلم بن عمرو بن الحسين » هذا ، رجلاً جليل القدر ، وفارساً معروفاً من فرسان الميادين ؟ وهو صاحب « الحرون » أحد الجياد العتاق التي تتصل بها انساب عتاق خيول العرب وكان مقرباً عند الخليفة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد فلما ثار « مصعب بن الزبير » في العراق ، وغلب أمره على البصرة والكوفة التحق به مسلم وقاتل معه ضد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولكنه جرح وأُسر ، فجُيء به الى عبد الملك فاعتذر له عما حدث منه ثم مات من جرحه وشب ابنه « قتيبة بن مسلم » على سيرة أبيه مولعاً بالفروسية والطراود ، فنبع في فنون القتال ، وتقارب من الخليفة الوليد بن عبد الملك ومن عاماته على العراق الحجاج بن يوسف ، فولاه على الري وخراسان مكان المهلب بن أبي صفرة ، وعمره - يومئذ - خمسة وثلاثون سنة ، فبقي في ولايته عشرة اعوام قضها كلها بالجهاد والفتح دون اقطاع ، وبلغ من الشهرة والمجد

وال توفيق حداً لم يبلغه قائد عربي من قبل فتح بلاد خوارزم و سمرقند
والسند كلها في عام واحد واكتسح خاري و فرغانة و تركستان ، فانصاع
له ملوكها ثم احتل « كاشغر » و وقف على حدود بلاد الصين ، فخافه
ملوكها ، وأرسل اليه أموالاً طائلة ، و صينية من الذهب عليها تراب من
ارض الصين ليطأه قتيبة بقدميه ، و مفتاحاً من ذهب كرمز للولاء

ولكن الأيام لم تسعده في النهاية ، اذ مات الحاج ، و مات الخليفة
الذي أحبه ، و تولى الأمر « سليمان بن عبد الملك » و كان بينه وبين قتيبة
جفوة و نفور ، فأرسل عزمه عن الولاية على بلاد الشرق ، و أمره بالرجوع
إليه فخاف قتيبة من بطش الخليفة هذا ، و زاد في مخاوفه منه انه عين
مكانه « يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي » و كان هذا ايضاً من
خصومه ؟ فأعلن عصيانه واستقل في البلاد التي فتحها غير ان جماعة
من جنده ، و جلهم من قبيلة « الأزد » ثاروا عليه بتحريره من الخليفة
و من يزيد بن المهلب الأزدي ، فهاجموه في مقره وهو على فراش المرض
فقتلواه عام (٩٧ هـ) ومن معه من اهله و عدداً من الباهليين ، و عمره
ثماني واربعون سنة (١) . ومن هنا بدأ الخصم الدامي بين الأزد
والباهليين في مدينة البصرة نفسها

و كان من بقي من أولاده « سلم بن قتيبة » فنشأ وجيهًا كبير القدر ،
فعينه والي العراق « عمر بن هبيرة » عاملًا على البصرة في عهد الخليفة

(١) الطبرى : ج ٣ ص ٢١٧ - كان لقتل قتيبة صدى استياء عظيم عند المسلمين ؛ ويقال ان
الخليفة نفسه ندم وحزن على قتلها . وبذلك يقول الشاعر جرير الحنظلي :
ندمت على قتل الاغر بن حاتم واتم اذا لاقيت الله انتم
لقد كتم من غزوه في غنيمة واتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على انه افضى الى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

الأموي الأخير « مروان بن محمد » فلما احتلت جيوشبني العباس معظم اراضي العراق ، وبويغ « عبد الله السفاح » بالخلافة ، وجه من قبله « سفيان بن معاوية بن المهلب » لفتح مدينة البصرة ، فأبى سلم بن قتيبة ان يسلم المدينة الى واحد من آل المهلب اعدائه وقاتل اييه ؛ وتأهب لمقاتلته فانقسم قبائل البصرة بين الطرفين ، والتحقت الأزد وربيعة والقبائل اليانية بالمهليي ، كما انضمت المصريه ومن كان في البصرة من بقابها بنى أمية وأعوانهم الى الباهلي . ودارت معركة طاحنة في اطراف المدينة وفي احيائها وازقتها ، انهزم فيها المهليي وأعوانه فهجم سلم بن قتيبة من معه على منازل الأزد فقتلوا عدداً من رجالهم ، وفر الباقيون ؛ ثم اغار على بيوت آل المهلب متقدماً لأبيه فنهبها وأحرقها وسبى نسائها .. وبقي على البصرة ، حتى قتل « عمر بن هبيرة » العامل الأموي ، فسلمها بعد ذلك للعباسيين بدون حرب ولكن الخليفة العباسي الثاني « ابا جعفر المنصور » عينه والياً عليها مرة اخرى ؛ فبقي فيها زمناً ؛ ثم توفي وترك عدداً من الأولاد ، اشتهرت امهاتهم في دولة بنى العباس ، وتولى بعضهم المناصب الخطيرة في بلاطها ، و Ashton البعض الآخر محسن السيرة والعطاء ، فمدحهم الشعرا و اكبرهم الناس ، امثال « سعيد بن سلم » و « عقبة بن سلم » وغيرها

القسم الأول

الأصمعي

١٢٣هـ - ١٧٣م

١ - بنو اصم في البصرة

٢ - مولد الأصمعي ونشأته

٣ - اساتذته

٤ - خصومه في مجتمعه

بنو أصم في البصرة

كان من أوائل الباهلين الذين تركوا قبyleهم ومتارها على « بئر الحفير » ودخلوا مدينة البصرة أيام تأسيسها وانشائها ، رجل رقيق الحال قليل المال ، ولكنه بعيد الهمة متين العزيمة متقد الذكاء ، يدعى « أصم بن مُظَهَّر » بنى بيته بالقصباء والطين ، في بقعة تقرب من السكة المؤدية الى « سوق المربد » ، وألقى نفسه في المجتمع البصري الجديد ، ينتفع لأهله وذويه اسباب العيش والأكثر أنه كان كغيره من ضعاف الأعراب يمارس - في نطاق ضيق - بيع الماشي ونقلها من قبيلته الى اسوق المدينة . غير أنها لا ندرى هل كانت كلمة « أصم » هذه اسمًا له صريحة أم لقباً غالب عليه ، فقد جاء لها في قاموس اللغة معاني عديدة منها « السيف الفاطع » و « الريش الجميل » و « القلب الذكي » و « النبت الذي لم يتفرق زهره أو ثمره بعد » ؟ ومنها « الرجل اذا كان صغير الأذنين ملتصقين بالرأس » ويغلب على الظن أنه كان كذلك ، فلقب بهذه اللفظة ، وغلب اللقب عليه ، فضاع اسمه الحقيقي كما يحدث عند الكثير من أبناء القبائل العربية

وكان له أولاد ، طويت اخبارهم مع الزمن ، وضاعت اسماؤهم ، فلم نعرف منهم غير « علي بن أصم » الذي تعلم القراءة والكتابة في صغره ، واتصل بدوابين الدولة ، وشغل بعض الأعمال الصغيرة تحت أبيه ولادة البصرة ، كقراءة كتب الخلية على المنبر ، وجباية الضرائب في شؤون معينة ، الى آخر ذلك

ففي التاريخ ^(١) ، ان الخليفة عثمان بن عفان عزل أبا موسى

^(١) الطبرى : انظر سنة ٣٥.

الأشعري عن البصرة عام (٢٩ هـ) وولها ابن خاله « عبد الله بن عامر » وهو ابن خمس وعشرين سنة فبقي فيها بضعة اعوام ، حتى قتل عمان عام (٣٥ هـ) ، كان خلالها في حركة ونشاط ، فالفت حوله بعض أهل البصرة وفي مقدمتهم جمهرة من باهله ، فغزا بهم بلاد الفرس وفتح خراسان ومدنًا أخرى وكانت العادة المألوفة – يومئذ – عند الولاة ، اذا قدم على أحدهم كتاب من الخليفة يتعلق بحقوق العامة وواجباتهم ، أمروا من يقرأ ذلك الكتاب على التبر بعد الصلاة ليحيط الناس علمًا بما جاء فيه وكان في البصرة رجل خراساني الأصل يقرأ هذه الكتب الواردة في عهد الولاة السابقين ، ولكن عبد الله بن عامر ، جعل « علياً بن أصم » في مكان هذا الخراساني ، وعيّن له اجرًا يتقاضاه على ذلك وفي هذا يقول الشاعر

وأمست رسوم الدار قفراً كأنها كتاب تلاه الباهلي بن أصم^(١)

فلا قتل عمان بن عفان ، واضطرب الأمر في خلافة علي بن أبي طالب ، وحدثت معركة الجمل في المربد ، التحق بعض الباهليين بجيش « عائشة زوجة النبي » وقاتلوا في صفوفها ؛ فانتصر علي بن أبي طالب ودخل البصرة ، ومكث فيها زمناً ، فجاء اليه جماعة من الناس يتهمون « علياً بن اصم » بسرقة حاجة من رحال أحد التجار في موضع يدعى « سفوان » فقال لهم الخليفة هل عندكم من يشهد بأنه سرقها من رحاله ؟ قالوا نعم ، وجاؤوا بن شهد على ذلك ، فأمر بقطع اشاجعه ،

(١) السيرافي : ٦٩ - يقول « التوزي » : سأّلت ابا عبيدة اللنوبي عن معنى هذا البيت ، فقال : كان علي بن أصم يقرأ الكتاب على التبر كما يقرأها الخراساني . ثم سأّلت الأصمعي عن ذلك فتغير لونه وقال : ورد كتاب من الخليفة عمان بن عفان الى والي البصرة عبد الله بن عامر ، فلم يجد من يقرأه ، فقرأه جدي علي بن أصم .

فقيل له يا امير المؤمنين ، ألا قطعه من زنده ؟! قال سبحان الله ،
كيف يتوكأ ؟ كيف يصلي ؟ كيف يأكل !! (١)

ومكث علي بن اصم ناقماً على ما حل به من قطع اشاجعه ، زاعماً
بأن التهمة كانت ملقة عليه ، وانه لم يسرق شيئاً فلما قدم والي العراق
« الحجاج بن يوسف » الى البصرة في عهد الخليفة الاموي عبد الملك
ابن مروان ، آتاه ابن اصم ، وقال له « ايها الامير ، إن ابوي
عقاني فسميانى علياً ، فسمني انت » فقال له الحجاج « ما احسن
ما توسلت به ! فقد وليتك سرك (البارجاه) وأجريت لك في كل يوم
داقفين فلوساً ، ووالله لئن تعديتها لأقطعن ما ابقياه علي من يدك » (٢)
فبقي في عمله المتواضع هذا حتى توفي بعد عمر طويل شاهد في اواخره
احفاده من بنيه

وقد عرفنا من اولاده « عبد الملك بن علي » الذي التحق بصحبة
« مسلم بن عمرو بن الحchin الباهلي » الذي تحدثنا عنه ، وقاتل معه في
ثورة مصعب بن الزبير ، ثم التحق بعد ذلك بعسكر ابيه قتيبة بن مسلم
اثناء فتوحاته المشهورة في بلاد الترك وكاشغر ولا نعلم شيئاً من اخباره
ولا كيف انتهت حياته ولكن ترك عدة اولاد نشأوا في البصرة (٣) ؛
منهم « عاصم بن عبد الملك » المعروف بلقبه « قريب » ، ومنهم ايضاً
« ابو سرّان » وقيل هو « سرّان » نفسه وكنيته ابو العباس وكان من
رواة اللغة والأدب (٤)

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧

(٣) امالي القالى ج ١ ص ١٦٩

(٤) امالي القالى ج ٣ ص ١٢٦

واختلفت الأخبار في سيرة « قریب » وتناقضت الآراء في شخصه تناقضاً غريباً فمن قائل بأنه كان واسع الحال يملك الأبل والخيل والجيش ، ويسيير في موكب الأمير « سلم بن قتيبة » زعيم الباهليين بالبصرة ، ويؤازره في وقائمه ومعاركه ويصاحبه في اسفاره ؛ وله موال ينتمون اليه باللواط^(١) ؛ وانه كان نابه الذهن كثير الصلة برواية الأخبار ، يحب العلم ومجالس اهل الفكر ، ويخضر حلقة « الحسن بن يسار البصري » إمام فقهاء العراق^(٢) ومن قائل ، عكس ذلك ، بأنه كان تافهاً من الرجال ، أمياً جاهلاً ما تحدث بمسألة علمية قط ولا روى خبراً في الأدب او الشعر ، فقيراً معدماً لا يملك غير ثوبه الذي كان ينام فيه على قارعة الطريق تحت اشعة الشمس حين يقوس عليه برد الشتاء^(٣)

ولهذا التناقض اسباب سنعرفها فيما بعد^(٤) ولكن سير المحوادث والروايات المتعددة تدل على انه كان وسطاً في الناس أو دوّن الوسط ؛ فقيراً بالنسبة الى سراة اهل البصرة واغنيائها ، ولكن لا الى درجة العدم ، يمارس تجارة الماشي في نطاق ضيق سيراً على خطوة اسلافه ورجال اسرته ، ويخضر مجالس الأمير « سلم بن قتيبة الباهلي » حكم الصلة القبلية والصحبة القدية ، فيقتبس مما يدور في ذلك المجلس العامر بين العلماء والأدباء من اخبار علمية ونوارد أدبية ، ويستوعب معاني بعضها قدر استطاعته ؛ وربما روحاها لأولاده أو تحدث بها مع اصحابه في اماكن اخرى ولا يستبعد

(١) امالي القالى ج ١ ص ١٦٩

(٢) كتاب المعرف : ص ١٨٤

(٣) ابن خلkan : ج ٢ ص ٣٤٦

(٤) سبب هذا التناقض في سيرة قریب هو ان ابنه الأصمي كان يروي بعض الاخبار والتفسيرات الأدبية عنه ليظهره بما يزينه في المجتمع ؛ بينما كان خصوم الأصمي يغالون في ذم ابيه ليظهروه بما يبغضه .

ان يكون - كما يقول صاحب كتاب المعرف - محبًا للعلم ، يجالس العلماء في المسجد الجامع احياناً ، ويحضر حلقة الحسن البصري كما يحضرها كل من يريد من المسلمين اد يتعرف الى امور دينه ليمارس شعائره على الوجه الصحيح وفي بعض الاخبار أن جماعة من غير العرب كانوا يتسمون اليه بالولاء ، عرفنا منهم رجلاً فارسياً يدعى « ابن الأجيد » (١)

ومهما تكن شخصية قريب هذا ، فقد علمنا بأن له عدة اولاد من البنين والبنات ، منهم « عبد الملك » الذي اشتهر فيما بعد باسم الأصمعي ، ومنهم « عبد الله » الذي عرفناه بفضل ابنته « عبد الرحمن » احد طلاب عمه ورواة اخباره وصاحب كتاب « معاني الشعر » ومن بناته « أم أحمد » وابنها « أحمد بن حاتم الباهلي » المشهور بكنيته « أبي نصر » وهو احد طلاب خاله ورواة علمه وادبه ايضاً (٢) وكان قريب يكفي بأبي بكر ، ولا نعلم ان كان له ولد بهذا الاسم ، وربما كان له اولاد آخرون ، غير الذين ذكرناهم ، ولم تصلنا اسماؤهم لتتحول شخصياتهم وعدم ورود ذكرهم في الاخبار

وليس في سير افراد هذه الأسرة ما يدلنا على نسب أم الأصمعي ، زوجة قريب ، ولا على اسمها والظاهر انها باهلية ايضاً ، اذ كانت العادة الغالبة عند العرب التزاوج بين افراد القبيلة نفسها ؟ وقلما تحدث المصادرات بين القبائل المختلفة لما يشترط في ذلك من شروط تكون في الغالب باهظة لا يستطيع الزوج تنفيذها إلا إذا كان ذا وفر من المال ؛ وقريب - كما نعلم - فقير من باهلهة ، والعرب لا يرغبون في مصاهرة الباهلين

(١)

(٢) معجم الأدباء : ج ٢ ص ٢٨٤

للأسباب التي ذكرناها آنفًا ثم ان اخبار صاحبنا «الأصمعي» - كما سررنا - تنبئنا بأنه كان لا يترك امراً من اسباب فخره ورفع مكانته عند الناس إلا حدثنا به ؟ فلو كانت امه من غير باهله لشاد اذاً بذكر احواله وتحدث عنهم وباهى خصومه بهم ؛ ولكنه لم يشر الى شيء من ذلك من هذا ، يصح القول بأن اسرة قريب كانت باهلية لحًا ودمًا ، وأنها كانت ذات انصاف عديدين ، وفي حالة أقرب الى الفقر منها الى الغنى وتدل الأخبار على انبني اصمع تضخم عددهم خلال هذه الفترة التي نافت على المائة عام فتشعبوا الى اسر عديدة ، وبيوت كثيرة ، جمعت كلها في حي واحد سمي فيما بعد «حيبني اصمع»^(١) ولكن السواد الأعظم منهم كان كادحًا معموراً بين عامة الناس ، ولم يبلغ احد منهم في شأن من شؤون الحياة ، حتى ظهر «عبد الملك بن قريب الأصمعي» فنهض بهذا النسب ورفع اسمه الى مصاف الخالدين في سجل الحضارة الإسلامية

مولده الأصمعي ونشأته

الأصمعي هو «عبد الملك ، بن عاصم - الملقب بقريب - ، بن عبد الملك ، بن علي ، بن أصمع ، بن مظہر^٢ ، بن رياح ، بن عمرو ، بن عبد شمس ، بن اعيا ، بن سعد ، بن عبد ، بن علم ، بن قيبة ، بن معن ابن مالك ، بن اعصر ، بن سعد ، بن قيس ، بن عيلان ، بن مضر ابن نزار ، بن معد ، بن عدنان»^(٢)

(١) كتاب «اخبار ابي نواس» لابن منظور : ج ١ ص ١٥

(٢) وجدنا في بعض المصادر اختلافاً في اسماء هذا النسب : «مظہر او مطہر» و «عبد شمس او عبد الله» و «علم او غنم» و «رياح او رباح» .. ولكن أكثر المصادر تؤيد ما ذكرناه .

ولد عام (١٢٣ هـ) الموافق لعام (٧٤١ م) في بيت متواضع وسط حي بني اصمغ في البصرة ، فجاء كامل الجسم ، حسن الصحة ، واضح السمات وإن لم يكن جيلاً ؛ فاحتضنته امه وأرضعته ثديها ، وربته كما يتربى امثاله من اطفال العامة ، في خرق رخيصة وثياب بسيطة وفراش معتاد ، وطعام مما يألفه سواد الناس مع شيء من الاقتصاد والتدبير

ثم دب على الأرض في صحن بيته حافي القدمين إلا في ايام الشتاء الباردة ، يتخطط بين افراد الأسرة ويتنقل على اكتاف نساء البيت ، فلا يعني به إلا بقدر حتى إذا تمسك عوده خرج الى باب المنزل ، ثم ارتدى في زفاف الحي مع اترابه من صغار الجيران وأطفال بني اصمغ الآخرين ، وصار يبعث معهم بالتراب ، ثم صار يغالبهم بالحصى ونوى التمر ، ويساقفهم عدواً ووشاً ولا تفتقت أكلامه ، جعل يؤلف معهم العصابات الصبيانية ، ويقذف بالحجارة ، ويعاكسن المارة ، ويهاتر اصحابه بالأفاظ البذيئة المبتذلة التي يلتقطها من سوقه الناس ؛ ويتمم بالأغاني الشعبية مما يتغنى به صبابا الحي وخدام البيوت.. الى آخر ما هنالك مما حدثنا به اخيراً هو عن نفسه (١)

والذي نستشفه من اخباره واوصافه فيما بعد ، انه كان في مراحل طفولته نشيط الحركة متذدق الحيوية خفيف الروح فصيح اللهجة طلق اللسان ، عذب الصوت سريع التقليد لحدوثه ؛ يتذوق القصة ويصغي لها ويلتقطها بسهولة وهو مع ذلك ليق في استرقاء ذويه وكسب مودتهم ، طموح لا يرضى بأن يكون في مؤخرة غيره من صغار الأسرة ، طاع لا يقنع بالقليل فإذا وجد مجالاً للزيادة ، حريص على ما يملك فلا يخرج العطاء

(١) في بعض الأخبار التي رواها الأصمسي عن حياته نجد هذه الاوصاف والأعمال .

من يده إلا قليلاً^(١)

قضى أيام طفولته في حيبني أصمع ، ولم يخرج منه إلا بمقدار ما كان أبواه يصحباه معه في زيارتها القصيرة لذويها في جوانب المدينة ، أو على بئر الحنير حيث منازل الأعراب من باهلهة فلما أكتملت صبوته وأقبل نحو عتبة الشباب ، رأيناه يبرز إلى المجتمع البصري خطوة فخطوة مصحوباً بأقرانه من الفتىـن ثم وجدناه بجانب أبيه قريب يساعده ويعينه في بعض شؤونه المتعلقة بـكسب العيش ، فيركب الحمير والأبل والليل معه ، ويقطع المسافات القصيرة والبعيدة نحو سوق المربد وما جاوره ، حتى القيادي القرية من البصرة

والأصمعي واسطة أخيـته ان لم يكن أصغرهم ، وآخوه عبد الله أكبر منه سنـاً ولما كان مولدـه قـريب عام (٨٣ هـ) يكون الأصـمعي قد ولد حين بلـغ أبوه سنـ الأربعـين فـلما تجاوز اـدورـه مـراهـقـته وجـدهـ فيـ العـقدـ السادسـ منـ العـمرـ ، وـقدـ بدـأـ ضـعـفـ الشـيخـوخـةـ يـدـبـ فيـ مـفـاصـلـهـ ، وـلـكـنهـ وـجـدـ آخـاهـ عـبدـ اللهـ قـدـ سـبـقـهـ إـلـىـ مـعـاوـنـةـ آـبـيـهـ هـذـاـ فـيـ اـعـمـالـهـ ، فـانـضـمـ هـوـ إـلـيـهـ دونـ دـوـنـ اـنـ يـنـصـرـفـ بـكـلـهـ إـلـىـ السـوقـ لـمـاـكـانـ عـنـدـهـ مـنـ رـغـبةـ مـلـحـةـ فـيـ طـلـبـ الـعـلـمـ وـتـحـصـيـلـهـ وـنـحـنـ لـاـ نـعـلـمـ تـارـيـخـ وـفـاةـ «ـقـرـيبـ»ـ وـلـكـنـ الـأـخـبـارـ تـدـلـ إـلـىـ أـنـ عـاشـ حـتـىـ رـأـيـ آـبـيـهـ الأـصـمعـيـ نـاشـأـ يـتـحدـثـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـأـدـبـ وـالـشـعـرـ ، فـرـوـيـ لـهـ بـعـضـ مـاـكـانـ قـدـ سـمـعـ مـنـ الـأـخـبـارـ وـمـاـ رـأـيـ مـنـ الـحـوـادـثـ خـلـالـ حـيـاتـهـ الطـوـيـلـةـ^(٢)

نـسـتـنـتـجـ مـنـ هـذـاـ بـأـهـ نـشـأـ وـفيـ جـانـبـ آـبـ وـأـخـ - اوـ أـخـوـةـ - يـكـفـونـهـ

(١) اخذنا هذه الأوصاف قياساً على أخلاقه وطبيعته بعد أن شب وظهر في مجتمعه .

(٢) كثيراً ما يروي الأصمعي بعض الأخبار عن أبيه فيقول : «ـ حـدـنـيـ أـبـيـ »ـ اوـ «ـ قـالـ لـيـ أـبـيـ »ـ .

مُؤنة العيش ؛ فشب طليق الجناح صافي الفكر ، في وجهه مخايل الذكاء والفضة ، وفيه حب الاستطلاع والميل الى معرفة كل ما يجهل ويسترعى اهتمامه فلم يترك مجتمعًا عامًّا الا وجله وتفهم احواله ، ولا مؤتمرًا بين الناس الا حضره او ساهم فيه ، ولا مهرجانًا في الأعياد والمواسم الا تفرج عليه او اشترك فيه جهد استطاعته ، ولا سمع ضجة الا قصدها ليعرف غاياتها ودراويفها فهو ابن المجتمع الحق ، وتلميذ نشيط من تلامذة الزمن (١)

وكانت المجالات الاجتماعية امامه واسعة لكثره الأسر الباهليه الساكنه في مدينة البصرة وفي المربد وعلى بئر الحفيه ، وفيهم الأمير والثري والعالم والشاعر والراوية ؟ وجل هذه الاسر من معارف اسرته ، او أقرنائيا عدا الصلة القبلية ؛ لذلك لم يعدم في كل جانب من جوانب المدينة وضواحيها من صديق حميم او مدافع يتتجه اليه اذا احس يوماً ما خطط او ضرر يلاحقه . وكان من اعز هذه البيوت واقربها الى نفسه بيت الأمير « سلم بن قتيبة الباهلي » الذي كان يرتاده بصحة أبيه منذ الصغر فلما ترعرع في صبوته المرحة ، وتبجلت فيه معلم الفطنة وسرعة البديهة ، احبه الأمير « سلم » لدماثة خلقه ، ونهجه سبيل التقوى والأدب والعلم ، ففتح له ابواب قصره ، وفسح له المجال في معاشرة ابناءه والاختلاط بهم ووجد الأصمي في هذا البيت كل ما يستهويه ، من ترف ينسيه شظف العيش في منزله الفقير ، ومن حركة دائمة في المراكب والسلاح والجیاد والصيد والغزو ، ومن مجلس يغص بالأدباء والعلماء والشعراء ورواة الأخبار والنواذر ، فأكثر من ارتياحه ، وصادق أبناءه صدقة مليئة بالحب والوفاء والاحترام وكراهة النفس وكان من أكثر من أحبه منهم « سعيد بن سلم » الذي

(٢) الكامل : ٨٧

دامت صلته به حتى النهاية

هذه ناحية من نواحي حياة الأصمي في صيغته وأوائل شبابه ، وهي صورة يكتنفها الكثير من الغموض ، لأنّه انصرف في النواحي الأخرى إلى الدرس والتحصيل الذي استنفذ جل أوقاته في صغره وشبابه وكهولته وحتى فيشيخوخته

دراساته وتحصيله

دخل « الكتاب » في السادسة من عمره على وجه التقرير كـ هي العادة المتّبعة عند سواد الناس في تعلم أولادهم والكتاتيب - يومئذ - كثيرة في جوامع البصرة التي يكاد لا يخلو حي من الأحياء منها وهي مدارس قرآنية بدائية للأطفال ، يدير كلّاً منها « شيخ واحد » يشترط فيه أن يكون تقىً من ذوي الأخلاق ، يجيد القراءة والكتابة وحسن الخط ، ويلم بفرائض الدين وسننه وإن لم يشترط فيه أن يكون ضليعاً بسائر العلوم

وكان معظم ما يفيد الصغير من هذا الكتاب تعلم قراءة القرآن والكتابة وحسن الخط وأمور الدين الرئيسية ، وشيئاً من مبادئ اللغة والنحو ، وقليلاً من الشعر والأدب ولم تكن هنالك كتب يقرؤها هؤلاء الأطفال غير نسخ من أجزاء القرآن مكتوبة خطوطاً واضحة ، وألواح تشبه الورق في يومنا هذا يستخدمونها للكتابة بواسطة أقلام من القصب وحبر يصنع من الفحم أو ما يشبه الفحم وأما باقي الدروس فيتلقونها شفاهًا من الشيخ ويحفظونها منه على ظهر قلب

ولم يكن الطفل عبد الملك بن قريب ، الذي عرف فيما بعد بالأصمي ،

من صباح الوجوه بين اترابه إن لم يكن من اكثراهم دمامه وأبسطهم ثياباً ومظهراً ولكنه كان في مقدمتهم ذكاءً وحفظاً للدرس واتقاناً لها ، فقد كانت الطبيعة وهبته حافظة لاقطة لا تنسى ، ورغبة شديدة في الدراسة والتحصيل فبز أقرانه في القراءة والكتابة ، وختم القرآن قبلهم في سن مبكرة وحفظ جزءاً منه ، ثم مال الى قراءة الأدب البسيط وحفظ الأشعار السهلة والقصص التاريخية والدينية التي كانت تعطى لصغار الأطفال^(١)

حتى اذا استند ما يمكن تحصيله في الكتاب على يد شيخه ، وتفتق ذهنه ، ونشطت ذاكرته بعد اجتيازه الرابعة عشرة من عمره ، حمل اوراقه وأقلامه ودخل المسجد الجامع حيث يتفجر معين العلم الذي لا ينضب ولكنه وقف امام هذا الخضم الفكري الواسع العميق حائراً ، وقفه من لا يحسن السباحة امام البحر ؟ فراح يتخطب في ساحله زماناً حتى بدأ يشعر بالقدرة على العوم وهناك صار ينتقل بين حلقات العلماء فيه ويتردد الى هذا وذاك من كبار اساتذة اللغة والأدب ، مدوناً في ألواحه ما يفهمه من كلمات في اللغة ، ومن قاعدة نحوية بسيطة ، او قطعة من الشعر الجزل الرقيق ، او تفسير لبعض آيات القرآن او الحديث ، الى آخر ذلك ، ثم يعود بما جمع في نهاره الى بيته فيرددده ويستظرره

وكانت رغبته الشديدة في الدرس والتحصيل تدفعه الى المراقبة والاستمرار على ارتياح المسجد دون انقطاع ، فيقضي معظم ساعات نهاره فيه ، كلما انتهت حلقة وصلها بالأخرى وما زال على هذا المنوال -

(١) يقول الأصمسي : حفظت اثني عشر ألف ارجوزة قبل ان ابلغ الحلم ويقول ايضاً ما قرأت كتاباً واحتاجت ان اعود فيه ، ولا دخل قلي شيء وخرج منه .

يسمع ويجمع ويردد ويحفظ ، حتى نمت ملكته العلمية ، واتسعت ثروته اللغوية والأدبية ، وتوغل في النحو ، وحفظ الشعر الكثير ، فراح ينافش زملاءه في المسائل التي تعلمها واتقناها ، وصار يلقي على استاذته الأسئلة تلو الأسئلة ، ثم يدون الأجوبة ويطلب المزيد من الشرح ، ويعرض على هذا الشيخ ما سمع من ذلك في حلقته باسلوب طريف ، ولباقة نادرة ، ولهجـة عذبة تعجب سامعها ولا تستثيره في شيء^(١) فعرفه الصغير والكبير من رواد المسجد ، واعجبوا بذكائه وفطنته وحسن التفاتاته ؛ واحبه استاذته فشعـعواه ، وأوسـعوا صدورهم لأسئلته وملاحظاته ، ولم يتعرفوا عن مناقشته رغم صغر سنـه ، مما زاده ذلك رغبة واسترسالاً في الدرس وطلب الفائدة ، حتى أصبح « مسجدياً » بكل معاني الكلمة ، فلم تفته نهاية محـثـ كان قد سمع اولـه ، ولم يهـملـ مناقشـةـ في قضـيةـ حتى ينتهيـ منهاـ ، ولا روـيـتـ نـادـرـةـ اوـ نـكـتـةـ فيـ جـوـ المسـجـدـ الاـ وـصـلـهـ خـبرـهاـ فـرـواـهاـ اوـ عـلـقـ عـلـيـهاـ

وكان من فوائد ملازمته المسجد على هذه الصورة ، اـتـ عـرـفـ ايـ استاذـةـ الحلـقاتـ أعلىـ جـنـابـاـ وأـعـزـرـ عـلـمـاـ وأـفـضـلـ رـأـيـاـ منـ غيرـهـ ، وـعـرـفـ اختـصـاصـ كلـ واحدـ مـنـ هـمـ ومـذاـهـبـهـ فيـ العـلـمـ وـالأـدـبـ وـالـعقـيـدـةـ فـاختـارـ منـ بينـهـمـ عـدـدـاـ ، وـلـازـمـ مـجـالـسـهـمـ اـعـوـاماـ طـوـيـلـةـ بـغـيرـ اـقـطـاعـ ، اـمـثالـ « اـبـيـ عمـروـ اـبـنـ العـلـاءـ » وـ « اـخـلـيلـ بنـ اـحـمـدـ الفـراـهـيـدـيـ » وـ « يـونـسـ بنـ حـيـبـ النـحـوـيـ » وـغـيرـهـ ، وـأـخـذـ عنـ كـلـ مـنـهـمـ ماـ اـخـتـصـ بهـ منـ لـغـةـ اوـ نـحـوـ اوـ أـدـبـ ، وـنـمـتـ بيـنـهـ وـبـيـنـهـ عـلـىـ مـدـىـ الـأـيـامـ صـحـبـةـ وـصـدـاقـةـ كـانـتـ العـاـمـلـ

(١) ابن خـلـكانـ : جـ ٢ـ صـ ١٦ـ - يقولـ الخـلـيلـ بنـ اـحـمـدـ : لـاـ يـعـرـفـ الـاـنـسـ خـاصـمـهـ حتـىـ يـجـالـسـ غـيرـهـ .

الأَكْبَرُ فِي تَقْيِيقِهِ وَتَوْجِيهِهِ

ولما طالت صحبته للمسجد الجامع واتسعت ثروته العلمية والأدبية ، احس برغبة في ورود مناهل اللغة والأدب عند الأعراب انفسهم ، فجمع أواحه مرة أخرى ومشى في اوقات فراغه يتقل في منازل القبائل المجاورة للبصرة ، ويكتب ما عندهم من الفاظ غريبة ونوادر مجهلة وشعر لم يعرف بعد ولم تبتذر روايته ، ويدون أخبارهم وأقصاص بطولات اسلافهم في الجاهلية والاسلام ، ويبحث عن انسابهم وافخاذهم ، ويحفظ لهجاتهم فعرفهم وعرفوه

ثم صار يختلف الى سوق « المربد » بدقاته وأواحه ، فيقف عند حلقة هذا الشاعر الفصيح من الأعراب الوفدين الى السوق فيدون قصائده وراجيزه ، وير بمجلس ذلك الرواية ويكتب ما يرويه من أخبار ونوارد وأمثال وحكم ، ويتعمد الوقوف في زوايا الخطباء والمتكلمين ليلتقط منهم الكلمات اللغوية الصعبة .. وكان ماهراً في تصيد علماء الأعراب وفصحائهم؛ فيستوقفهم ويحادثهم ويأخذ ما عندهم ، وربما صادفهم وصاحبهم وجاء بهم الى البصرة ليزلمهم ضيوفاً عند بعض الموسرين من معارفه ، ثم يجمعهم بزملائه من طلبة العلم ، فيعقدون المجالس وينبرون معهم المناقشات ليستدرروا ما عندهم من لغة وشعر وطرائف ونوارد وملح تصلح للمجالسة والمنادمة

والحق ، ان الأصمي كان من اكثـر طلـاب الـعلم تـرددـاً عـلـى المرـبد وأـشـدـهـم شـفـقاً وـاتـصالـاً بـالـأـعـرـابـ الـوـافـدـينـ إـلـيـهـ ومن يـتـبعـ روـايـاتـهـ التـيـ حـصـلـ عـلـيـهـ فـيـ هـذـاـ السـوقـ الـأـدـبـيـ ، يـجـدـهـ كـثـيرـ تـدـلـ عـلـىـ طـولـ غـشـيـانـهـ لـهـ ؟ وـبـذـلـكـ عـرـفـهـ الـمـرـبـيـوـنـ وـاحـدـاًـ ، وـاستـخـفـوـاـ ظـلـهـ ، فـاـذـاـ غـابـ سـأـلـوـ عـنـهـ ، وـاـذـاـ حـضـرـ جـاذـبـوـهـ اـطـرـافـ الـحـدـيـثـ وـقـدـمـوـهـ إـلـىـ الـوـافـدـينـ الـجـدـدـ

من فصحاء الأعراب وخطبائهم وشعرائهم
حتى إذا سبر غور هذا المجتمع العلمي والأدبي ، واقتطف معظم ثماره
الفكريّة ، وقلَّ غريبه عنده ، شد رحاله وتوجّل في البوادي الشاسعة
يبحث فيها عن شيء جديد فلم يترك أرضاً في قلب الجزيرة العربية إلا
وطئها براحته ، ولا قبيلة يمكن الوصول إليها إلا نزلها ومكث فيها ، فجمع
وأوعى ما عندها ولم تخجل اسفاره هذه من سهر ومتاعب وأمراض
واغتراب ، حدثنا هو عن بعضها فقال « نزلت في وادٍ من أودية بني
العنبر ، وإذا فتية يريدون البصرة ، فأحببت صحبتهم ، وأقمت ليالي تلك
عليهم وانى لوصب محمود ، فلما قاموا ليرحلوا أيقظوني فوجدوني علياً
لا استطاع ان استمسك على راحتي ، فحملوني ، وركب احدهم ورائي
يمكّن حتى إذا امعنا في السير تنددوا الا فتى يحسدو بنا او
ينشدننا ؟؟ فانبرى من بينهم حاد ينشد في جوف الليل بصوت نديٍ حزين
ويقول

لعمرك اني يوم بانوا فلم امت خفاتاً على آثارهم لصبور
(وهي قصيدة طويلة) فلما اتمها سكنت عنى المحي ، ولم احس بها ،
فقلت لرديفي انزل الى راحتلك فإني مفقق متماسك ، جزاك الله وحسن
الصحة خيراً (١) »

وقال ايضاً « كنت نازلاً عند رجل من بنى الصيادة ، وكاب
واسع الرحل كريم الحمل ، فأصبحت وقد عزمت على الرجوع الى العراق ،
فأتيت ابا مثواعي ، فقلت له اني قد هلت من الغربة ، واشقت
اهلي ، ولم افدى من قدمتي هذه اليكم كبير علم ؛ وانما كنت احمل وحشة

(١) الأمالى : ج ٢ ص ٢٦٧

الغربة وجفاء الباية للفائدة فأظهر الرجل توجعاً ، وركب ناقته وأرددني ، فا سرنا كبر مسيرة حتى لقينا شيخ على حمار ، له جمة قد ثغمتها كالورس ، فكأنها قنبيطة ، وهو يترنم ، فسلم عليه صاحبي ، وسأله عن نسبة ، فاعترف أسيدياً من بني شلبة ، فقال له أنتشد أم تقول ؟؟ قال كلاً . فنزلنا على ماء قريب ، وقال صاحبي له تصدق على هذا الغريب بأيات يعيشون عنك ويدركون بهن فقال اي ، ها الله اذا ثم راح ينشدنا ما عنده حتى أكتفيت ؟ فقمت والله وقد نسيت اهلي وهان علي طول الاخtrap وشظف العيش (١) »

وللأصمعي روایات كثيرة من هذا اللون ، حدثنا بها عن اسفاره وتجواله في الصحاري النائية مختصاً عن اللغة والأدب ، وهي بكثرتها تدل على انه تعيش حياة الباية وألف عيشها ، وعرف مسالكها لطول ما ارتاد سهولها وحزونها ووهادها قاصداً القبائل في منازلها ومرابعها ومصايفها ، حتى اتقن لهجاتها وتعرف الى عاداتها ومشاكلها ، وصار صديقاً للكثير من اياتها فكان اذا قصد بعضهم رحبو به وأضافوه ، وعرفوا الغاية من مجده اليهم ، فيبادرونه بتقديم ما عندهم من ادب ولغة وشعر قبل اـ يقدموا له الطعام والشراب وكان يقول « العيش في الباية يفتقد الأذهان ، ويقوم اللسان ويصلق دياجة البيان »

كل هذه الأسفار في جوانب الجزيرة العربية ، والتردد المستمر الى سوق المربد والزيارات المتعاقبة لمنازل الاعراب في ضواحي البصرة ، لم تقطع صلته كثيراً بالمسجد الجامع ، لأنه كان يوزع اوقاته بين هذا وتلك توزيعاً منظماً فيحضر حلقات الدرس في اوقاتها عند اساتذته الختارين ، ثم

(١) الأمالي : ج ١ ص ١٧١

ينطلق في أيام العطل وساعات الفراغ إلى حيث يريد من هذه الموارد
الفنية بالفائدة فإذا عاد منها وفي أواهه شيء مما جمع ، دخل المسجد
وعرض ما في يديه على شيوخه الكبار ليناقشهم فيه يقول جئت إلى
« أبي عمرو بن العلاء » فقال لي : من أين أقبلت ؟؟ قل من المربد ،
قال هات ما معك ؟ فقرأته عليه ما كتبت في أواحى ، فترت به ستة
احرف - اي قصائد - لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجة ويقول
« لقد شررت في الغريب » اي غلبتني ^(١)

لا شك ان علماء اللغة ورواة الأدب والأخبار قبل الأصممي قد سبقوه
في سلوك هذه المناهج في سبيل الفائدة ، ووردوا المناهج التي وردها
وغرفوا من نفس المعين الذي غرف هو منه ، ولكنه امتاز عنهم في أمور
كثيرة لم يسبقه إليها أحد منهم ، وطرق أبواباً جديدة لم يطرقها غيره قبله .
 فهو مثلاً لم يكتف بالبحث عن المنتديات المعروفة التي يجتمع فيها العظام
والشعراء ، ولكنه يستوقف الرائح والغادي من الأعراب بلباقة ساحرة
وأسلوب شيق ؛ فإذا وجد عنده ما يفيده عصره بأسئلته المتالية حتى ينزع
ما في صدره كله كما تتعسر الشمرة الطيبة يقول رأني اعرابي وأنا
اكتب كل ما يقول ، فقال « كل شيء ؟؟ ما أنت إلا الحفظة تكتب
لفظ اللفظة » ويقول أيضاً سألت اعرابياً واكثرت من إلقاء الأسئلة
عليه فقال « ما تدع شيئاً إلا نصته » اي نتفته وفي رواية عنه
قال مررت بجماعة من الأعراب وصرت أسأ لهم فقال أحدهم « أنت
حتف الكلمة الشroud ^(٢) » وقال أيضاً : رأيت في الباية صبية يتاجزون ،

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٦ - الأمامي : ج ٣ ص ١٨٢

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٦١ - السيرافي : ٦٦

فوقت اسمعهم ، فعنوني ، فتحيت جانباً وصرت ادون اقوالهم ، فربى
شيخ من ذلك الحي ، ورأى ما أصنع ، فقال « اتكلب قول هؤلاء
الافرام الأدناع !! » ففرحت بكلمة « أدناع » ومنها السفلة فدوتها (١)

والأصمي هو الوحيد الذي جعل مجتمع البصرة كله مدرسة له ، فآل على نفسه ان لا يلقى أواهه من يده الا وقف الحاجة ، وراح ينتقل في جوانب المدينة وفي كل مكان يدون ويسجل الفائدة من اي مصدر جاءت ما دامت هي ذاتها فكرة ومعنى فتراه يدخل السوق ويجلس في دكان بقال ليسمع ما يتحدث به الباعة والمشترون ؛ ويختار الازقة فيتحدث هنا مع كناس سمعه يغنى بآيات من الشعر ؛ ويقف هناك بجانب حمال يشتم تاجراً بعبارات ذات معنى طريف ، فيدونها ؛ ويصادفه متسلول فيمد اليه يده طالباً منه حاجة ، فيقول له ماذا تقول لو اعطيتك هذا الدرهم ، فيقول المتسلول شيئاً يعجبه فيسجل كلامه ويحفظه ؛ ويرجع بجانبه فيسمع بعض الشكال يندبن امواتهن فيستر وراء قبر او حائط ويسجل الشعر الذي يندبن به الموتى ؛ حتى الاطفال الصغار لم يقلتوا منه ، وربما وقف اليهم يسألهم عن العابهم واصطلاحاتهم فيها ، فان وجد عندهم ما يستحق الأخذ دونه ، وعد ذلك فائدة (٢)

ومن اطرف ما روى عن نفسه في هذا الباب ، قال « مررت بدار الزبير بالبصرة ، فإذا بشيخ قديم من اهل المدينة من ولد الزبير يكنى « ابا ريحانة » جالس بالباب عليه شملة تستره ، فسلمت عليه وجلست اليه ، فبيانيا انا كذلك اذ طلعت علينا سويداء تحمل قربة ، فلما نظر اليها

(١) امالي القالي ج ١ ص ٤٠

(٢) للاصمي روایات كثيرة من هذا النوع سيد ذكرها في مكان آخر .

لم يَمْلِكْ اَنْ قَامَ إِلَيْهَا قَالَ بِاللّٰهِ غَنِيٌ صُوتًا ، قَالَتْ : اَنْ مَوَالِيٍ اعْجَلُوِي ؟
قَالَ لَا بَدْ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَتْ اَمَا وَالْقُرْبَةُ عَلَى كَفْيِ فَلَا ؟ قَالَ
فَأَنَا اَحْمَلُهَا عَنِّي ، فَأَخْذُ الْقُرْبَةَ مِنْهَا ، فَاندفَعَتْ تَغْنِي

فَؤَادِي اسِيرٌ لَا يَفْكُ وَمَهْبِتِي تَغْيِضُ وَاحْزَانِي عَلَيْكَ تَطْوِيلٌ
وَلِي مَقْلَةٌ قَرْحٌ لَطْوِيلٌ اشْتِيَاقِهَا إِلَيْكَ وَاجْفَانِي عَلَيْكَ هَمْوِيلٌ
فَدِيْتِكَ ، اَعْدَائِي كَثِيرٌ وَشَقْتِي بَعِيدٌ وَاشْيَاعِي إِلَيْكَ قَلِيلٌ
فَطَرَبَ الشَّيْخُ وَصَرَخَ صَرَخَةً وَضَرَبَ بِالْقُرْبَةِ إِلَى الْارْضِ فَشَقَّهَا ، فَقَامَتْ
الْجَارِيَّةُ تَبَكِي ، وَقَالَتْ مَا هَذَا بِجَزَائِي مِنِّي ، اسْعَفْتَكَ مَحْاجِنَكَ فَعَرَضْتَنِي
لِمَا اَكْرَهَ مِنْ مَوَالِي ؟ قَالَ لَا تَقْنِعِي فَأَنْجَبَتِي عَلَى حَصْلَتْ ؛ وَزَرَعَ
شَمْلَتِهِ ، وَوَضَعَ يَدِهِ مِنْ خَلْفِ وَيَدِهِ مِنْ قَدَامِهِ ، وَبَاعَ الشَّمْلَةَ وَابْتَاعَ لَهَا
قُرْبَةً جَدِيدَةً ؛ وَقَدَ بَتَّلَكَ الْحَالُ عَرِيَانًا ، فَاجْتَازَ بِهِ رَجُلٌ يَعْرَفُهُ ، فَرَأَى
حَالَهُ قَالَ لَهُ : « يَا أَبَا رِيحَانَةَ ، احْسِبْتَ مِنَ الظِّنَنِ قَالَ اللّٰهُ تَعَالٰى فِيهِمْ ، « فَإِنَّا
رَبَحْتَ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » قَالَ لَا وَاللّٰهُ ، وَلَكُنِي مِنَ الظِّنَنِ قَالَ
اللّٰهُ تَعَالٰى فِيهِمْ « فَبَشِّرْ عَبْدِي الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبَعُونَ احْسَنَهُ »
فَضَحِّكَ وَأَعْطَاهُ مَالًا » (١)

كَانَ الأَصْمَعِي يَفْعَلُ ذَلِكَ عِنْدَمَا يَفْرَغُ مِنْ دَرْوِسِهِ فِي السَّجْدَ الْجَامِعِ ، وَفِي
الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَقِيمُهَا فِي مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ اثْنَاءَ مَلَهِ مِنَ الْمَرْبَدِ وَمَنَازِلِ الْأَعْرَابِ
وَالرَّكْوَبِ إِلَى الصَّحَراءِ وَكَانَ يَسْاعِدُهُ فِي ذَلِكَ شَبَابُهُ وَنَشَاطُهُ وَظَرْفُهُ وَسُرْعَةُ
بَدِيهِتِهِ وَحْسَنُ تَخْلُصِهِ مِنَ الْمَازِقِ ، فَاشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ بِحَرَصِهِ وَاقْبَالِهِ عَلَى
الْفَائِدَةِ ، وَعْرَفَهُ الصَّغَارُ وَالْكَبَارُ ، وَالنِّسَاءُ وَالرِّجَالُ ، وَالْبَدُو وَالْمُحْسِرُ مِنْ سَكَانِ
الْبَصْرَةِ ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَجْمِعُ لَهُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ وَيَحْدُثُهُ بِهَا حِينَ يَصادِفُهُ فِي

(١) زَهْرُ الْآدَابِ : ج ١ ص ١٥٩

الطريق وفي اي مكان كان ، ويدله على اماكن الفصحاء من الأعراب الذين يفدون البصرة في المناسبات يقول « كنت اغشى بيوت الأعراب في البصرة اكتب عنهم حتى القوي وعرفوا مرادي ، فانا يوماً امر بعذاري البصرة ، قالت لي امرأة : يا أبا سعيد أثت ذلك الشيخ فان عنده حديثاً حسناً فاكتبه ان شئت ؟ قلت احسن الله ارشادك ؟ فأتيت شيئاً هماً ، فسلمت عليه ، فقال من انت ؟؟ قلت انا عبد الملك الأصمعي ، قال انت ذو يتبع الاعراب فيكتب الفاظهم ؟؟ قلت : بلى ، وقد بلغني ان عندك حديثاً حسناً معيجاً رائعاً ، واخبرني باسمك ونسبك ؟ قال نعم ، انا حذيفة بن سوار العجلاني الى آخر القصة » (١)

كان يجمع كل هذه اللقط في الواحه حتى تسدس بين يديه ، فيخصص لها شيئاً من وقه ثم يعمل على تنفيتها ؛ فان كانت لغة اخذ الفصحى الصحيح منها وشطب على الباقي ولو كان اضعاف ما اخذ ؛ وان كان شرعاً تحت عن قائله والمناسبة التي قيل فيها ، وان كان خبراً حق في صحته وتوثق من حقيقته قبل ان يدونه في دفاتره ، وهكذا يفعل بالأمثال والحكم والكلام المأثور ، حتى جمع في شبابه ما لم يجمعه غيره من اللغة الصحيحة والأدب الجزل ، وبلغت دفاتره عشرات الأساطاف والصناديق (٢)

والغريب ان الأصمعي كان يحفظ جل ما يدونه في دفاتره هذه بفضل ذاكرته وحافظته الجبارة التي كانت لا تعجز عن حفظ القصيدة الطويلة بمجرد سماعها مرة واحدة كان يقول « ما قرأت كتاباً قط فأحتاج

(١) المزهر : ج ٢ ص ١٩٦

(٢) الاغاني : ج ٢ ص ٦٨

الى ان اعود فيه ، ولا دخل قلبي شيء فخرج منه . » فلما سئل عن صحة دعواه هذه ، اثبتت لهم صدق قوله بالفعل ^(١) وكان يقول ايضاً « حفظ اثني عشر الف ارجوزة ، قبل انبلغ الحلم » ^(٢) ويقول احد معاصريه : « سمعت الأصممي يحدث اصحابه عن محفوظاته ، ويقول : احفظ ستة عشر الف ارجوزة قليل له فيها اليتان والثلاثة ؟ ! قال وفيها المئة والمئتان » ^(٣) هذا عدا القصائد الطوال والقطع الشعرية القصيرة ، وغير الخطب والحكم والأقوال المأثورة والنواذر واللغة والأخبار

بهذا النشاط الذهني الذي لم يقف عند حد ، والأدمان والجلد في طلب العلم والأدب ، وبتلك الحافظة اللاقطة النادرة الشال ، وبغير ذلك من المواهب ظهر نبوغ الأصممي في شبابه بين طلاب المسجد ، فبدأت الأنوار ترقمه ، وراح شهرته تنتشر في المجتمع البصري شيئاً فشيئاً ، وشعر اساتذته ومعارفه بأنهم أمام شاب سيكون له غداً مستقبل عظيم الشأن في المجال الفكري

اساتذته

اساتذة الأصممي كثيرون ، منهم من لازم حلقاتهم في مسجد البصرة خلال تحصيله العلم فيه ؛ ومنهم من تعرف بهم فأخذ عنهم أيام كهولته وأثناء تجواله وأسفاره ومتى علمنا بأنه لم ينقطع عن الدراسة حتى ادرك الشيخوخة ، وانه كان تلميذاً سياراً ينتقل باحثاً عن الفائدة ليجنيها حيث وجدها وعلى يد اي شخص ، سواء أكان في العراق أم في بوادي الجزيرة

(١) ابن خلkan : ج ٢ ص ٣٤٦ - لهذا الكلام قصة سنوردها في مكان آخر .

(٢) القد الفريد : ج ٢ ص ٣٤٤

(٣) ابن خلkan : ج ٢ ص ٣٤٦

أم في مدن الحجاز حين كان يقصد الحج ؟ متى علمنا ذلك ادركنا بأن من الصعب إحصاء جميع الذين افاد منهم بوجه عام وقد حدثنا هو عن بعض هؤلاء في أخبار متفرقة غير مجموعة من روایاته ؛ ونوهت كتب السير والأدب عن بعض آخر منهم ؛ وظل الباقي في طي الصياغ والنسيان وبين هؤلاء الذين عرفناهم من كان الأصمعي قد لازم مجالسهم أعواماً طويلة في صباح وشباهه فكان لهم الأثر الأكبر في تعليمه وتوجيهه ؛ وبينهم من كان لقيتهم في المناسبات فأخذ عنهم جانباً من اللغة ، او درس عليهم ديوان قبيلة او شاعر من الشعراء ، او قراءة من القراءات القرآنية السبع ؛ وآخرون مر بهم عابراً فأفاد منهم الشيء القليل

كان أكبرهم أثراً في حياته العلمية ، وأقربهم إلى نفسه ابو عمرو « زبان بن العلاء بن عمار التبّعي المازني » احد مشيخة القراء السبعة ، ووحيه من اشراف العرب المدوحين ، واستاذ جيل كامل من علماء البصرة وادبائها ألف كتاباً ضخمة ملأت جانباً من بيته ؛ ثم تنسك وتزهد فأحرقها كلها في اواخر ايامه خوف الخطا والانتم

وكان شغوفاً باللغة والأدب والأخبار اخذ عن اعراب ثقات ادرك بعضهم الجاهلية والاسلام ، فجاءت روایاته صادقة ثابتة ، واعتبر من أجل الرواة ، كما كان من اقدر من فسر الشعر ، وأمهر من عرف معانيه وادرك خفاياه ^(١) يقول الأصمعي : « جلست اليه عشر حجاج ، فما وجدته احتاج بيت اسلامي واحد ، خلا الشعر الجاهلي » ^(٢)

(١) ابن خلkan : ج ١ من ١٣٦

(٢) البيان والتبيين : ج ١ من ٢٥٦ - وفي روایة انه قال نهانٍ حجاج .

والظاهر ان الاصمعي لازم حلقة استاذه هذا منذ خرج من (الكتاب) ودخل المسجد ، فأحبه وأعجب به الى حد الافتتان ، ولم يفارقه حتى توفي عام (١٥٤ هـ) فبكي عليه واسف لفقده ، وصار يذكره بكل اجلال واحترام ، ويعتبر اقواله وآراءه حجة ما بعدها حجة ومن حقه ان يكون وفياً لاستاذه الجليل هذا ، وقد كان له في حياته موجهاً ومعلماً وصديقاً عنه اخذ الكثير من اللغة الصحيحة ، والأدب الرفيع ، والدقة في نقد الشعر وتفسيره وفهم دخائله وعنده ايضاً اخذ قراءة القرآن المعروفة باسمه . (١)

ومن استاذته الذين لازمهم في اوائل شأته ايضاً « عيسى بن عمر التقفي » وكان اماماً في النحو واول من الف في هذا العلم ، وعنه اخذ « سيبويه » كتابه المعروف حتى اليوم باسمه ، لازم الاصمعي حلقة بضم سين حتى توفي عام (١٤٩ هـ) فأخذ عنه الكثير من النحو واللغة . وكان عيسى هذا يتقرر في كلامه ويستعمل الغريب من اللغة في حديثه حتى اشتهر بذلك ورويت عنه النواذر الكثيرة ؛ وكان صديقاً لابي عمرو بن العلاء يجالسه ويأنس به ، ويتندر معه ، ولهم مناظرات طريفة في اللغة والأدب والنحو ، روى الاصمعي الكثير منها ، لانه كان - حكم اتصاله باستاذه ابي عمرو - يحضر مجلسها ويسمع احاديثها فيدونه ويفيد منه وهو في مقتبل العمر ، وقد تجاوز العشرين (٢)

وكان « الخليل بن احمد الفراهيدي » سيد اهل الادب في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، وابن من استخرج علم العروض الى الوجود ، وسبق العرب الى تدوين اللغة وتنسيق الفاظها على حروف المعجم

(١) الحيوان للدميري : ج ٢ ص ٢٨٨

(٢) ابن خلkan ج ٢ ص ١٥٣

في كتاب سماه «العين» اخذ الأصمعي عنه اللغة والنحو ، وحاول - كما يقول بعض المؤرخين - ان يدرس عليه العروض ، ولكنه احجم عن ذلك لأن الخليل وجده يتعرّض في ادراك خفايا هذا العلم وقياساته فقال له قطع لي هذا البيت

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاؤه الى ما تستطيع
فأدرك الأصمعي قصده وترك درس العروض^(١) ؛ ولكنه بقي يتعدد الى حلقاته ويسمع آراءه واجتهداته والخليل من أجل "اساتذة البصرة"
ورؤسائهم ، وقلماً نبغ في عصره عالم او اديب إلا اخذ عنه شيئاً ما يختص به ؛ وقد دامت حلقاته في مسجد البصرة حتى عام (١٨٠ هـ) وهو عام
وفاته ، مما يدل على انها عاصرت حلقة الأصمعي مدة اعوام طويلة^(٢)
واما «يونس بن حبيب الضبي» المعروف بيونس النحوي ، فكان
من أئمة نحاة البصرة ، ومرجع النحويين في المشكلات ، وقد اخذ عنه
معظم اساتذة البصرة من معاصرى الأصمعي ، وفيهم من لازم مجلسه
عشرات السنين ، وهو من العلماء الذين يحضر حلقاتهم كبار اساتذة المسجد
لعلمه وفضله وقد عاش طويلاً ، وعمّر مائة سنة وتوفي عام (١٨٢ هـ) ..
لازم الأصمعي حلقاته طوال أيام دراسته وبعد ان اصبح استاذ حلقة هو
 ايضاً في المسجد ، وأخذ عنه النحو واللغة والأدب وكان أكثر ما يعجب
الأصمعي منه معرفته بالشعر ، وصواب نقده له ، وحسن التفاتاته نحو معانيه
الدقيقة ؛ وقد حكى الكثير عنه في هذا المجال^(٣)

وكان «خلف بن حيان» المعروف بخلاف الأحمر ، أو الرواية ،

(١) لنا رأي في هذه الرواية وستتحدث عنها في مكان آخر .

(٢) شاد الأصمعي حلقاته في مسجد البصرة حوالي عام ١٥٤ هجري .

(٣) معجم الأدباء : ج ٧ ص ٣١١

أشهر رواة الشعر على الاطلاق في عصره وفي العصور التي بعده ، وهو فارسي الأصل ، ولد في البصرة وعاش فيها ، وحفظ كلام العرب الماجهلين وأشعارهم حتى صار يقول الشعر ويتحمّله ، وينحّله المتقدمين فلا يتميّز من شعرهم لشاكّلة كلامهم وكانت له قوّة على تميّز الأشعار ومعرفة أصحابها منها ، لذلك كان اذا أراد أن يروي شعراً على لسان احدهم نظم ما يشبه شعر ذلك الشاعر سواء كان جاهلياً أم متأخراً وقيل انه هو الذي نظم القصيدة الخالدة المشهورة « بلامية العرب » ومطلعها

اقيموا بني امي صدور مطيك فاني الى قوم سواكم لأمييل
فلاها بغرير الأنفاظ ونسبها الى الشاعر الماجهلي « الشفري » كما
صنع قصائد أخرى غيرها في غاية الجزلة ونسبها إلى شعراء آخرين من
عرفوا بالجزالة في الشعر

وكانت حلقة خلف في مسجد البصرة من امهات الحلقات ، يرتادها خلق كثير من هواة الأدب والشعر ليسمعوا آراءه وانشاده ورواياته للشعر الغريب النادر ، ويتعمّلوا بظرفه ودعاته التي كانت تلازمته احبه الأصمعي كثيراً ، ولازم حلقته باستمرار وبدون انقطاع منذ صغره ، ثم تكّنت بينها على مدى الأيام صدقة دامت أكثر من ثلاثين عاماً حتى توفي خلف سنة (١٨٢ھ) والظاهر ان خلف الأحمر في حبه للأدب ورواياته للشعر وتفسير معانيه ودقة التفاتاته فيه وتقده وتحليله ، كان نموذجاً مثالياً للأصمعي الذي سار فيما بعد على الخطّة نفسها ثم وا زاه فيها فاقتربنا إسهاماً معًا في هذا المجال الأدبي

والحق ان صدقة الأصمعي هذه خلف كانت خيراً ما درت عليه الصداقات مع الآخرين ، فقد اخذ عنه الكثير جداً من الفوائد الأدبية ،

واشتراك معه في دعاباته ومساجلاته مع الآخرين من ادباء عصرها وكان الأصمعي يحترم استاذه هذا ويكبر فيه موهبه ؛ ولكنه لا يألف منه عادة اتحال الشعر ونسبة الى غيره والتصرف بأشعار الآخرين ، ويعد ذلك ضعفًا في الأمانة الأدبية ونقصاً في الرواية يقول فرأت على خلف شعر جرير الخطفي وفيه هذا البيت

في لك يوم خيره قبل شره تغيب واسيه واقصر عاذله

قال خلف ويله ، وما ينفعه خير يقول الى شر ؟؟ قلت وكيف كان يجب ان يقول ؟ قال الأجدود له لو يقول « في لك يوماً خيره دون شره » ثم قال لي اروه هكذا بعد اليوم (١)

ومن هؤلاء الأساتذة الذين تأثر بهم الأصمعي في نشأته العلمية « شعبة ابن الحجاج » وكان من علماء البصرة النابهين وأحد شيوخ الحلقات الكبيرة في مسجدها اخذ عنه اللغة والأدب ، ونمث بينهما صداقة ومودة واعجاب متبادل ولهم مناظرات لغوية وأدبية حدثنا عنها بعض الروايات ، وفيها ما يدل على اعجاب شعبة بتلميذه واعترافه له بحسن الرأي وصوابه ، حتى قال له يوماً « لو فرغت للزمالك » اي لدرست عليك العلم (٢)

والأخمي - غير من ذكرنا - استاذة كثيرون من شيوخ البصرة وأصحاب الحلقات في مسجدها وله مع كل منهم اخبار ومن أشهر هؤلاء : « مؤرج بن عمر السدوسي » (٣) المعروف بتضلعه في اللغة والأدب ، و « محمد بن المستير البصري » المعروف باسم « قطرب » (٤) ومنهم

(١) ديوان المعرف : ج ١ ص ٣٥٣

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٣٢

(٣) توفي مؤرج عام ١٩٥ هـ

(٤) توفي قطرب عام ٢٠٦ هـ

ايضاً « حماد بن سلمة » و « حماد بن دريد » و « الأخفش » و « عبد الله بن عون المزني » و « فرقة بن خالد »^(١) وأخذ عن « يعقوب بن محمد بن طحاء » و « مسعود بن كدام » و « سليمان بن المغيرة » وكل هؤلاء من افضل علماء عصرهم ، وتاريخ كل منهم معروف في عالم الأدب واللغة والنحو

وكان الأصمعي يتربّد إلى بلاد الحجاز بين مدة وأخرى لأداء فريضة الحج وكان كلما وردتها مكث فيها مدة وتنقل في مدنها الثلاث : مكة والمدينة والطائف ، والتقي بعلمائها ومحدثيها وادبائها ورواتها ، فيحضر حلقات بعضهم هناك ويأخذ عنهم ما يمكن اخذه ، ويجالس البعض الآخر ويصادقهم ؛ ويتبادل مع رواتها الأشعار فيجمع ما عندهم مما يرونه ويعطي البعض منهم مما عنده والظاهر انه لكتلة ما ارتاد هذه الأرض المقدسة طوال حياته ، في فترات متقطعة طبعاً ، تعرف بسائر علمائها فعرفوه وألقيم كما ألقوا

فكان من اخذ عنهم هناك ولازمهم « نافع بن عبد الرحمن بن نعيم » أحد القراء السبعة وإمام أهل المدينة وعالمهم الذي صاروا إلى قراءته ورجعوا إلى اختياره ، لأنّه من الطبقة الثالثة بعد النبي عليه السلام . وكان أصفهاني الأصل اخذ عنه الأصمعي قراءته القرآنية المعروفة بقراءة « نافع » واختص بها^(٢)

ولازم ايضاً الإمام « مالك بن أنس »^(٣) صاحب المذهب المالكي ،

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١١

(٢) ابن خلkan : ج ٥ ص ٥

(٣) توفي مالك عام ١٧٩ هـ

ونشأت بينهما مودة ، فأخذ الأصمعي عنه بعض الأحاديث ، وسمع منه كتابه « الموطأ » ، وأعطاه من عنده شيئاً من اللغة (١)

ودرس ديوان الشاعر الجاهلي « الشنفري » وشعر بني هذيل في مكة على الامام « محمد بن ادريس » صاحب المذهب الشافعي (٢) والظاهر انه درس ذلك في اواخر أيامه وهو مسن ، في حين كان استاذه الشافعي شاباً أصغر منه حسب تاريخ المولد (٣)

وكان من أقرب علماء الحجاز اليه واوثقهم صداقة معه « سفيان بن عيينة » (٤) المحدث المشهور جالسه الأصمعي كثيراً ، واخذ عنه بعض الأحاديث وكان يزوره كلما قدم مكة ، ويقترب اليه فلما توفي حزن الأصمعي عليه ورثاه بقصيدة من الشعر سند ذكرها في مكان آخر (٥) وأما من تعرف بهم وأخذ عن بعضهم من علماء الكوفة فعديدون ، منهم « حماد بن ميسرة » المعروف بـ « حماد الرواية » ، اصله من الدليم ، وكان يتشطر ويصاحب الصالحات واللصوص ، ثم طلب الشعر وأيام الناس ولغات العرب ، واختص بجمع الشعر وتفوق في نظمه فصار ينسب اشعاره الى غيره من الشعراء المتقدمين ، وامعن في ذلك حتى قيل « انه افسد الأدب العربي في رواياته التي اخذها عنه اهل الكوفة » قدм البصرة وتعرف به الأصمعي فلم يأخذ عنه شيئاً ، إذ كان قد اشتهر بكثرة اقتراحه على الشعراء (٦) ، ولكنه اعجب محسن الفاتحه الى معاني

(١) كتاب (المتنقى من اخبار الأصمعي) : ٢٧

(٢) المزهر : ج ١ ص ٩٧

(٣) كان مولد الشافعي عام ١٥٠ هـ

(٤) توفي سفيان بن عيينة عام ١٩٨ هـ

(٥) عيون الاخبار : ج ٢ ص ١٣٥

(٦) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٤٤

الشعر ، وروى عنه شيئاً من ذلك
ومن اساتذة الكوفة الذين قدموا البصرة وأخذوا التحو عن علمائها
« علي بن حمزة الكسائي » ، ولا ندري إذا كان الأصمعي قد أخذ عنه
شيئاً ، ولكننا نعلم بأنهما التقى - فيما بعد - في بلاط هرون الرشيد وتناظرا
مرات كثيرة هناك أمام الخليفة

وقد ذكر بعض مؤرخي الأدب عدداً من فصحاء الأعراب الذين
قدموا البصرة فأخذ عنهم الأصمعي بعض اللغة والأدب والأخبار (١)
منهم « ابو اليماء الرياحي » الذي عاش في البصرة طوال حياته كان
يتصل بطلاب العلم ويروي لهم غريب الشعر والكلام الفصيح وكان
يدرس الصبيان ويعلّمهم بأجرة

و « عمرو بن كركمة » ويكفي بأبي مالك النميري كاف يعلم في
البادية ، ويورق في الحضر ، ويتردد على البصرة ، ويعطي ما يجتمعه من
القبائل الى طلاب الفوائد الأدية لقاء اجر وكان معيناً لا ينضب في
النوادر والأخبار ، ويحفظ اللغة كلها على مذهب اهل البصرة وله زميل
آخر يدعى « ابا عرار العجلي » ، لا يقل عنه فصاحة وحفظاً للنوادر
وللأصمعي صلة قوية مع (بني غني) يزورهم في البادية ويأخذ من
فصحائهم ، ومنهم « ابا سوار الفنوبي » المعروف بنوادره وفصاحته ،
وكان يزور البصرة فأخذ عنه معظم طلاب الأدب

و « شبل بن عرارة الضبعي » ، سكن البصرة طويلاً ومات فيها ،
وكان من الخوارج خطيباً فصيحاً عالماً اديباً ، ودرس عليه الكثير من
أهل البصرة وأخذوا عنه

(١) كتاب الفهرست لابن النديم - المارف لابن قتيبة ، ابن خلكان وغيرهم .

و « جهم بن خلف المازني » ، صديق خلف الأحرر والأصمعي ، وأحد الذين ينتقلون في البوادي بين القبائل ، ويجمعون اللغة والشعر والأخبار ، ثم يعطونها للطلاب في مدينة البصرة وكان بينه وبين خلف الأحرر والأصمعي مجالس ونواذر طريقة

و « أبو حلم الشيباني » ، أحد علماء الأعراب بالشعر واللغة ، وكان غليظ الطبع ، عجيب الهيئة ، يفخم ألفاظه إذا تحدث ، ويعرب في كلامه . وكان الطلاب يأنسون به ويتندرون معه دون أن يغضبوه ، وللأصمعي معه محاورات ومناقشات طريقة

و « أبو مهدية » ، وكان من أظرف الأعراب وأذعهم نكهة ، عاشره الأصمعي زمناً طويلاً وصادقه ، واستعان بتوادره ضد الشعوبين الذين خاصموه وكان يستشهد بأقواله ليهاجم هؤلاء الخصوم ولأبي مهدية نواذر كثيرة رواها صاحب العقد الفريد في فصل خاص ، وفيها ما يوضح ويسر

و « الفقعي » ، راوية بني اسد وصاحب مآثرهم واخبارهم ، وعنده أحد الرواة مآثر هذه القبيلة

و « أبو الدقيش » ، الخطيب المعروف بفضحاته وموافقه الخطابية في سوق المربد ، حيث كان يجتمع طلاب العلم ويدونون أقواله وألفاظه وغير هؤلاء عدد كبير امثال الشاعر الراجز المعروف « البهلي » ، وأبي طفيلة ، وأبي حيوة بن لقيط ، والحرماني ، وربيعة البصري ، وأخرون امثالهم

خصوصه في مجتمعه

كان مولد الأصمعي - كما قلنا - في عام (١٢٣ هـ) اي في عهد

خلافة « هشام بن عبد الملك » ، يوم كانت الدولة الأموية متassكة
القوى في الظاهر فلما دالت تلك السرعة امام الثورة العباسية ، وسقطت
البصرة في ايدي التأرين ، كان الأصمعي قد خلع السنوات العشر الأولى
من سني حياته فهو اذاً عاصر الدولتين ، ولس الفارق بين عهديهما ،
وواكب التطورات العاجلة والتقلبات المفاجئة في شتى نواحي حياة مجتمعه
في فترة الحكم العباسي الأول ؛ وعاش في جو البصرة الحموم - يومئذ -
بتياراته المتضاربة في المبادئ الحزبية السياسية ، والاعتقادات المذهبية ؛
وشاهد مولد اخلافات العنصرية بين الفرس والعرب ؛ واشتراك كعضو
اجتماعي عامل في ذلك الغليان المضطرب . ولكنه لم يكن من حملة السيف ،
فلم يقاتل بالدم والحديد ، بل كان من اصحاب الرأي واللسان ، فناضل
بها ضد خصمه ، ودافع بقوتها عن آرائه وعقاراته والصراع
الفكري اوسع ميداناً من المارك العسكرية ، واكثر جماً للأعوان ،
والخصوم ايضاً ؛ وهو في الوقت نفسه احتكاك في الآراء ، والاحتكاك
في الرأي يولد النظريات ويبعث على الدرس والبحث ، ويفيد الطرفين علمًا ،
ويزيدهما اطلاعاً وتحقيقاً

كان صاحبنا - حكم شأنه وبئته - أموي الهوى ، سني المذهب ،
ثم مال مع جماعته الى جانب العباسين بعد زوال الحكم الأموي نهائياً ،
وبي بجانبهم عند اختصامهم مع ابناء عمهم العلوين ، وقد نشأ شديد
التعصب لقوميته العربية فلم يعجبه رأي الشعويين في عنصره وزاد في
تعصبه تمادي هؤلاء بتهمتهم على العرب ؛ ولم يستطع البقاء على الحياد
وهو يرى كثرة الموالي بين العلماء وطلاب الأدب من زملائه الذين انعموا
في الفكرة الشعوية وحملوا لواءها في البصرة ، فانعم هو ايضاً في الصراع

العنصري ضدتهم ، وحاربهم بمثل السلاح الذي عندهم ، وقارعهم حجة
محضة ودليلًا بدليل ؟ ولم يضعف امام المناوشات الجانبيه التي كان يشنها
دعاة المذاهب الأخرى من المعزلة والخوارج والشيعة ضد مذهب اهل السنة
والجماعة الذي كان يدين به

وكان ميدان هذا المعركة الفكري مدينة البصرة بأجمعها هناك ، في
المسجد الجامع حيث ملتقى العلماء والأدباء والشعراء والطلاب على اختلاف
عناصرهم وزعائهم ومذاهبهم ، وفي سوق المربد حيث يختلط اشتات الناس
بالأعراب الفصحاء والخطباء والشعراء من سائر القبائل ، فتقام المجتمعات
وتلقى الأفكار وتحتك الآراء وتتعارض المبادئ . وفي مجالس الولاة وندوات
الموسيين حيث يتناولون ارباب العلم والأدب ، فتبعد ميولهم وزعائهم صريحة
على ألسنتهم ، في ثوب فكري قشيب

وشاءت الصدف ان تخلق في هذا الجو الروحي الراهن ثلاثة من نوابع
الشباب ، يتقاربون في الأعمار ، ويدرسون في مسجد واحد ، ويختصون
- ثلاثة - باللغة والأدب والأخبار ، ويعملون فوائدتهم الفكرية من
مصادر متشابهة ، ويزرون الى المجتمع البصري في عمان واحد ، وهم
ابو زيد الانصاري ، والأصمي ، وأبو عبيدة فشغلوا الناس في عصرهم ،
وجمعوا اللغة العربية كلها ، ودونوا الأدب القديم الذي بين أيدينا اليوم
عاش كل من هؤلاء ما ينوف على التسعين عاماً ، فاقتربت اسماوهم
بعضها ، وصار طلاب العلم وهواة الأدب في البصرة وغيرها اذا ذكروا
احدهؤلاء الثلاثة ذكروا صاحبيه معه ؟ اذا تحدثوا عن فضل احدهم
قارنوه بفضل رفيقيه الآخرين وما زلنا حتى الآن نقرأ آثار اقوال العلماء
فيهم ، ومقارناتهم بينهم ، كقولهم مثلاً « الأصمي احفظ الناس ،

وأبو زيد أوثقهم ، وأبو عبيدة اجمعهم للعلم » وقولهم « أبو زيد جمع علوم الناس وحفظها ، والأصمعي بليل في فحص يطرب الناس ، وأبو عبيدة أديم طوي على علم » وقولهم « أبو زيد أعلم من الأصمعي بال نحو ، والأصمعي أعلم من صاحبيه في اللغة ، وأبو عبيدة يفوقها بالأخبار والأساب » وقولهم « الأصمعي يروي ثلث اللغة ، وأبو زيد يجيء في ثلثيتها ، وأبو عبيدة في كلها »^(١) إلى آخر ما هنالك من آراء صدرت عن اناس مختلف اهواهم تجاه هؤلاء الثلاثة المعاصرین

وكان الظروف ابت إلا ان تخلق بينهم خلافاً في المبادئ والمذاهب والآراء ، لتضييفه الى تلك المنافسة الطبيعية بينهم على الفضل والمكانة العلمية بين الناس فكان ابو زيد عريباً يرى رأي القدرة في الاعتزال ؛ وكان ابو عبيدة فارسياً يتعصب للشعوبية ويدين بمذهب الخارج ؛ بينما كان الأصمعي عرياً متعصباً لقوميته ، شديداً على الشعوبية ، ويدهب في عقيدته مذهب اهل السنة والجماعة فلعبت هذه المنافسة الطويلة المدى والخلافات الروحية بين هؤلاء الزملاء ادواراً مهمة في جو البصرة العلمي ، مما زال آثارها مدونة خالدة في كتب الأدب العربي

كان التنافس والتحدي بين الأصمعي وابي زيد ضعيفاً يعكس ما كان بين الأصمعي وابي عبيدة اللذين بقيا طوال حياتهما في سجال مستمر لم تهدأ ثائرته وذلك لأن كلاً من ابي زيد والأصمعي عربي ، فلم يحدث بينهما ما يحدث عادة بين شعوب متطرف وعربي متعصب ؛ ولا لأن كلیهما مسلم مع من يسلمه ، صادق اللهجة في الحديث ، فلا يفترى على الغير اذا غضب ، ولا يبذر في القول اذا استثير ؛ على ان ابا زيد كان اكثر

(١) ابن خلkan ج ٢ ص ٣٤٧

تجافياً عن الخصومات وأقل نشاطاً وحيوية من الأصمعي الذي لا يسامح من لج في خصومته ، ولا يلتج في الخصومة مع من يسالمه ، لذلك كانت فترات السلم طويلة بين الرجلين مع احترام متبادل وشهادة طيبة لكل منها في صاحبه ولم يصل الخلاف المذهبي بهما إلى حالة التطرف والحدة ما عدا ابداء الرأي كما هو المأثور بين علماء المذاهب في ذلك العهد وكان ابو زيد اكبر من الأصمعي بعده سنوات ، لذلك قيل ان الأصمعي جاء يوماً الى حلقة ابي زيد قبل رأسه وجلس بجانبه ، ثم قال له انت رئيسنا واستاذنا منذ ثلاثين سنة (١)

ولم تكن الحال كهذا بين ابي عبيدة « عمر بن الشن » والأصمعي . فقد كان ابو عبيدة حفيد يهودي من اهل فارس ؛ وسخاً مدخول الدين مدخول النسب ، متهمًا بميله للغلان ، سليط اللسان مشاكساً جاهًا للناس بكل سوء ، فلا يتأنث من الافتراء على الغير ، وصنع الأخبار ، وحتى اتحال الأحاديث النبوية في سبيل الخصومة وقد قيل ان القضاة كانوا لا يقبلون شهادته لسوء خلقه (٢)

ولكنه مع ذلك كان من علماء اللغة والأدب ، وفي طليعة رواة اخبار العرب واياهم واحوالهم وكان يقول « ما التقى فارسان في الجاهليّة او في الاسلام الا كان عندي خبرهما » وله مؤلفات كثيرة تناهز المائة كتاب في اللغة والنسب والأخبار والأدب ، وقد ذكرت لنا بعض المصادر عشرات الأسماء منها وهو - على سوء خلقه - حداد الذكاء ، سريع الجواب ، لاذع النكتة ، طريف العسر اذا لم

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨

(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ١٢١

تغلب عليه حدة الطبع

كان هو والأصمعي على طفي نقىض في العقيدة والمذهب والتطرف العنصري ، وفي الكثير من المواهب ايضاً ؛ فقد اوتى الأصمعي حظاً وافراً من وضوح البيان وحسن اللهجة وقوه الحجة ، وهدوء الطبع في المناقشة ؛ بعكس أبي عبيدة الذي كان ألغى ، يلحن في كلامه ويكسر اوزان الشعر عند انشاده ؛ وبذلك قال أبو نواس « كان طالب العلم اذا جاؤوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر ، واذا اتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر » (١) وهذه شهادة واضحة من احد خصوم الأصمعي (٢) تدل على قدرته في تنمية الكلام وتزيينه بحيث يصبح التافه منه حسناً في آذان سامعيه ، في حين كان أبو عبيدة يسيء إلى غزارة علمه بسخف طرقته في الحديث ، وببلغته ولغته (٣) وأكثر من ذلك ان الأصمعي يتقن أخذ اللغة فلا يحفظ كلمة منها حتى يتعرف إلى مدلولها ويشاهده إن كان مما يشاهد ، فإذا تحدث في اعضاء الأبل مثلاً عرف ما كان الأعضاء في جسمها وأشار إليه عند الضرورة ، خلاف أبي عبيدة الذي كان يعتمد على ذاكرته ويكتفى بما يحفظ (٤) كل ذلك جعل الأصمعي في تفوق دائم على خصمه في المناظرات والمناقشات التي كانت تستخدم أحياناً بينهما

وأول ما قاد العداوة والخصومة بين الرجلين هو غلو أبي عبيدة بشعريته وكرهه للعرب وتناظرها بذلك فكان يحفظ عيو بهم ، ويدون

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٢) كان أبو نواس يدرس على أبي عبيدة ويؤازره ويهجو الأصمعي .

(٣) ابن خلكان : ج ١ ص ١٢١ .

(٤) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٢ .

مثالهم ، ويجمع اشعارهم في هجاء بعضهم ، ويتهكم بسخرية لاذعة على ما يصادفه من نقص في بعض عادتهم وأحوالهم حتى اسمائهم ؛ وقلما مُدحت قبيلة منهم أمامه إلا غضب وراح يعد جلاسه مثالها وينشد ما قيل من هجاء فيها ؛ ويؤلف في فضائل الفرس فكان هذا يستثير الأصمعي ويدفعه إلى مقابلته بالمثل دفاعاً عن عنصره العربي ، فعلقت الجفوة بين الشابين الزميين ، ثم تطورت إلى حرب كلامية وصراع بين فكرتين ، فقاد كل منها مسكنه ضد الآخر في مناوشات سلاحها العلم والفكر واللسان يقول السيرافي « كان ابو عبيدة والأصمعي يتقارسان ويقع كل منها في صاحبه »^(١)

بدأت المناوشات بينهما وهما تلميذان في المسجد الجامع فكان الذي يغيط ابا عبيدة من صاحبه تفاخره بعنصره وبماهاته بأمجاد العرب وذكرهم بكل ما يزينهم ، وتحمده بإعجاب عن الأبطال الذين نبغوا في التاريخ من بني باهلة ؛ ثم هو يذكر اباه قريب بكل تحلة واحترام ، وينسب بعض الروايات إليه فيثور ابو عبيدة لذلك ويقذف باهلة بكل نقيبة ومثلبة ، ويشتم قريباً ويقسم بأنه كان نذلاً من الرجال فيسمع الأصمعي بما يقوله خصمه هذا ، فيقابله بالمثل أحياناً ؛ فإذا ذكره في كلامه دعا به « ابن الصباغ » نسبة إلى مهنته ايه ، وإذا غضب دعا به « ابن اليهودي » نسبة إلى جده الذي كان يهودياً

فلياً اكتهلا ، وتبوأ كل منها مكانته العلمية انقسم طلاب العلم بينهما إلى جهتين شعورية يقودها ابو عبيدة ، وعربيّة يمثلها الأصمعي ويدير دفتها واستمر الصراع الفكري بين الطرفين زمناً طويلاً ، فقال كل منها

(١) السيرافي : ٦٩

مُنْصَمِهِ مِنَ الطَّرَائِفِ وَالنَّوَادِرِ الْأُدِيَّةِ مَا أَضْحَكَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الزَّمْنِ
وَأَعْجَبَهُمْ ؛ وَلَا يَزالُ يَضْحِكُ قِرَاءَ الْعَرَبِيَّةِ وَيَعْجِبُهُمْ حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا وَلَمْ
تَهُدَأْ ثَأْرَةُ هَذَا السِّجَالِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى بَلَغَ كُلَّاهُمَا الْجَانِبُ الْبَعِيدُ مِنَ
الشِّيخُوخَةِ ، فَزَهَدَ الْأَصْمَعِيُّ وَتَوَرَّعَ وَبَقَى صَاحِبُهُ عَلَى سَوْءِ خَلْقَهُ كَمَا
يَقُولُونَ (١)

وَفِيمَا يَأْتِي أَلَوَانُ مِنْ تَلْكَ الطَّرَائِفِ الْمُتَبَادِلَةِ
قِيلَ لِأَبِي عَبِيدَةَ أَنَّ الْأَصْمَعِيَّ يَتَحَدَّثُ عَنِ ابْنِهِ وَيَقُولُ « يَنْـا
ابِي يَسَّايرِ الْأَمْـيـرِ سَـلـمِ بـنِ قـتـيبةِ عـلـى فـرـسِ لـهـ .. » فـصـاحَ أـبـو عـبـيدـةـ مـسـتـكـراًـ
وـقـالـ « سـبـانـ اللـهـ ، وـالـلـهـ أـكـبـرـ المـتـشـبـعـ بـمـا لـمـ يـؤـتـ كـلـابـ ثـوـبـيـ »
زورـ وـالـلـهـ مـا مـلـكـ أـبـو الـأـصـمـعـيـ قـطـ دـاـبـةـ ، وـلـاـ حـلـ إـلـاـ عـلـىـ ثـوـبـهـ (٢)
وـقـيلـ لـهـ مـرـةـ : أـنـ الـأـصـمـعـيـ يـدـعـيـ فـيـ نـسـبـهـ إـلـىـ بـاهـلـهـ فـاظـهـرـ تـعـجـبـهـ ،
مـتـجـاهـلـاًـ هـذـاـ النـسـبـ ، وـقـالـ : « هـذـاـ لـاـ يـكـونـ قـطـعـاًـ !! » قـالـواـ وـلـمـاـذـاـ؟؟ـ
قـالـ « لـأـنـ النـاسـ إـذـاـ كـانـواـ مـنـ بـاهـلـهـ تـبـرـأـوـاـ مـنـهـ ، فـكـيـفـ يـأـتـيـ مـنـ
لـيـسـ مـنـهـ وـيـنـتـسـبـ إـلـيـهـ » (٣)؟؟ـ
وـيـقـولـ الـأـصـمـعـيـ دـخـلـنـاـ إـنـاـ وـابـوـ عـبـيدـةـ إـلـىـ الـمـسـجـدـ يـوـمـاًـ ، فـوـجـدـنـاـ
عـلـىـ الـأـسـطـوـانـةـ الـتـيـ يـجـلـسـ إـلـيـهـ أـبـوـ عـبـيدـةـ يـيـتاـ منـهـ شـعـرـ مـكـتـوـبـاًـ فـيـ نـحـوـ
سـبـعةـ أـذـرـعـ

صـلـىـ إـلـهـ عـلـىـ لـوـطـ وـشـيـعـتـهـ إـبـاـ عـبـيدـةـ قـلـ بـالـلـهـ آـمـيـنـاـ
فـقـرـأـ ذـلـكـ أـبـوـ عـبـيدـةـ ، فـاستـشـاطـ غـصـباًـ ، وـقـالـ لـيـ يـاـ أـصـمـعـيـ ، اـسـتـرـ
عـلـىـ مـاـ رـأـيـتـ ، وـسـاعـدـنـيـ بـمـحـوـ هـذـاـ قـبـلـ اـنـ يـقـرـأـ النـاسـ فـرـكـتـ عـلـىـ

(١) كـتـابـ الـمـعـارـفـ : ٢١٧

(٢) السـيـرـافـيـ . ٦٩

(٣) ابنـ خـلـكـانـ : جـ ٢ـ مـ ٣٤٨

ظهره ، وصرت أمحو الكتابة شيئاً فشيئاً حتى اقلته قفال ويحك ، اقلتني وقطعت ظهري ، فهل انهيت ؟؟ قلت بقيت كلمة « لوط » ، قال هي والله شركات هذا البيت ، وما اظنك صنعت شيئاً حتى الآن (١)

وقيل لأبي عبيدة كان الأصمعي اليوم يتحدث عن ابطال « باهلة » في الجاهلية والاسلام ، فغضب ابو عبيدة وقال : « رأيت في بعض الجامع ان الأشعث بن قيس الكندي قال للنبي (ص) أتتكلفأ دمائنا يا رسول الله ؟؟ قال النبي : نعم ، ولو قتلت رجالاً من باهلة لقتلتكم (٢) » ويقول ابو عبيدة ، متندراً على العرب قال لي « ابو الدهماء » الأعرابي علمت بأن (الأعراب) و (الأغраб) هجاهما واحد ؟؟ - اي عدد حروفها مع حركاتها - قلت : نعم ، قال : فاقرأ « الأعراب اشد كفراً ونفاقاً » ولا تقرأ « الأغраб اشد » ولا يغرنك الأعرابي وان صام وصلى

فيجيئه الأصمعي بنادرة مثلها ويقول « سألت ابا النشنash الأعرابي : أكنتم تتواضون بالبادية ؟؟ قال نعم والله كما تتوضأ ، وكانت الوضوء تكفي الواحد منا اياماً عديدة ، حتى جاءتنا هذه الحمراء - اي المولاي من الفرس - وجعلت تلقي أستاها كما تلاق الدواة ، فصارت الوضوء لا تكفي واحدنا اكثراً من صلاة واحدة »

ويقول ابو عبيدة - ساخراً من اسماء العرب - : سألهي احدهم عن

(١) ابن خلكان : ج - ص ٣٢٨ - الذي كتب البيت هو الشاعر ابو نواس

(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ٢٥٢ - اثر الاتصال في هذا الحديث ظاهر . لأن النبي « ص » كان لا يزدري بأحد من المسلمين ، ولا يفرق بينهم في المنزلة ؛ فكيف يقول ذلك وفي صحابته عدد من الباهليين ، وفيهم من بايعه تحت الشجرة ؟؟ مع العلم بأن نسب الباهليين يتصل بنسبه في (مصر) .

شخص فلم أعرفه ، فقال « كيسان » - وكان ممروراً - أنا اعرف الناس به هو « خراش ، او خداش ، او قرواش ، او رياش » او شيء من هذا ؛ فقلت ما احسن ما عرفته ؟! قال ؛ اي والله ، وهو قرشي ايضاً !! قلت وما ادراك ؟! قال اما ترى كيف احتوشته الشينات من كل جانب (١) ؟؟

فيقول الأصمعي سأله ابا مهديه الأعرابي اتقرا شيئاً من كتاب الله ؟! قال نعم ، قلت إقرأ سورة والضحى ، فافتتح يقرأ « والضحى والليل اذا سجا » حتى انتهى الى « ووجنك ضلاً فهدى » فسكت ولم يقرأها ، وقال ان هؤلاء العلوج - اي المولاي الفرس - يقولون « فوجنك ضلاً » « وانا والله لا اقولها ابداً (٢)

كان الناس في البصرة يتشوكون الى سماع هذا النوع من الأدب في الخصومة والمحاكمة بين هذين النابغين ، وربما تعمد بعض سراة البصريين جمعهما في مجلس واحد دون ان يعلم احدهما محضور الآخر فكان ابو عبيدة اذا رأى الأصمعي يتدفق محدثه ونواذه ، ويتقلب من لون في الأدب الى لون آخر ، اعتزته الحدة في اعصابه وراح يعرض بالأصمعي ويخطئه ؛ فيجعد الأصمعي في ذلك مجالاً لمناقشته ومناظرته ، فيعتمد استشارته وإنقضائه قبل المناظرة ، ثم يناظره فيغلبه ويكسفه ، ويتركه غير ملتفت الى سلاطة لسانه وبذاته عند الغضب لأن الناس قد عرفوا ذلك فيه (٣) وقد قيل إن الأصمعي اذا اغضب ابا عبيدة امتنع عن الدخول الى المسجد الجامع اثناء

(١) ابن خل كان : ج ٤ ص ٣٢٩

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣) ابن خل كان : ج ٤ ص ٣٢٩ - كان ابو عبيدة لا يسلم احد من لسانه ، فلما مات لم يخرج احداً من اهل البصرة في جنازته لأنه لم يترك احداً منهم الا نال منه .

وجوده فيه ، ويقول لأصحابه انظروا هل هو هنا ؟؟ خوفاً من مجابته
له امام الناس (١)

ولم يبتل الأصمعي بهذا الخصم العنيد وحده ، ولكن عدداً كبيراً من
الشعوبين كانوا يؤازرون أبي عبيدة ويعينونه عليه وفيهم الأديب
والشاعر والراوية ؟ فلم يتركوا في الأصمعي مطعناً إلا أصابوه منه ؛
فهاجموا شخصه وشنعوا به ، واختلفوا القصاص للنيل من أبيه ومن قبيلته
ومن العرب الجميين سمعوه مرة يقول « حدثني أبي » فأغاظتهم
ذلك ، وصنعوا هذه القصة على أبيه فقالوا

« جاء - عطاء الملك - بجماعة من اهل البصرة الى أبي الأصمعي ،
فوجدوه ملتفاً بكسانه ، ناماً في الشمس ، فوكرزه (عطاء) برجله ،
وقال قم ويلك يا قريب ، هل لقيت احداً من اهل العلم قط او من
الفقهاء او المحدثين او الاعرب او اهل اللغة ؟ قال لا والله فالتفت
(عطاء) الى من معه وقال لهم هذا هو ابو الأصمعي ، فاشهدوا عليه
وعلى ما سمعتم منه ، لا يقل لكم ابنه غداً « حدثني أبي » وقال
ابي « (٢) »

وسمعوه مرة اخرى يقول « قال ابن الأجياد مولى أبي » فلم
يرق لهم قوله ، ولم يستطعوا تكذيبه لوجود هذا المولى حقيقة بينهم ،
فاختلفوا هذه النادرة الطريفة وأشاعوها بين الأدباء ، فقالوا

« لقي اعرابي رجلاً ، فسأله عن نسبة ، فقال : من باهله ، فرثى له

(١) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٨ - طبقات الأدباء : ج ٧ ص ١٦٨

(٢) السيرافي : ٦٩

الأعرابي ، فقال الرجل وأزيدك أني لست من صميمهم ولكن من مواليمه ؛ فأقبل الأعرابي على الرجل يلثم يديه ورجليه ؛ ففهت الرجل وقال له لم هذا كله ؟؟ قال لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في الدنيا إلا ليجعلك من أهل الجنة في الآخرة » (١)

وهكذا لم يترك الشعوبون طريقاً إلى الأصمعي إلا سلكوه للنيل منه ، كما كان هو لا يترك فرصة تمر إلا تصيدها لأجل الاشادة بأمجاد العرب ومكارمهم ، والتحدث عن ابيه وقبيلته ورفع مكانتها ، والكيل للشعوبين ورد اقوالهم وفترياتهم ، كقوله مثلاً : « خالبني الشك في كلمة - استخذى - أهي مهموزة أم غير مهموزة ، قلت لأحد الأعراب أتفول استخذيت أم استخذأت ؟؟ قال لا أقولها ، قلت ولم ؟؟ قال إن العرب لا تستخذى » (٢)

ويقول أيضاً من باب الحكمة « ثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى تعرفهم رجل ينافق في القدر على قارعة الطريق ، ورجل تشم من فمه رائحة المثمرة ، ورجل يتكلم بالفارسية في بلد عربي .. » وأمثال هذا كثير . يقي الأصمعي طوال شبابه وشطراً من كهولته يقارع هؤلاء الشعوبين ويصد هجوماتهم على عنصره وقبيلته وأسرته ، فيتصيد زعماءهم في المجالس والمنتديات ويماججهم ويناظرهم ويستعين بكل ما أوتي من علم وموهبة ولباقة فيهزهم . بالحق وبالباطل اذا استطاع ، كما فعل بال نحو المنشور « عمرو ابن عثمان » المعروف « سيبويه » الفارسي الأصل حين ناظره في المسجد امام المعاشر فهزمه ببيانه وكان الحق مع خصمه (٣) فلما كبرت مكانته

(١) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٧

(٢) الكامل : ٢٢٤

(٣) معجم الادباء : ج ٢ ص ٢٨١ - وابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٩ - توفي سيبويه عام ١٨٢ هجري .

العلمية بين الناس ، وكثير طلابه ومؤازروه ترك هذا النوع من السلاح الى طلابه لمواجهة الشعريين الذين كانوا قد كثروا ايضاً وتآلوا على شخصه وسمعته دون فائدة وكان من اشد من ناصبه العداء في كبره الشاعر ابو نواس « الحسن بن هانئ » الذي هجاه وهجا العرب بقصائد كثيرة واعان استاذه ابا عبيدة عليه ، وصار ينال منه بلسانه في كل مناسبة ولكن الأصمعي لم يلتفت اليه ولم يعبأ بأقواله فيه ، ويقول « غلام فارسي خليع نظم الشعر وهجا العرب » (١)

وما دمنا في محث خصوم الأصمعي فلا بد من ان نذكر اثنين من علماء عصره ناصبه العداء ايضاً ، وتركا اثراً فيه لا يزال باقياً حتى الان ؛ وهما « يحيى بن المبارك » المعروف بابي محمد اليزيدي ، و « محمد بن زياد » المعروف بابن الأعرابي

كان يحيى بن المبارك هذا زميلاً للأصمعي في حلقة « أبي عمرو بن العلاء » فبلغ في اللغة وال نحو والأدب وصار استاذ حلقة في مسجد البصرة ، ثم انتخب معلماً لأولاد هارون الرشيد وفيهم الأمين والمأمون و كان « خلف الأحمر » يكرهه ويزدرى به وينظم فيه الأشعار ، متهمًا اياه بميله للغمان وكان الأصمعي حكم صداقته خلف وصلته القوية به يؤيده على يحيى ويروي أشعاره فيه ، ويعلق عليها بنوادر فكرية طريفة ، فلتشتت بينه وبين يحيى خصومة ايضاً ودامت بعد وفاة خلف وصار يحيى ينتقد على الأصمعي ويدمه ، ثم هجاه فقال

(١) ابن منظور (اخبار ابي نواس) ١٧

الاَهَبَلَتْ كُلَّا من يَنْتَمِي
 الْيَاهِيلِ اَهَلَ اُمَّهِ الْهَابِلِه
 فَكَيْفَ اَذَا كَانَ ذَا دُعَوَةَ
 وَكَفَةَ نَسْبَتِهِ شَائِلَه
 مَتَى كَنْتَ فِي الْأُسْرَةِ الْفَاضِلِه
 اَذَا صَحَ اَصْلُكَ مِنْ بَاهِلِه
 وَمِنْ اَنْتَ؟ مَا اَنْتَ اَمْرُؤَ
 اَذَا صَحَ اَصْلُكَ مِنْ بَاهِلِه
 وَلِلْبَاهِيلِي عَلَى خَبْزِهِ كِتابَ لَآكِلهِ (١)

وَاسْتَمَرَ هَذَا الْعَدَاءُ بَيْنَ الْاثْنَيْنِ طَوِيلًا وَلَعِبَ دُورًا خَطِيرًا فِي بَلَاطِ
 الرَّشِيدِ كَمَا سَرَى ذَلِكَ بَعْدُ

وَأَمَّا اَبْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، فَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ النَّابِغِينَ فِي الْلُّغَةِ وَالْأَدَبِ ،
 أَسْوَدُ الْلُّونِ ، أَدْرَكَ الْأَصْمَعِيَّ مُتَأْخِرًا (٢) وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الرَّوَايَايَاتِ فِي سَبَبِ
 كُرْهِهِ وَعَدَائِهِ لِلْأَصْمَعِيِّ فَقِيلَ اَنَّهُ قَدَمَ الْبَصَرَةَ فَاخْتَارَهُ الْأَمِيرُ « سَعِيدُ بْنُ
 سَلَمَ الْبَاهِيلِيِّ » مَعْلَمًا لِأَوْلَادِهِ ؛ وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَدَمَ الْأَصْمَعِيُّ عِنْدَ سَعِيدٍ فَسُمِّعَ
 اَحَدُ اَوْلَادِهِ يَقْرَأُ بِيَتًا مِنَ الشِّعْرِ وَيَلْحُنُ فِيهِ لَهْنًا وَاضْجَافًا ، فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ
 فَقَالَ هَكَذَا عَلِمْنَا اَسْتَاذَ اَبْنَ الْأَعْرَابِيِّ ؛ فَدَعَا اَصْمَعِيَّ اَبْنَ الْأَعْرَابِيِّ
 وَنَاقَشَهُ فِي ذَلِكَ الْلَّاحِنِ فَوُجِدَ الْحَطَّاً مِنْهُ ، فَالْتَّفَتَ إِلَى الْأَمِيرِ سَعِيدٍ وَقَالَ
 هَذَا لَا يَصْلُحُ اَنْ يَكُونَ مَعْلَمًا لِأَوْلَادِكَ ، فَنَحَّاهُ سَعِيدٌ عَنْهُمْ ؛ فَثَارَتْ ثَائِرَةُ
 اَبْنِ الْأَعْرَابِيِّ وَرَاحَ يَشْتَعِنُ عَلَى اَصْمَعِيِّ وَيَتَهَمُّهُ بِالْجَهْلِ وَالْكَذْبِ ، وَيَحْلِفُ
 بِأَنَّهُ سَمِعَ مِنْ أَلْفِ اَعْرَابِيٍّ خَلْفَ مَا رَوَاهُ اَصْمَعِيُّ فِي بَعْضِ الْلُّغَةِ (٣)
 وَفِي رَوَايَةِ اَخْرَى اَنَّ اَبْنَ الْأَعْرَابِيِّ لَمْ يَقْابِلْ اَصْمَعِيَّ فِي يَوْمٍ مِنِ الْأَيَّامِ ،
 وَلَكِنَّهُ نَاصِبُهُ الْعَدَاءَ حَسْدًا مِنْ لَعْمِهِ وَفَضَلَهُ

(١) اَبْنُ خَلْكَانَ : ج٠ ٢٣٦ ص٠ ٥.

(٢) تَوْفِيَ اَبْنُ الْأَعْرَابِيِّ عَامَ ٢٣١ هـ.

(٣) اَبْنُ خَلْكَانَ : ج٢ ص٠ ٣٤٨.

وعلى هذا فاننا نجد ان نشاط الأصمعي في مجتمعه العلمي والأدبي ،
وبروز شخصيته بسرعة في ذلك الخضم الراهن بتiarاته الفكرية والمذهبية
والعنصرية ، خلقا له خصوماً من كل نوع فذهب خصومه بالافتراء عليه كل مذهب ؛
ولكنهم لم يستطيعوا إثبات جذوره والحط من مكانته في شيء ، وربما كانوا
من العوامل في شهرته في كل مكان وكانوا - مع ذلك - جزءاً من
تلك المدرسة الاجتماعية التي صقلت شخصيته واذكت نبوغه ؛ واليهم يعود
بعض الفضل في ابراز قابلياته ومواهبه للناس

القسم الثاني

شخصيته وأخلاقه

- ٤ - دمامته وأهماله ، وفتور غربته
- ٢ - نخله وحرصه
- ٣ - ظرفه وخفة روحه
- ٤ - تدينه ، وصدق لهجته

دمامته واماله ، وفتور غريزته

جاء في الأخبار انه كان دميم الخلقة ، تافه الهيئة والمظاهر اهداه احد النساء جارية فقرعت منه ونفرت عنه وبكت لمصيرها معه ؟ وهجاه بعض خصومه فوصفه بالقرد ، وفضل القرد في صورته عليه وغالب بعض الروايات في وصف دمامته مما يدل على انها كانت من صنع مبغضيه وشائئه^(١) غير ان الذي تصوره من خلال سيرته وتاريخ حياته هو ان ساحتته كانت اقرب الى الدمامنة منها الى الصباحة والجمال ؟ ولكنها دمامنة غير مشوهه ، في قسمات لا تتجها الأعين كما لا تصبو اليها الانظار ربع القامة ، لا بالطويل المشوق ، ولا بالقصير البادن ؟ اسرم البشرة كمن لفحته شمس الصحراء ، في جبهة عريضة واسعة بارزة ، وعيينين سوداويين صغيرتين تشعان ذكاءً وفطنة ، ركبتا فوق اف استدق اعلاه وعرضت اربنته ، وفم اشدق مليء الشفتين على ذقن رفيع النهاية ، احافت به لحية خفيفة سوداء ، رق عارضاها وطالت نهايتها بمقدار ما تستوعب قبضة الكف ، سيراً على قاعدة السنة^(٢)

قيل ان اهله ومعارفه كانوا يكنونه في صغره « ابا القندين » لكبر خصيته^(٣) - والقند في اللغة نوع من السكر يستخرج من التمر ويجعل على شكل كرات - ، وعرف في كبره بكنيته « ابي سعيد » كان على دمامنة صورته هذه مهلاً مظهراً اخارجي الى حد بعيد ، غير

(١) لو كان الأصمعي من الشاعرة بالشكل الذي يصفه به خصومه لما استطاع ان يكون نديعاً للرشيد وجلساً مقرباً عنده ولكن هذا خلاف ما يشترط في منادمة الحلقاء في ذلك العهد ، كما هو معلوم .

(٢) كتاب المعارف : ١٨٤

(٣) الدميري : ج ٢ ص ٢٨٢

ملتفت الى لباسه الا بقدر ما تقتضيه النظافة والطهارة للصلوة والعبادة ؛ مكتفيًّا بعامة بيضاء يلوثها على رأسه لوثًا غير احتفاء ، ووجة بسيطة سوداء تخفي تحتها ثياباً من النسيج الأبيض الرخيص ، وفي قدميه نعال من الجلد مخصوصة بقطع رقيقة من الحديد خوف الاستهلاك السريع

عاش الاصمعي في هذا الاهمال لظاهره ولباسه ، وقلما عني بشد عنته او تسريره لحيته الا في زياراته للشخصيات المهمة او حين يختلف الى مجالس الموسرين . وهو مع ذلك يرى التجمل في الزyi واللباس شيئاً لا قيمة له ، بل من سفاسف الأمور وعقيمها بالنسبة الى ما يجب ان يتاحلي به المرء في الحياة من زينة علمية وثراء ادبي يقدمه في المجتمعات ويرفعه الى مصاف الخالدين وكان يسخر من هؤلاء الذين أفلسوا من العلم والأدب ، فانصرفا الى تجميل مظهرهم وتزويق هياكلهم وابداء محسن وجدهم معتمدين على الثراء والنسب والطبيعة ؟ ويقول ؛ « ان الرجل قد تصيبه النائبة فيستغير من صديقه او قريبه ثواباً يلبسه ويظهر به ، ولكن لا يستطيع ان يجد من يعطيه علمه وأدبه ولسانه عند الحاجة ^(١) » وينشد

وَمَا حَسِنَ الرِّجَالُ لَهُمْ بِزِينٍ إِذَا لَمْ يَسُدْ الْحَسْنَ الْبَيَانَ
كَفَىٰ بِالمرءِ عِيَّاً أَنْ تَرَاهُ لَهُ وَجْهٌ وَلَا يُسْلَانُ لَهُ لِسَانٌ ^(٢)

نرى من فلسالته هذه وآرائه الكثيرة التي كان يبديها عند كل مناسبة في هذا الشأن ، ومن تعمده اهمال مظهره ، لوناً من الثورة الصامدة على الطبيعة التي ظلمته وجارث عليه ؛ فحرمته - وهو في عنفوان شبابه - من جمال تشتهي روئيته عيون الناس ، ومن سعة في العيش يتمتع بها ، حتى

(١) الدميري : ج ٢ ص ٢١٨

(٢) الدميري : ج ٢ ص ٢١٩

من نسب عريق يفخر بوجاهته ؟ في حين وهبته ذكاء متفقاً وحساً
وادراً كأبيصر بها الغبن الفاحش بين اديب نابه فطن يتغثر باسمال فاقته
وقبجه وضعة نسبه ، وبين آخر غبي بليد يرفل بالدمقس والحرير ، وينام
في فراش ناعم ، ويركب في الموكب الخطير ويقول بين الناس كان ابي .
وقد حدثنا التاريخ بأن الفقر والقبح وضيعة النسب قلما اجتمع في
رجل ذكي عالم الا جنحت به حمو الثورة على الناس والحياة ، او اندفعت
به الى الزندقة والكفر ولكن الأصمي القوي الأعصاب المتزن التفكير
لم ينجح الى هذا ولا الى ذاك ، انما المحضرت ثورته النفسية من هذا
الحرمان الى افهام الناس بأنه جميل في روحه وظرفه ، غني بعلمه وعقله ،
رفيع النسب بأدبه ، فيقول « جمال الروح اطول ربيعاً من نضارة
الوجه » ويقول « من قعد به نسبه نهض به ادبه » (١)

كان يحاول ان يفهم الناس ذلك من وراء احاديثه ورواياته ، فإذا لم
يجد عندهم قبولاً لذلك اندفع ساخراً بالجمال البليد والثراء الغبي السخيف ،
ويروي القطع الأدبية النادرة في ذلك ، فتدوي ضاحكة بين الناس ، ويرويها
القريب والبعيد يقول مثلاً رأيت في البصرة شيئاً له منظر حسن ،
وعليه ثياب فاخرة ، وحوله حاشية وهرج ، ودخل وخرج ، فاردت ان
اخبره ، فسلمت عليه وقلت له ما كنية سيدنا ؟؟ قال « ابو عبد
الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » فضحك منه وعرفت رقاقة عقله (٢)

وتبلغ به السخرية اللاذعة والتمكم المر احياناً الى ان يزدرى بشكله
وقبجه هيئته ويتندر على نفسه كما يتندر على غيره ، ويخلط هذا بذلك ،

(١) الأمالى : ج ٣ ص ٢٢٣

(٢) كتاب المعرف : ١٧٢

فيخلق جواً اديباً ظريفاً تشع فيه روحه بجمالها على شكله ، ويتدفق لسانه بغزارة علمه وكنوز ادبه تدفقاً يتضاعل امامه جمال وجوه الحاضرين وسعة ثرائهم ، فيظهر امامهم كما قال عنه الباحث « اجمل من تحدث وأعذب من حكى »

يقول « دخلت على احد الامراء في مجلسه ، فقال يا اصمعي ، هل لك من زوجة ؟ قلت لا ، قال فجارية ؟ قلت جارية لمهمنة ؟ قال فهل لك ان اهديك جارية نظيفة ؟ قلت اني لمحاج الى ذلك فأمر باخراج جارية الى مجلسه ، فخرجت جارية في غاية الحسن والجمال والمهيبة والظرف ؛ فقال لها قد وهبتك لهذا ؛ ثم قال : يا اصمعي ، خذها فشكرتها على هبته ، فبكت الجارية وجزعت جزعأ شديداً وقالت يا سيدى ، اي ذنب جئت حتى تدفعني الى هذا ، مع ما ارى من قبح صورته ؟ فأظهر الامير تردد و قال يا اصمعي ، هل لك ان اعوضك منها الف دينار ؟ قلت ما اكره ذلك فأمر لي بالف دينار ، ودخلت الجارية الى القصر ؛ فقال مبتسماً يا اصمعي ، اني انكرت من هذه الجارية امراً ، فأردت عقوبتها بك ، ثم رحمتها منك قلت فهلا اعلمني بذلك قبل مجبي اليك ؟! فإني لم آتاك حتى سرحت لحيتي وأصلحت عمتي ؛ ولو عرفت الخبر لصرت اليك على هيئة خلقتني ، فوا الله لو رأيتني كذلك لما عادت شيئاً تنكره منها طوال حياتها^(١)

وللأصمعي روایات وطرف من هذا اللون الساخر اللاذع حول القبح والجمال ويبدو لنا انه كان يعني بهذا الشأن حين كاف يتخبط مراحل شبابه ، وقبل ان يكتهل فينغمي في الجو الفكري حيث لم يعد يلتفت الى

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٤

المظهر الحسن والصباحة كما يلتفت الى الانتاج في العلم والأدب ولو أمعنا البحث في سيرته وتصرفاً له لوجدها فاتر الغريرة في كل ما يتعلق بالمسائل الجنسية ، بعيداً عن مغازلة النساء رغم ضخامة ما روى من الشعر الفزل الرقيق ، زاهداً في المحاولات معهن فلم يخبرنا هو عن حب علق به أيام فتوته ، او هوى أسره ليلة من لياليه طوال شبابه وحتى خصومه الذين كانوا يبحثون عن زلاته وأخطائه لم يشيروا الى شيء من ذلك كل ما نعلم عنه في هذا المجال هو انه تزوج في حداثته وأنجب عقلاً ، ثم انه ترمل في شبابه فبقي أرمل حتى النهاية ولا شيء اكثراً من ذلك (١) غير اننا بجد احد خصومه يتهمه بعد موته - على سبيل المغالاة - بأنه كان « مانويأ » (٢) ؛ والممانوية مذهب مجوسي فارسي قديم ، ينسب الى « ماني بن فتك بن بابك » ، يقول بأن العالم مصنوع ومركب من اصلين قدامين لها « النور ، والظلمة » ؛ وكان ماني هذا قد حرم على نفسه شرب الماء ، وأكل اللحم ، ومقاربة النساء (٣) فقول خصوم الأصمي بأنه كان مانويأ لا يعني الطعن بعقيدته ، وهو المعروف بورعه وتقواه ، ولكنـه كان لا يشرب الماء حكم تمسكه بالدين ، ولا يكثـر من أكل اللحم لأنـه لا يألفه ، ولا يتشبـب بالنساء لفتور غريزـته الجنسـية وقد جاء في كتاب « البصائر والذخـائر » لأبي حيـان التـوحـيدي روـاية عن أحد طلـاب الأصمـي الظـفـراء يقول « تقدـم الأصمـي إلـى جـاريـة ، بـعدـما كـبر ، فـاقـطـع ، فـقال سـبـحانـ من خـلـقـ خـلـقاً فـأـمـاتـهـ في حـيـاتهـ » (٤)

(١) سنبـحـثـ هـذـاـ فـيـ مـكـانـ آـخـرـ مـنـ الـكـتابـ

(٢) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٨

(٣) الملـلـ والـنـعـلـ : ج ٢ ص ٧٢

(٤) البصـائـرـ والـذـخـائـرـ : ج ٦ ص ٥٦

وقد يكون لفتور غريزته هذا الأثر الكبير في تكوين اخلاقه ؟ وقد رأينا هادئ الطبيع ، مستقيم الأطوار ، يغلب عليه التعقل في سائر تصرفاته ؛ ولم مجده يوماً ثأر الأعصاب ، او مندفعاً طائشاً في امر من الأمور على غير هدى او تفكير ، ولم يلق نفسه في مأزق او تهلكة ، ولم يرد مورداً ليس له مصدر ابداً وربما كان لهذا الفتور ايضاً اثر في انصرافه الى الدرس والتحصيل والادمان والمواظبة على جمع الفوائد الفكرية طوال حياته

بخله وحوسه

وافق مؤرخو السير على انه كان مخيلاً ممسكاً « يضيق في معيشته ، ويستقصي في مباعيته . ولو بذلت له الجنة بدرهم لما رضي ولساوم واستقصى » (١) والبخل صفة عرف بها أكثر الباهليين بين العرب ، وفيهم يقول الشاعر وللبهالي على خبزه كتاب لا كله الآكله

فكان في ا أيام دراسته اذا مر بسوق المربد ، وتعرف بأعرابي فصيح عالم ، واراد استبقاءه لأخذ ما عنده من اللغة والأدب والأخبار وغيرها ، دعاه الى ضيافته في البصرة ، ولكنه لا ينزله في بيته بل في بيت احد اصدقائه من الموسرين لكي لا يتكدب هو خسارة الضيافة . فلما عقد حلقة في مسجد البصرة صار الأعراب يغدون اليه ليسمعوا منه ويجادلوه ، فاذا وجد من بينهم شاعراً او راوية للغة والأدب شوقه الى البقاء في البصرة ، وشجعه على ملازمة حلقة ليأخذ ما عنده من العلم ، وامر طلابه ان يجمعوا له من عندهم شيئاً من المال لسد حاجته مدة اقامته ، ولا يدفع هو شيئاً من ذلك (٢)

(١) محاضرات الأدباء : ج ١ من ٢٩٠

(٢) زهر الآداب : ٣٨٦

والأصمعي كان محباً للعمال ، وكان من الأساتذة القلائل الذين يقبلون
 المنح والمدايا من طلابهم ورواد حلقاتهم في مسجد البصرة قيل اب
 رجالاً كان يألف حلقته ، فإذا صار إلى ضيغته أهدى إلى الأصمعي ما يحمل
 منها ، ثم ترك حلقة وألف حلقة أبي زيد الأنباري ، وكان أبو زيد
 لا يقبل شيئاً ، ففر الرجل بالأصمعي يوماً فقال له الأصمعي معايباً
 ولج بك المجران حتى كأنما ترى الموت في البيت الذي كنت تألف !^(١)
 وفي رواية أخرى انه مرض مرة فعاده صديق له من سرة الناس
 واغنيائهم ، وكان يحب الأدب والعلم ويرى أصحابها ، فقال له اي شيء
 تشتهي يا أصمعي ؟؟ قال اشتاهي ان تقرضني خمسة آلاف درهم ، قال :
 افعل ذلك ، فأي شيء غير هذا ؟؟ قال واشتهي اب تهدي لي سيفاً
 قاطعاً وبرذوناً حسناً وسرجاً محل وختاماً ثميناً ، قال افعل ذلك ؟ ثم
 ارسل اليه كل ما طلب ^(٢)

وقصته في محله هذا كقصته في قبح صورته وتفاهة مظهره كان
 يعلم بأنه مسك مفتر ، ويعلم بأن الامساك صفة تزري ب أصحابها ، ولكنه كان
 يحاول ان يعطي نقصه هذا على معارفه ويختفف من اثره في نفوسهم بليلاته
 وظرفه وحسن يانه ونادرته فكان يزدرى بالبغاء ويروى نوادرهم
 بأسلوب طريف ، ويتندر بالمسرفين ويضعهم في مصاف السفهاء واخوات
 الشياطين ، ويخلق عند الضرورة من هذا وذاك جواً مرحًا يشغل به
 اذهان سامييه عن التفكير بنقصه وله اقوال طريفة في هذا الباب ،
 فيقول على سبيل التستر مثلاً « نعم الأدام الجوع ، ونعم شعار المسلمين

(١) ترفة الأباء : ١٦٦ - الشعر للفرزدق .

(٢) الأغاني : ج ٥ ص ١٠٨

التخفيف » (١) ويقول ايضاً « ان اكثراً اهل النار النساء والقراء ، وان اكثراً اهل الجنة البله والأغبياء ، وان أرباب الدثور - أي الأموال الطائلة - هم الذين ذهبوا بالأجور » (٢)

والطريف في الأمر انه كأن من اكثراً من روئي عن البخلاء من الشخصيات المعروفة في التاريخ ، واجمل من تحدث عنهم ؟ وربما كان دافعه الى هذا محاولة اخفاء نخله ، او جعل البخل في اذهان معارفه صفة قد يتصرف بها العظاء ايضاً فن حكاياته عن كبار البخلاء مثلاً قوله « كان المغيرة الشقعي والي الكوفة يأكل تمراً هو وأصحابه عنده - وكان مخيلاً - فانطفأ ضوء السراج ، وكانوا يلقون النوى في طست ، فسمع صوت نواتين تسقطان في آن واحد فقال من هذا الذي يلعب بالكمبين ؟ »

ويقول كذلك « سأله قفير خالد بن صفوان شيئاً ، فأعطاه درهماً ، فاستقله السائل ، فقال خالد يا أحمق ، إن الدرهم عشر العشرة ، وان العشرة عشر المائة ، وان المائة عشر ألف ، وان ألف عشر العشرة آلاف أما ترى كيف ارتفع الدرهم الى دية مسلم ؟ » (٣)

ويقول في نوادره عن بخل الأعراب « تعرق اعرابي عظاً ، فلم يرد ان يلقيه ، وله بنون ثلاثة ، فقال له احدهم اعطيه ، قال وما تصنع به ؟ قال اترقه حتى لا ترى به ذرة مقيلاً ؛ قال ما قلت شيئاً فقال الثاني اعطيه اترقه حتى لا تدرى فهو لعامه هذا ام للعام الذي قبله ؛ قال ما قلت شيئاً فقال الثالث اعطيه اجعله مخة ادام ؛

(١) كتاب البخلاء : ٨٦

(٢) كتاب البخلاء : ١٤١

(٣) كتاب البخلاء ١٩٠

قال انت له ، الله ابوك وناوله العظم الذي يده » (١)
وينشد على لسان اعرابية ترقص طفلها

احبه حب البخيل ماله
قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا أراد بذلك بدا له (٢)

وكان اذا سئل حاجة وامتنع عن بذلها علل اسباب امتناعه بمنطق
وجيه يقبله العقل احياناً ، وجاء بالحكمة والمثل والنادرة ليفهم السائل
والحاضرين بأنه تعمد الامتناع لغاية في نفسه غير باخل بذلك الحاجة .. قيل :
ان متسولاً بسط يده اليه يسأله درهماً امام جماعة من صحبه ، فامتنع وقال
للسائل بورك فيك ؟ ثم التفت الى جلاسه وقال لهم « سألهي متسول
درهماً ، فقلت له لا ارضى لك ما يحضرني ، قال : انا ارضضيه ، قلت :
هو - بورك فيك - فأشدني المتسول قائلاً
ألم ترني ابغضت للي وذكرها كا ابغض المسكين بورك فيك
فأعطيته الدرهم من اجل تلك القائدة (٣) »

وكان خصومه يعرفون جانب البخل هذا فيه ، فيغمزونه منه ، ويغانون
في وصفه ، ويحكون التوادر الطريفة عنه ، وربما ذهبوا في ذلك الى ما
يزري به غاية الاذراء وتعدوا حدود الواقع الذي عرف به والحق انه
كان خيلاً ، وقد زاد في محله وامساكه ذلك الفقر الذي عاش فيه صغيراً
حتى اعتاده ، والحرمان الذي كابده طويلاً في نشأته حتى ألفه ، فصار يراه
طبعياً محموداً ، ويرى غيره سفهاءً وتبذيراً

(١) كتاب البخلاء : ١٨٧

(٢) زهر الآداب : ٣٨٦

(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٤٦ .

كان يزهد في ترف العيش واناقة الثياب لعاملين هما الفقر والأمساك فلما ظهر في المجتمع وبرزت شخصيته وخالط سراة اهل البصرة وحسنـت حاله ، لم يستطع التخلص من قيود البخل الذي فطر عليه والاقتصاد الذي اعتاده من قبل ، فقصـرت يده عن مجازـة مجتمعـه في البذل ، وراح يعلـل ذلك بآقوال مأثورة فيقول « ان الرجل لتكون غلته الفين فينفق الفاً فيصلح وتصلح الغلة ، وت تكون غلته الفين فينفق الفين فيوشـك ان يبيع العقار في فضل النـفقة (١) »

ولما تقدمـت به الايام ، وابتسم له الـدـهـر ، فـاتـصـل - كـما سـنـى - بـيلـاط هـارـون الرـشـيد ، وـجـائـسـ الأـمـرـاءـ وـالـوزـراءـ ، رـأـيـاهـ يـلبـسـ الـحلـلـ الـجمـيـةـ التيـ كـانـتـ توـهـبـ لـهـ ، وـيرـكـبـ بـرـادـينـ الـخـلـفـاءـ فيـ موـاـكـبـ الـخـلـيفـةـ ، وـلـكـنهـ لمـ يـسـطـعـ - وـهـوـ المـقـنـصـدـ الـبـغـيلـ - انـ يـجـريـ معـ كـبـارـ الـقـومـ هـؤـلـاءـ فيـ مـيـدانـ بـذـخـمـهـ وـتـرـفـهـ وـجـزـيلـ عـطـائـهـ لـلـنـاسـ ، وـلـمـ تـسـمـحـ لـهـ نـفـسـهـ السـيرـ فيـ صـفـوفـ الـأـجـوـادـ وـالـبـذـرـينـ مـنـ الشـعـرـاءـ وـنـدـمـاءـ الـقـصـرـ ، فـتـكـشـفـ مـخـالـهـ وـأـمـاسـكـهـ اـمـامـ خـصـوـمـهـ وـشـائـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ قـبـلـ ، وـقـالـواـ فـيـ ماـ اـرـادـواـ وـأـكـثـرـ مـنـ كـتـبـ عـنـ مـخـلـهـ « عـمـرـوـ بـنـ مـحـرـ الـجـاحـظـ » فيـ كـتـابـهـ « الـبـخـلـاءـ » وـهـوـ كـتـابـ صـنـعـةـ وـأـدـبـ ، اـسـتـهـدـفـ صـاحـبـهـ مـنـهـ الـظـرـافـةـ وـالـلـحـ وـلـمـ يـتـقـيدـ بـالـحـقـائـقـ وـالـجـاحـظـ - كـماـ عـلـمـنـاـ - مـنـ تـلـامـذـةـ الـأـصـمـعـيـ فيـ اوـاـخـرـ اـيـامـهـ ، وـقـدـ لـازـمـ حـلـقـتـهـ طـوـيـلاـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـسـطـعـ التـقـرـبـ مـنـ نـفـسـهـ لـأـسـبـابـ جـوـهـرـيـةـ كـانـتـ تـبـاعـدـ بـيـنـهـماـ وـذـلـكـ لـأـفـ الـجـاحـظـ كـانـ يـنـحـوـ فيـ عـقـيـدـهـ منـحـيـ الـقـدـرـيـةـ فيـ الـاعـزـالـ ، وـيـقـنـدـيـ بـأـرـاءـ « الـنـظـامـ » اـحـدـ عـلـمـاءـ الـكـلـامـ وـرـؤـسـائـهـ ؟ـ وـالـأـصـمـعـيـ مـنـ خـصـوـمـ هـذـاـ الـذـهـبـ - كـماـ اـسـلـفـنـاـ - لـذـلـكـ كـانـ

(١) المـتنـىـ : ٢٩ - وـيـخـلـفـ نـصـ هـذـهـ الـرـوـاـيـةـ فيـ مـصـادـرـ أـخـرىـ .

ينفر من تلميذه هذا ولا يلتفت اليه كثيراً في مجلسه ، ولا ينافقه في آرائه ، وربما تعمد الرد عليه بأجوبة لا تعجبه وآخر ما كان من امرها ما حدثنا به « ابو العيناء » قال كنا في مجلس مع جماعة ، فأفضنا بالحديث عن استاذنا الأصمعي - وكان قد توفي - فقال الجاحظ كأن الأصمعي (مانويأ) ، فقال له العباس بن رسم لا والله ، لا تقبل منك هذا القول ، ولكن نذكر حين جلست اليه في حلقة تسأله ، فجعل يأخذ نعله بيده ، وهي مخصوصة بمحدث ، ينفض عنها التراب ويقول « نعم ، قناع القدر قناع القدر » فلعلم انه يعنيك فقامت (١)

وقد أورد الجاحظ في كتابه هذا عن الأصمعي عدة نوادر في خاله ، جاءت غاية في الأبداع والظرف ، وهذا بعضها ، قال « شهدت الأصمعي يوماً ؛ وأقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم وعما يأكلون ويشربون فأقبل على الذي عن يمينه وقال ابا فلان ، ما ادامك ؟؟ قال اللحم ؛ قال أكل يوم لحم ؟؟ قال نعم ؛ قال الأصمعي : وفيه الصفراء والبيضاء والكدراء والخامضة والحلوة والمرة ؟؟ قال : نعم ؛ قال « بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب ؛ كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان يقول « مدمن اللحم كدمن الخمر » ثم سأله الذي يليه ابا فلان ، ما ادامك ؟؟ قال الآدم الكثيرة والألوان الطيبة ؛ قال أفي ادامك سمن ؟ قال نعم ؛ قال فتجمع السمن والسمين على مائدة ؟؟ قال نعم ؛ قال « ليس هذا عيش آل الخطاب ؛ كان ابن الخطاب رحمة الله عليه

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٨

ورضوانه يضرب على هذا ؟ وكأن إِذَا وجد القدور المختلفة الطعوم
 كدرها في قدر واحد وقال : « ان العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً ».
 ثم أقبل على الآخر فقال : ابا فلان ، ما ادامك ؟ قال : اللحم السمين والجداه
 الرُّضَّعُ ، قال « فتأكله مُلْحَوَارِي ؟ » قال نعم ، قال « ليس
 هذا عيش آل الخطاب كان ابن الخطاب يضرب على هذا او ما
 سمعته يقول : اتروني لا اعرف الطعام الطيب ؟ لباب البر بصغر المزى . الا
 تراه كيف ينفي من اكله ، وتنتحل معرفته ؟ » ثم يقبل على الذي يليه ،
 فيقول « ابا فلان ، ما ادامك ؟ » فيقول اكثراً ما نأكل لحوم الجذور
 وتتخد منها هذه القلايا ، ونجعل بعضها شواء ، قال « افتأكل من
 اكبادها واستنمها وتتخد لك الصباغ ؟ » قال نعم ، قال « ليس هذا
 عيش آل الخطاب كان ابن الخطاب يضرب على هذا او ما سمعته
 يقول اتروني لا اقدر ان اخذ اكباداً وافلاذاً وصلائق وصلابا ؟ الا
 تراه كيف ينكر اهله ، ويستحسن معرفته ؟ » ثم يقول للذي يليه
 « ابا فلان ، ما ادامك ؟ » فيقول الشبارقات والأخصصة والفالوذجات .
 قال « طعام العجم ، وعيش كسرى ، ولباب البر ، بلعب النحل ،
 مخالص السمن » حتى آتى على آخرهم فلما اقضى كلامه ، اقبل عليه
 بعضهم ، فقال « يا ابا سعيد ما ادامك ؟ » قال : « يوماً لبن ويوماً
 زيت ويوماً سمن ويوماً تمر ويوماً جبن ويوماً قفار ويوماً لحم عيش
 آل الخطاب » (١)

« وتمشى قوم اليه مع تاجر كان اشتري ثمرة ، لخسان كان ناله
 وسائله حسن النظر والخطيبة . فقال الأصممي « أسمعت بالقصمة الضيزى ؟

(١) البخلاء : ١٨٥

هي والله ما تريدون شيخكم عليه اشتري مني على اى الخسران علي والربح له هذا وايكم تجارة ابي العنبس اذهبوا فاشتروا علي طعام العراق على هذا الشرط على اني والله ما ادرى اصدق هو ام كاذب وها هنا واحدة ، وهي لكم دوني - ولا بد ان احتمل لكم ، اذ لم تحتملوا لي - والله ما مشيت معه الا وانت توجبون حقه وتوجبون رفده . لو كنت اوجب له مثل ما توجبون لقد كنت اغتنته عنكم وانا لا اعرفه ولا يضربني بحق ، فهلموا توزع هذه الفضلة بيننا بالسوية ، هذا حسن من احتمل حقاً لا يجب عليه في رضا من يجب ذلك عليه « ققاموا ولم يعودوا فخرج التاجر من حقه ، وايس ما قبله (١) »

وقيل « انه كان يتعدى بالله من الاستقرار والاستفراض فانعم الله عليه حتى صار هو المستقرض منه ، والمستقرض ما عنده ، فاتتفق ان آتاه في يوم واحد رجلان وكان احدهما يطلب الفرض والآخر يطلب القرض ، هجمما عليه معاً فأغضبه ذلك وملأ صدره فأقبل عليهما وقال لصاحب الفرض : « ... وأما الفرض فليس يسعه الا بيت المال ولو وهبت لك درهماً واحداً لفتحت على مالي باباً لا تسده الجبال والرمال ولو استطعت ان اجعل دونه ردمًا كردم ياجوج وماجوج لفلت اى الناس فاغرة افواههم نحو من عنده درهم ، فليس يمنعهم من النحس إلا اليأس ، وان اطعموا لم تبق راغية ولا ثاغية ولا سبد ولا لبد ولا صامت ولا ناطق إلا ابتلعوه والتهموه أتدرى ما تريدين بشيخك ؟ ائما تريد اى تفقره ، فإذا افقرته فقد قتلتة ، وقد تعلم ما جاء في قتل المؤمن » (٢)

(١) البخلاء : ١٣١

(٢) كتاب البخلاء : ١٩٠

ولم يكتف خصوم الأصمعي بغمز جانب البخل المادي فيه ، فقالوا عنه بأنه كان خيالاً بعلمه ايضاً على طالبي الفائدة منه^(١) وفي هذا القول شيء من المعالطة ، فلو نظرنا الى كثرة ما اتبس الرواة عنه من اللغة والأدب والأخبار ، ورأينا كثرة من لازمه من الطلاب اعواماً طويلة فأصبحوا بعد ذلك من قادة العلم والأدب في عصرهم ، إذأً لعلمنا بأنه كان كفيراً من العلماء في بذل ثروتهم الفكرية وتقدير جهودهم العلمية في سبيل تقديمها للناس

ولكن شيئاً واحداً كان يدخل به على طبقة معينة من الناس كان يدخل بعض الطرائف الأدبية النادرة التي تصلح للمنادمة والمحالسة كالقطع الشعرية الغريبة المجهولة عند الآخرين والحقيقة منها الصالحة للفناء ، فلا يعطيها الى هؤلاء الذين تعودوا التكسب بأدبهم في مجالسة الأمراء والموسرين، ولا الى المغنين الذين امتهنوا الغناء في مجالس كبار القوم ليأخذوا من اجل ذلك العطاء الجزييل فهو يرى ذلك ضرباً من ضروب الكسب على حساب الغير ، ولا يرى من الحزن اعطاءهم ما يرجعون به سهلاً على حساب رواياته الأدبية التي تكبد في سبيل العثور عليها متابعة الأسفار ومشاق البحث وعناء التدوين والتصحيف

كان يحتفظ بها لنفسه ليتذمّن بانشادها وروايتها في المجالس والمنتديات التي يزورها ، ويحصل بها على اعجاب الناس بشخصه وعلمه وقد يكون معدنوراً في ذلك بعض العذر متى علمنا بأن عصره كان عصر علم وأدب حيث كان يكتب المال والثراء امام الرواة كلما جاؤوا بطريقة نادرة ، او شعر غريب مجھول ، او خبر ياذ في السمع عن شخصية تاريخية معروفة

(١) الاغاني : ج ٥ ص ٦

او نادرة ذات مغزى جميل عن الأعراب وقد وجدناه اكثراً ما يكون
مخلاً في ذلك عندما اتصل بيلات الرشيد ورأى الـبيت والـبيتين من الشعـر
قد يدران عليه آلاف الدنانير اذا ألقـيا في مناسبـتها وحصلـا على اعـجابـ
الـخليفة وسرورـه بها (١)

يقول احد هؤلاء الأدباء « عيسى بن اسحـائيل » حضرـت مجلسـ
الأصـحـيـ فـسمـعـته يقول دخلـتـ علىـ الأمـيرـ « جـعـفرـ بنـ سـليمـانـ العـبـاسيـ »
وقد تركـ الطـعامـ جـزـعاـ علىـ اخـيهـ مـحمدـ بنـ سـليمـانـ -ـ وـالـيـ الـبـصـرـ -ـ فـأـنـشـدـتـهـ
ـبـيـتـيـنـ مـنـ الشـعـرـ ،ـ فـاـ بـرـحـتـ حـتـىـ دـعـاـ بـالـمـائـدةـ فـأـكـلـ ؟ـ قـالـ عـيسـىـ
ـفـسـأـلـهـ عـنـ ذـيـنـكـ الـبـيـتـيـنـ فـسـكـتـ -ـ بـخـلـاـ بـهـاـ -ـ ثـمـ سـأـلـهـ ثـانـيـةـ ،ـ فـالـنـفـتـ إـلـيـ
ـوـقـالـ أـتـدـريـ مـاـ قـالـ الـأـحـوـصـ؟ـ قـلـتـ :ـ لـاـ اـدـرـيـ ،ـ قـالـ :ـ قـالـ الـأـحـوـصـ :ـ
ـقـدـ زـادـهـ كـلـفـاـ بـالـحـبـ اـنـ مـنـعـتـ اـحـبـ شـيـءـ إـلـىـ الـإـنـسـانـ مـاـ مـنـعـاـ
ـثـمـ سـكـتـ ،ـ وـلـمـ يـقـلـ الـبـيـتـيـنـ (٢)

ويقول الآخر اشـدـنـيـ الأـصـحـيـ ايـاتـاـ قـلـيـةـ رـائـعةـ فيـ وـصـفـ الفـرسـ
ـهـذـاـ بـعـضـهاـ

ـكـأـنـهـ فـيـ الجـلـ وـهـ سـامـيـ مـشـتمـلـ جـاءـ مـنـ الـحـامـ
ـيـسـورـ بـيـنـ السـرـجـ وـالـلـبـاجـ سـورـ الـقـطـامـيـ إـلـىـ السـيـامـ
ـفـأـعـجـبـتـنـيـ وـكـتـبـتـهـاـ ،ـ وـقـلـتـ لـهـ هـلـ هـاـ بـقـيـةـ؟ـ؟ـ قـالـ لـاـ ،ـ فـذـهـبـتـ
ـإـلـىـ اـحـدـ الـأـمـرـاءـ فـيـ مـجـلـسـهـ ،ـ وـرـحـتـ اـنـشـدـهـاـ لـهـ ،ـ فـدـخـلـ الـأـصـحـيـ وـسـعـيـ

(١) نـزـهـةـ الـأـلـبـاءـ :ـ ١٢٤ـ

(٢) المـقـدـ الفـرـيدـ :ـ جـ ٢ـ مـ ٤١ـ -ـ الـايـاتـ هـاـ لـالـشـاعـرـ « اـرـاكـةـ التـقـفيـ »ـ يـرـنيـ اـبـهـ عـمـراـ
ـوـفـيـهـ يـقـولـ :

ـلـعـرـيـ لـئـنـ أـتـبـعـتـ عـيـنـكـ ماـ مـضـىـ بـهـ الـدـهـرـ اوـ سـاقـ الـحـامـ إـلـىـ الـقـبـرـ
ـلـيـسـتـفـدـنـ مـاءـ الشـؤـونـ بـأـسـرـهـ وـانـ كـتـ تـمـرـيـهـنـ مـنـ ثـبـجـ الـبـرـ
ـتـبـيـنـ ،ـ فـانـ كـانـ الـبـكـاـ رـدـ الـكـاـ عـلـىـ اـحـدـ فـاجـهـ بـكـاـ عـلـىـ عـمـروـ

اتلوها ، فقال هات بقيتها !! فقلت لم تقل انه لم يبق شيء منها ؟؟ قال ما بقي منها الا عيونها ، ثم اشد بعدها ثلاثين بيتاً ، ففاظني والله فعله (١)

من ذلك نفهم بأنه ما كان يصل على هؤلاء بما يدخله لنفسه من روائع الأدب فحسب ، بل كان يستخدمهم للوصول إلى غايته أيضاً ، فيعطيهم بعض الشعر لا كله ، أو يعطيهم الشعر كله ولا يطلعهم على اسم صاحبه ؛ فإذا أنشدوه في المجالس أو غنووا به وسائلهم الحاضرون عن تتمته أو عن اسم قائله عجزوا عن الجواب ، فيكون هو حاضراً فيجيب ، أو يكون غائباً فيسأل عن ذلك فيما بعد فيجيب ، فيظهر فضله على غيره . وكان يعتبر ذلك وسيلة مشروعة من وسائل الكسب الادبي والمادي أيضاً في بعض الاحيان

ومن صفاته المقاربة للبخل ، حرصه الشديد على التغلب في مناظراته ومناقشاته مع العلماء ، وبخاصة عندما تكون المناظرة والمناقشة في مسألة تدخل في نطاق اختصاصه كاللغة والشعر والأدب على انواعه لذلك نراه يتتجنب الخوض في امر يجهله خيفة ان يغلب فيه ، ولا يدعى شيئاً يرى غيره فيه امكان منه وقد قال احد معاصريه « لم ار الأصمعي يدعى شيئاً من العلم فيكون احد اعلم به منه » (٢)

والذى يبحث في مناظرته مع العلماء يجده مسلحاً بكل الوسائل التي تعينه على الوصول الى الفوز في النتيجة فهو يدخل الكثير من المسائل الصعبة الغامضة في اللغة والشعر والنحو احتياطاً للطوارئ فإذا غالب في مسألة

(١) الاغاني : ج ٢ ص ١٠٨ - حدث هذا مع اسحاق الموصلي في مجلس الفضل بن الريبع .

(٢) ابن خلkan : ج ٢ ص ٣٤٤ .

قاد مناظره الى احدى هذه المسائل المدحرة عنده فيوقعه وكان ماهراً في ادراك جانب الضعف عند مناظره فان وجده مكيناً في اللغة دفعه الى النحو او الشعر الغريب ، فيغلبه . وربما استخدم الكلمات المتعددة المعاني ، او قام امام خصمه بحركات ، واتى بيماءات تورطه في المعنى وتوقعه في الخطأ ناظره « ابو عمرو الجرمي » مرة فغلبه ، فشق ذلك على الأصمعي ؛ ققيل لأبي عمرو ظفرت به فاحتزز منه ، فقال الأصمعي ما تقول في قول الشاعر

وضرب كاذان الفراء فضوله وطعن كأبزاغ المخاض بتورها
ما اراد بالفراء هنا ؟؟ (وأشار مومناً الى فراء كانوا جالسين عليه) فقال
ابو عمرو الفراء ما نحن جالسون عليه ؛ قال الأصمعي اخطأت انما
الفراء جمع فراء وهو حمار الوحش فانكشف ابو عمرو وارتاح
الأصمعي ^(١) والذي هو واضح في هذه الرواية ار صاحبنا تعمد انشاد
هذا البيت الغريب لأن فيه كلة (فراء) وهي تدل على معنيين مختلفين
ـ حمار الوحش ، والفراء المفروش على ارض المجلس ـ فاستطاع باشارته
ان يوقع مناظره في الخطأ ؛ وفي هذا ما يشير الى قدرة الأصمعي وغزاره
ما يحفظ من الشعر الغريب

وناظره رجل آخر في مجلس سعيد بن سلم فغلبه ايضاً ، فقال الأصمعي
منشدًا

واحدة اعذلني امرها فكيف لو قت على اربع
ما معنى « قت » هنا ؟؟ (وأشار بيديه كأنه يريد القيام على
اربع) فقال الرجل قت اي نهضت ؟ قال الأصمعي وهل ينهض

(١) نزهة الأباء : ١٢٣

الأنسان على اربع ؟ ولكن معنى (قمت) هنا مأخوذ من قوله تعالى
 « الرجال قوامون على النساء » وفي البيت ، ان امرأة واحدة اتبغى امرها
 فكيف لو قمت على اربع نساء ؟ فعجب الحاضرون ، وضحك سعيد بن
 سلم وقال لا تعارضوه في الشعر ^(١) ومتى علمنا بأن هذا البيت
 من نظم الأصمعي نفسه وهو من ايات اولها

يا امة الله الا تسمعي ما قال عبد الملك الأصمعي
 واحدة اعضلي امرها فكيف لو قمت على اربع
 ادركتنا كيف كان يهبهي المعاني الصعبة ويدخرها لنفسه ليوقع بها
 مناظريه حرصاً منه على ان لا يغلب
 وما يشبه هذا قول اسحاق الموصلي دخلت على الأصمعي فأنسدته
 اياتاً قلت لها

هل الى ان تنام عيني سبيل ان عهدني بالنوم عهد طويل
 غاب عنني من لا أستئني فعيني كل يوم وجداً عليه تسيل
 ان ما قل منك يكثر عندي وكثير من تحب القليل
 فسألني عن صاحبها ، فقلت لأحد الأعراب ، فجعل يعجب بها
 ويردها ؟ قلت له اقول لك الحق ، ابها بنت ليتها فسكت ثم
 قال لا جرم فان اثر التوليد فيها يبين ؟ فقلت ولا جرم فان اثر الحسد
 فيك ظاهر ^(٢) ولم يكن ذلك - في الحقيقة - حسداً من الأصمعي
 ولكنه كره ان يغلب بمثل هذه الخدعة
 مع كل هذا يجب ان لا نعتقد بأن الأصمعي كان مكارياً لا يعترف

(١) السيرافي : ٦٣

(٢) طبقات الادباء : ج ٢ من ٢١٧ .

لأحد بفضل او تفوق عليه في اي شيء كان ، او انه لا يذعن للحق اذا كان بجانب غيره بل كان كفирه من العلماء يخليه ويصيّب ، ويغلب وينهزم ولكن شديد الحذر من الواقع في موارد ليس له منها مصادر ، واذا وقع في مأزق احسن التخلص منه بمهارة وحذق وسرعة بدبيه ، ولا يرضيه ان يكون مغلوباً ومنهزاً

ظرفه وخفة روحه

يقول الأصمعي « وصلت بالعلم ، وكسبت بالملح » (١) ، فهو - دون شك - من اطرف علماء عصره قاطبة ، واوفرهم ملحمة ، وآنسهم دعابة ، وادفهم حسماً ، واقواهم ملاحظة وبدبيه ، « ولم ير الناس في ذلك العهد احضر منه جواباً » (٢) .. وكان ظرفه فطرياً ، يتدقن خفة من روحه ، ويستمد رقة من ذوقه ، ويتغذى مادة من غزارة علمه وفيض ادبه ، ويكتسي رونقاً من نبرات صوته الموسيقية العذبة

ولكنه كان ظرفاً مقيداً محظوظاً الوقار المفروض في العلماء ، وبقيود النائم الموجودة عند الأنبياء ، فلا يشبهه مجون ولا زندقة ، ولا تمازجه بذلة ولا هجنة في القول ، مخالف ما اعتاد عليه ظراء ذلك العصر من انطلاق في الرأي ، وتحرر من كل مانع وما كانت طبيعة الأصمعي هادئة مسالة ، كان ظرفه على شاكلته ، فاذا تندر تحاشى جارح اللفظ ، واذا داعب تجنب اللاحاج والخصام ، واذا تحدث وزن حدبه بميزان واعطى لكل مقام مقالاً وهو مقابل ذلك لا يحتمل من احد العبث بشخصه ، ولا يصبر على المس بكرامته ، واذا ابتأي بن من يحاول ذلك منه اسرع اليه بدبيه وفاجأه

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧ - البيان والتبيين : ج ١ ص ١٧٣

(٢) الزهر : ج ٢ ص ٢٥١

باجوبته المكنته ، او اعرض عنه ، او اسحب بلباقة من مجلسه .
والمحالس عند الأصمعي ذات الوان تراه في بعضها لا يتكلم الا اذا سئل ، وفي البعض الآخر لا يتحدث الا بقدار ؟ اما اذا ضمه مجلس اجتماع فيه شمل اصحابه وانداده ومن تأنس به روحه ، انطلق يفرد فيه بملحنه ونواوره واسعاته ، وتنقل من فن الى فن ، يسحر جلاسه ويطرفهم ، كما يقول عنه ابو نواس « كان يأتي بالنادره في مناسبتها فوراً كأنها كانت تجول على شفتيه ، او كأنه هو الذي خلق تلك المناسبة ليرصعها بنادرته وتتدفق طرائف الأشعار وبدائع الحكم والأمثال في حديثه بدون تكلف كأنها كانت تدور في رأسه ، او كأنه يتكلم بقول أولئك الشعراء والقصاء اصحاب تلك الكلمات المؤثرة » هكذا عرفنا الأصمعي بعد نضج شخصيته ، واحتلاله المكانة المرموقة في مجتمعه ، ولم يكن كذلك في شبابه البرزق ولا في شيخوخته المتزهدة الورعة

عاش نيفاً وتسعين سنة : قضى ايام طفولته منها وباكورة شبابه في محيط شعبي فقير ، فاختلط ببناء مجتمعه كواحد منهم ، وساقه تحصيله ودراسته - كما رأينا - الى الاتصال بطبقات الناس من علماء وشعراء وتجار واعراب وسوقه ولصوص ومتسلين ومجانين وغير ذلك فكان عليه ان يكلم كلّاً منهم باللغة التي يفهمها ، والاصطلاحات التي يستخدمها ، والألفاظ التي يستعملها ؛ فحصل لديه بفضل ذلك ثروة لفظية شعبية دارجة غير اللغة الفصحى ، ودرائية باحوال السوق من الناس ، وخبرة بكل تلك الصور الاجتماعية المتناقضة

وقد رأينا في صباح وشبابه يستوقف الأعراب وغير الأعراب في الطرق ، ويجرهم الى الحديث معه لعل في حديثهم فائدة تستحق التدوين . ويعاكس

عقلاء المجنين في الأزقة ، ويصفي إلى شذوذهم الفكري ، ويجمع في الواحد ما يضحك من أقوالهم او يرشد ، غير عابٍ بما يلقاه منهم احياناً من اهانة او سباب ولم يترك جانباً من جوانب المجتمع البصري إلا مشى فيه ليجمع ما يعثر عليه من فكاهة طريفة ونكتة لاذعة وجواب ماجن ، ليعود به إلى زملائه من طرفاء المسلمين فيحدثهم به ويتندر معهم فيه ورأيناها اثناء ذلك يرتاد مجالس الشعراء والأدباء من الطرفاء ، التي يقدونها في اوقات معينة في داخل البصرة ، كمجلس « البردان » الذي يقيمه شيخ شعراء البصريين « بشار بن برد ، الأعمى » فيحضره كل ذي رغبة في الأدب من الناس وحتى النساء وفي هذا المجلس صورة واضحة للطرف والمجنون في ذلك العهد

فقد كان بشار هذا ظريفاً حاد النكتة عنيف الجواب سليط اللسان كثير الهجاء والمجنون ، لم يسلم أحد من اهل البصرة من شره ، وقد قيل « أسعد أهل البصرة من لا يعرف بشاراً ولا بشار يعرفه ، لأنه إن لم يصبه بهاله أصابه بعرضه » وكانت صلة الأصمعي به حسنة جداً لصداقة هذا الشاعر الكبير مع الباهليين بوجه عام ، ول مدحه ابناء « سلم ابن قيبة الباهلي » بوجه خاص فكان - في شبابه - يحضر هذا المجلس ويكثر من التردد إليه ، ويعجب بصاحبها ويروي اشعاره الرائعة ، ويفضلها على اشعار غيره من المعاصرين ؛ ويأنس بظرفه ونكتاته ، ويستشهد بأشعاره الرزينة الحكيمية كما كان يحتاج بها كبار العلماء وأساتذة المسجد ، ويطرأ لشعره في الغزل وابتكاراته فيه

وكان لبشار خصوم ألداء من الشعراء المجنين المهجانين امثال « حماد عجرد » و « أبي الشمقمق » و « اعشى باهله » وغيرهم وله في كل

هؤلاء كما هم فيه ألوان من أقذع وأبدأ ما قيل ويقال في المحباء ،
ومساجلات اضحكت اهل البصرة وشغلتهم زمناً طويلاً فكان الأصمعي
يحضر الكثير من تلك المقابلات والمساجلات ، وتتلذذ روحه الفتية في جو
ذلك المجلس المرح الطروب ، ويحفظ تلك الأوجبة الماجنة ويروي تلك
الأشعار المقدعة ويعلق احياناً عليها ، ولا يرى بأساً في التحدث بها واستعادتها
من أصحابها

وبقيت تلك الصداقة وطيدة بين الشاعر الكبير والأصمعي الشاب النابغ ،
 مليئة بال媧ة والأعجاب حتى اصطدم بشار - اخيراً - بالشاعر ابي هاشم
 الباهلي فهتجاه ، فأجابه ابو هاشم يقول
 وعبدني فقا عينيك في الرحم أيره فجئت ولم تعلم لعينيك فاقيا
 أملك يا بشار كانت غفيفة ؟؟ علي إذاً أمشي الى البيت حانيا
 فنقم بشار على الباهليين جميعاً فهجم بهم بأيات كثيرة ، يقول
 في بعضها

إذا أعيتك نسبة باهلي فرفع عنه حاشية الأزار
 على استاه سادتهم كتاب : موالي عامر طبعت بنار
 فلما سمع الأصمعي بهجاء بشار لقومه تألم وقال « ويلي على هذا
 العبد ، القن بن القن »^(١) ثم هجر مجلسه وجفاه ، ولم يجتمع به حتى
 قتل متهمًا بالزنقة في عهد الخليفة المهدى
 هكذا كان الأصمعي في بداية نشأته مع ما كان عليه من جد ونشاط
 في الدرس والتتبع - كما اسلفنا - ؛ فلما انشأ حلقة في مسجد البصرة ،
 ووصلت شخصيته العلمية ، صار يحترس من الوقوع في زلل الكلام ؛

(١) الأغاني : ج ٣ من ٤٩

فتشذبت روايته من البذاءة والاقذاع وهجنة القول ، وتحول نهجه في الطرف الى نوع آخر من النوادر والملح في الأدب الرفع ثم اتصال فيما بعد بيلات هارون الرشيد ، فتغيرت ظروفه وتقييد حريته في الكلام حكم الجو الجديد الذى غمره في « قصر الخلد » بغداد فلما عاد الى البصرة ثانية وقد وخطه الشيب ووعظه الأيام ، واستوى تفكيره ونضجت فلسفته وازداد تدينه ، قل نشاطه في الدعاية والنكتة ثم تورع اخيراً وترهد ، فلم يبق في صدره من جذوة المرح غير رقم ضئيل وعليه ، يجب ان ندرك بأن هنالك فرقاً واضحاً بين نهجه في الدعاية والرواية والتطرف اثناء صباح وشبابه ، يوم كان طليقاً حراً غير مسئول عن كلامه وآرائه ، وبين اسلوبه في ذلك بعد ان ظهرت شخصيته بين كبار علماء البصرة وأساتذة مسجدها ؛ وأنباء مجالسته للخلفية الرشيد ؟ وفي عهد الشيخوخة والزرع والزهد .

ولكن الكثير من مؤلفي كتب الأدب والنوادر نقلوا حكاياته وملحه وأقواله في المجالس جزاً ، دون تفريق بين ما كان قاله في صباح ونشاته وبين ما تحدث به ايام مجده العلمي وفي شيخوخته ؟ وخلطوا ذلك خلطًا ، غير ملتفتين قليلاً او كثيراً الى ذكر المناسبات والظروف التي تكلم فيها وراح بعضهم الى أبعد من ذلك في الخطأ ، فنسبوا مضموناته وعبته في حداثته مع المجانين والمتسولين والكناسين والخلعاء اليه في شيخوخته وأواخر عهده ؛ وربما زعموا انه قالها في مجالس هارون الرشيد وهي لا تصلح للرواية في مثل هذا المكان الجليل وبعضهم تناهى في كل ما نسب اليه من روايات مصنوعة منتحلة هو منها براء ، وفيها الركيك والسمنج والبذر الماجن ، والمغلوط من الناحية التاريخية ، والجريء على الدين ؟ فسببو بذلك ارتباكاً في واقع سيرته ، واظهروه للأجيال المتأخرة على

غير حقيقته

يقول في شبابه

- مررت ، وانا حدث السن ، بكناس يكنس كنيفاً وهو يغني ويقول :
اضاعوني واي فتي اضاعوا ل يوم كريهة وسداد ثغر
فقلت له : اما سداد الثغر فلا علم لنا كيف انت فيه ، واما سداد الكنيف
فلعلوم . فنظر الي حائفاً وقال

واكرم نفسى اننى ان اهتها وحقك لم تكرم على احد بعدى
فقلت واي كرامة حصلت لها منك ؟ وما يكون من الهوان اكثر
ما اهتها به ؟؟

قال بلى والله ، من الهوان ما هو اكثرا واعظم ما انا فيه . قلت
وما هو ؟؟

قال الحاجة اليك والى امثالك من السفلة ، ان سألكم قالوا :

« بورك فيك » .. فانصرفت وانا اخزى الناس (١)

- ويقول مررت بجبانة ، فرأيت امرأة عند قبر تبكي وتتشد
فن للسؤال ومن للنوال ومن للمقال ومن للخطب
ومن للحمة ومن للكماء اذا ما الكماء جثوا للركب
اذا قيل : مات (ابو مالك) فتي المكرمات قريع العرب
فقد مات عز بنى آدم وقد ظهر السكد بعد الطرب
فلت اليها ، وقلت لها يا امة الله ، من هذا الذي مات كل هؤلاء
الخلق بموته ؟؟ قالت او ما تعرفه ؟؟ قلت لا والله ؟ فاقبلات الي
ودمعتها تنحدر ، واذا هي مقاء برشاء ثرماء ، فقالت فديتك ، هذا « ابو

(١) غرات الأوراق : ج ١ ص ٦٥

مالك الحجام ، ختن أبي منصور الحائك » ، قلت عليك لعنة الله ،
والله ما ظنت الا انه سيد من سادات العرب (١)
ويقول ايضاً ضلت لي ابل ، فخرجت في طلبها ، وكان البرد
شديداً ، فالتجأت الى حي من احياء العرب ، واذا بجماعة يصلوون ،
وبقربهم شيخ ملتف بكساء رقيق وهو يرتعد من البرد ؛ فجلست بجانبه ،
وقلت له انشدنا قال

ايا رب ان البرد اصبح كالحـاـمـاـ وانت بحالـيـ ياـ المـهـيـ اعـلـمـ
فـاـنـ كـنـتـ يـوـمـاـ فيـ جـهـمـ مـدـخـلـيـ فـقـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـيـوـمـ طـابـتـ جـهـمـ
فـعـجـبـتـ مـنـ فـصـاحـتـهـ ، وـقـلـتـ لـهـ يـاـ شـيـخـ ، اـمـاـ تـسـتـحـيـ تـقـطـعـ الصـلـاـةـ
وـاـنـتـ شـيـخـ كـبـيرـ ؟؟ فـانـشـدـ

ايـطـمـعـ رـبـيـ انـ اـصـلـيـ عـارـيـاـ وـيـكـسوـ غـيـرـيـ كـسـوـةـ البرـدـ وـالـحـرـ
فـوـالـلـهـ لـاـ صـلـيـتـ مـاـ عـشـتـ عـارـيـاـ عـشـاءـ وـلـاـ وـقـتـ المـغـيـبـ وـلـاـ الـوـتـرـ
وـلـاـ الصـبـحـ الاـ يـوـمـ شـمـسـ دـفـيـةـ وـاـنـ غـيـمـتـ فـالـوـيلـ لـلـظـهـرـ وـالـعـصـرـ
فـاعـطـيـتـهـ ثـوـبـاـ كـانـ عـنـدـيـ ، فـقـامـ وـصـلـىـ (٢)

- وـحدـثـنـيـ اـعـرـابـيـ ، قـالـ مـاتـ رـجـلـ عـنـدـنـاـ ، فـادـمـنـتـ اـمـرـأـتـهـ الـبـكـاءـ
عـلـيـهـ لـيـلـاـ نـهـارـاـ ، حـتـىـ اـزـعـجـتـ بـنـيـهاـ ، فـقـالـ لـهـ اـحـدـهـمـ
اـتـقـدـدـيـنـ مـنـ اـيـنـاـ خـيـرـهـ ؟؟
اـتـذـكـرـيـنـ فـنـعـهـ وـضـرـهـ ؟؟
اـرـاكـ مـاـ تـبـكـيـنـ الاـ
فـأـمـسـكـتـ بـعـدـ ذـلـكـ عـنـ الـبـكـاءـ (٣)

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٢٠

(٢) المستظرف : ج ٢ ص ١٢٣

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٠٨

لا شك في أن الأصمعي روى - في شبابه - الشيء الكثير من الطرف والنواود والنكبات التي لا تخلو من العبث والمجون وكان الناس في زمانه بالبصرة قد بدأوا يطربون من هذا ، وفتتحت نقوسهم له ، واستقبلوا استقبالاً حسناً أمثال « بشار بن برد » و « أبي نواس » و « حماد عجرد » وغيرهم ، وهم ما هم في قول الفحش في صراحة من غير إيماء كما أنت لا تذكر صحة القول « بأن الأدب العربي - من عهده في الجاهلية - أدب مكشوف ، فتقراً في ثنايا الشعر ابياتاً صريحة من غير كنایة ، وحتى بعض الخلفاء افسسهم لم يكن جلساً لهم يتصرعون من القاء الكلام على عواهنه ^(١) ». ولكن دراستنا وبحثنا في سيرة الأصمعي يجعلنا نعتقد بأنه لم يسترسل ، بعد حداثته ، في هذا اللون الفاحش من الطائف والملاح لما عرف به من وقار وتدين يمنعه إلا من الطرف الرزين والملاح والنواود البريئة

تدينه وصدق لهجته

ولد الأصمعي في بيت يمارس شعائر الدين الإسلامي ويؤدي فرائضه وسننه على الوجه الآثم ؛ ودرس في « الكتاب » عند معلم مؤمن تقى يعلم طلابه الصغار قواعد الإسلام ؛ ولازم بعد ذلك أستاذة من كبار شيوخ المسجد مشهوداً لهم بصحة العقيدة ؛ فنشأ تقىاً صحيحاً الدين متمسكاً به متبعاً بالدقة اوامرها ونواهيه ؛ فلم ينحرف نحو المجون على كثرة المجان في أيامه ، ولم يتأثر بأراء الزنادقة من جالسهم في شبابه من الأدباء والشعراء الذين كان يقول فيهم « تزندق هؤلاء القوم لجهلهم باللغة العربية ، ولو كانوا مطلعين على خفايا اللغة لفهموا حقيقة القرآن والحديث ، ولما اعتراهم

(١) انظر مقدمة الأستاذ احمد امين لكتاب « البصائر والذخائر » لأبي حيان التوحيدى .

الشك في الدين « (١) »

وكان على مذهب اهل السنة والجماعة - كما قلنا - وهو مذهب اسرته واهل بيته وكبار اساتذته الذين لازم حلقاتهم طويلاً ايام دراسته وتحصيله .. يقول احد معاصريه « اهل العربية كلهم اصحاب اهواء ، الا اربعة ، فانهم كانوا اصحاب سنة وهم ابو عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وعبد الملك الأصمي (٢) »

لم يمل الى مذهب انطواج لما كان يرى فيه من غلو زائد وتطرف وانحراف عن سن الدين ولم يقل برأي العزيلة لأنه كان يكره طريقة اهل الرأي منهم ، ولا يقبل العمل بالقياس الذي يستندون عليه في اجتهداتهم وتأويمهم ، كما لا يحب المناقشة في اصول الدين والخوض في فلسفتها والاستنتاج فيها كما يفعل علماء الكلام (٢) وكان يحترم آل البيت ويجدهم لقربتهم من الرسول الاعظم وايكنه لا يرى رأي الشيعة فيهم وهو كغيره من العلماء ينقد المذاهب الأخرى ويدافع عن مذهبة ، فاتهمه بعض اصحاب تلك المذاهب بما ليس فيه

وفي الروايات المتواترة ، انه كان - رغم اتقانه اللغة - لا يفسر شيئاً من القرآن خوف الوقوع في الخطأ وتجنبه للأثم من ذلك ؟ فكان اذا سئل عن شيء من هذا قال « العرب تقول معنى هذا كذلك ، ولا اعلم المراد منه في كتاب الله اي شيء هو » (٤) ، واذا مر به اثناء حديثه او محاضراته في اللغة نص مشابه لبعض نصوص القرآن امسك وعدل عن

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢١٧

(٢) كتاب المعرف : ١٨٤

(٣) ضحي الاسلام : ج ٢ ص ٢٧٩

(٤) ابن خلkan : ج ٢ ص ٣٤٦ .

تفسيره ولا يبحث في شيء عن الأنواء والنجوم ، ويقول « سمعت ان النبي عليه السلام قال إذا ذكرت النجوم فأمسكوا »^(١) ولم يرو شيئاً في الأساطير لوجود ذكرها في القرآن وكان في اواخر ايامه قد تورع وترهد ، وصار لا يشرب بآنية الفضة لاعتقاده بأن ذلك منهي عنه وكان - مع قوة حافظته - لا يروي إلا اليسير الثابت من الأحاديث ولم يفسرها ايضاً قيل انه سئل مرة عن معنى جملة من حديث فقال « أنا لا افسر حديث رسول الله ، ولكن العرب تقول كذا في معنى هذا الذي تريدون تفسيره »^(٢) وفي مرة ، فسر معنى حديث غريب ، ثم رجع نادماً يلوم نفسه على ما فعل ، فقال له احد الحالين « لا عليك فقد سمعت بهذا المعنى من غيرك » فسرى عنه..^(٣) وقد قال ابو الطيب اللغوی « كان الأصمي شديد التاله ، لا يفسر القرآن ولا الحديث ، تحرجاً ». ^(٤)

وقد اجمع الرواة في سيرته على انه كان لا يفسر شرعاً فيه هجاء ، لأنه يرى الهجاء قذفاً بالأبراء وشتماً لهم بدافع الغيط والحقد فلا يريد الاشتراك مع القاذف الشاتم بالأثم والخطيئة ^(٥) ويرى ايضاً بأن في شعر الهجاء العربي القديم ثلباً وطعناً موجهاً الى قبيلة او جماعة او شخص عربي ، وفي هذا ملا يشرف عنصره وقوميته امام الشعوبين الذين يبحثون عن عيوب العرب ومثالبهم ليدونوها في كتبهم تشفياً وانتقاماً

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٠٧

(٢) المتنقى : ٣٢ .

(٣) السيرافي : ٦٠

(٤) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١

(٥) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١

وهنا يجب ان نفرق بين تفسير شعر الهجاء وبين روايته فالأصمعي كان يحجم عن تفسير اي هجاء ولو كان موجهاً ضد الشعوبين افسهم تحرجاً من الأثم - كما قلنا - ؛ واما في روايته فالامر مختلف عنده باختلاف ادوار حياته رأينا في شبابه يجمع شعر الهجاء والمحون ويرويه للتطرف والتندر بين جلاسه وفي خصوماته مع الشعوبين وغيرهم ، غير ملتفت الى مانع اجتماعي او رادع في العقيدة ما دام ذلك الشعر من نظم غيره ، سيراً على قاعدة « ناقل الكفر ليس بكافر » حتى اذا ظهر في مجتمعه واشتبك بمجد مع الشعوبين ، وتزعم فكرة الدفاع عن القومية العربية ضدهم ، احجم عن رواية كل ما يقع من شعر قديم يستهدف هجاء جماعة او احد من العرب ايًّا كان ؛ وربما عمل على اتلافه لكي لا يقع في ايدي هؤلاء الخصوم ، مكتفياً بتردید او رواية ما يقال في هجاء الشعوبين وعنصرهم فقط

اما ما كان متداولاً معرفاً عند الناس من شعر الهجاء القديم ، فكان لا يروي منه الا البيت او البيتين في سبيل فائدة علمية او ادبية او تاريخية ، ولا يرى في ذلك بأساً لأنه لم يأت بمحدث في هذا الباب كقوله مثلاً حين سُئل عن الشاعرين « جرير » و « الأخطل » ايها اهجى ؟؟ قال : الأخطل اهجى من جرير بقوله

قوم اذا استبح الأصياف كلبهم قالوا لأهم بولي على النار
ولكن جريراً اسير شرعاً منه ، لانه حين قال
والتغليبي اذا تنحرسح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
لم يبق سقاء ولا امة إلا روتة (١)

(١) العمدة : ج ٢ ص ١٤٧

وعندما تقدمت مكانته العلمية ورمتته الأنوار كأستاذ من أستاذة المسجد
صار يتعد جهد المستطاع عن رواية شعر الهجاء ولو كان في خصومه واعدائه ..
ثم امتنع بعد ذلك عن رواية كل هجاء حين ادرك الشيغوخة وازداد ورعة .
والقصد بالهجاء هنا هو ما كان موجهاً من الطعن والثاب ضد شخص او
جماعة معينة وكذلك كان حاله في شعر المجنون وكل ما فيه تبذل يخرج
عن حدود الوقار العلمي والخلق الديني

وصار ايضاً لا يحيب على سؤال قد يكون في الجواب عليه اساءة الى
احد او حط من قيمة الغير سواء كان من العلماء والأدباء ام من غيرهم ،
ويقول « ان في بعض الأجرة شهادة » واذا اجاب اجاب بعد علم
ويقين ، متوكلاً الصدق والحقيقة ؛ لذلك راه ، في بعض مقارناته بين
الشعراء مثلاً ، لا يبالي ان يفضل خصماً له من الشعوبين على صديق له
من العرب ، ما دام ذلك في سبيل الشهادة قيل له مرة من اشعر
اهل زمانك ؟؟ قال ابو نواس اشعرهم بقوله كذا وكذا ، وذكر شيئاً
من غدر شعره ، مع العلم بأن هذا الشاعر كان من الد خصومه والشبعين
عليه ومن هجاه واقذع في هجائه (١) وسئل ايضاً : ايها اشعر من الآخر
« بشار بن برد » ام « مروان بن ابي حفصة » ؟ قال « بشار اشعر
من صاحبه » ، قيل وكيف ذلك ؟ قال « لأن مرواناً سلك طريقاً كثراً
من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه ، وشاركه فيه من كان في عصره ؛ واما بشار
فقد سلك طريقاً لم يسلك ، واحسن فيه وتفرد به ، وهو اكثر تصرفًا وفنون

(١) العمدة : ج ٢ ص ١٤٨

شعر ، واغزر واوسع بديعاً ، ومروان لم يتتجاوز الأوائل ». وكل ما وصلنا من اخباره في الكتب القديمة الرزينة ، والحوادث التي رويت عنه يدل على انه كان دينناً صحيح العقيدة كامل الأيمان في صومه وصلاته وقد حج مراراً عديدة في شبابه وكهولته وشيخوخته واتصل بفقراء الحجاز ومحدثيهم ورهادهم واخذ عن بعضهم وصادقهم ومن كانت هذه حاله يكون صادقاً حتاً في لحنته وروايته ، لا يكذب فيها ولا يضيف من عنده عليها

لقد شهد بصدقه عدد من كبار رجال الدين الذين عاصروه ، وسمعوا منه وأخذوا عنه فقال الإمام الشافعي « محمد بن ادريس » « ما رأيت بذلك العسكر اصدق من الأصمعي »^(١) وكان الإمام « احمد بن حنبل » يشني عليه ويعده ثقة^(٢) ويقول « يحيى بن معين » وهو من كبار المحدثين الاتقياء « لا نعلم ان الأصمعي كان يرفع الا احاديث يسيرة ، وصدقها في غير ذلك من احاديثه »^(٣) ويقول يحيى بن معين ايضاً : سمعت الأصمعي يقول « سمع مني مالك بن انس » ، ويقول كذلك « قد روى مالك بن انس عن شيخ يقال له عبد الملك بن قريب »^(٤) وقد ايد هذه الشهادات الواردة من أئمة معاصريه ، عدد كبير ايضاً من العلماء الذين جاؤوا بعد عصره وكتبوا عنه يقول ابو الطيب اللغوي : « لمير الناس أحضر جواباً ، وأتقن لما يحفظ وأصدق لهجة من الأصمعي اما ما يحكي العوام وسقط الناس من نوادر الأعراب ، ويقولون هذا ما

(١) نزهة الأولاء : ١٧٢

(٢) نزهة الأولاء : ١٧١

(٣) السيرافي : ٦٧ — طبقات النعجة : ٣١٣

(٤) المتنقى : ٢٧

اختلافه الأصمعي ؟ او يقولون ان رجلاً رأى عبد الرحمن بن أخيه فقال : ما فعل عمك ؟ قال قaud في الشمس يكذب على الأعراب ؟ فهذا باطل . وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ، ولو لا عمه لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ وكيف يكذب عمه وهو لا يروي الا عنه ؟ وان يكون الأصمعي كذلك وهو لا يفتي الا فيما اجمع عليه العلماء ، ويقف بما ينفردون عنه ، ولا يحيي الا افصح اللغات ، ويلمح في دفع ما سواه ؟^(١) . وقال عنه ابن معن « لم يكن من يكذب ^(٢) » واكبر شاهد على صدقه في روایاته ، ان كبار مشيخة قراءة القرآن كانوا يحضرون حلقاته وياخذون عنه قراءة نافع وابي عمرو بن العلاء ، ولو شكوا في صدقه لتحاشوه وابتعدوا عنه ؟ كما ان معظم علماء اللغة والنحو والأدب اخذوا - بعد موته - من آثاره اكثراً مما اقتبسوا من آثار غيره لاعتمادهم على صدقه وحسن اختياره وتضييق دائرة اخذه

وكذلك كان صادقاً في روایته لشعر القديم ، ولم ينح في ذلك منحى بعض رواة الأدب في عصره امثال « خلف الأحر » و « حماد بن ميسرة » المعروف بحماد الرواية وغيرها من الذين يحسنون نظم الشعر ويحيدون تقليد الشعراء الأقدمين بأساليبهم فينظمون من عندهم وينسبون ما ينظمونه الى فحول الشعراء السابقين ترويحاً لرواياتهم وكان الذي يمنع الأصمعي عن مثل هذا صدقه وتدينه اولاً ، ثم انه كان ينظم الشعر ولكنه لا يحيده الى درجة يقلد فيها اولئك الشعراء الكبار الذين روى اشعارهم
واما الشائع المغلوط بين الناس في ان الأصمعي كان يزيد في اشعاره

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١

(٢) كتاب المعارف : ١٨٤

السلف ، ويختلق الروايات الكاذبة على التاريخ ، ويكتذب على الأعراب ،
إلى غير ذلك ؟ فله أسباب كثيرة منها ما كان يشيعه خصومه عليه من
الشعوبين وغيرهم ، ومنها كثرة ما نسب إليه من الروايات مما لم يقله ولم
يعرف به وهذه سيرته تدل على أنه كان من اصدق الرواة في اللغة
والأدب والشعر والأخبار ، إلا في نوادره عن الأعراب فكان يشتمها
بأسلوب خاص يودع فيها مالديه من حكم وعبر ومواعظ ، ولا يرى في
ذلك ما يضيره لأنه اتاج أدبي مستقل سنبحث عنه بالتفصيل في مكان آخر

القسم الثالث

مَكَانُتُهُ الْعِلْمِيَّةُ

١ — حلقة في مسجد البصرة

٢ — علومه ، ومذاهبه فيها :

في اللغة والنحو

في الأدب والشعر

في الأخبار والأنساب وغيرها

في اللغة الفارسية

حلقة في مسجد البصرة

جاء في بعض المصادر « ان مشيخة القراء كانوا يحضرن الأصمعي ، رغم حداثته ، لأخذ قراءة نافع وابي عمرو بن العلاء عنه » (١) من هذا فهم بأنه كان قد شيد حلقه في المسجد الجامع في سن مبكرة « في حداثته » ؟ ولكن احداً من مؤرخي السير لم يخبرنا - بالدقة - متى كان ذلك

وقد بقيت هذه الناحية من تاريخ حياته محبوكة عندنا فإذا اردنا ان نقدر ذلك على وجه التقريب ، وجب علينا ان نلتفت قليلاً الى صلة الأصمعي الوطيدة بأستاذه الجليل « ابي عمرو بن العلاء » الذي روى عنه قراءته القرآن بعد وفاته هنالك نجد من يخبرنا بأن عدداً من طلاب هذا الشيخ الذين لازموه طويلاً ، اقاموا حلقاتهم بعد وفاته سنة (١٥٤ هـ) (٢) فلا يستبعد أن يكون الأصمعي أحدهم ، فيكون عمره - اذ ذاك - قد ناهز الثلاثين عاماً ؛ وهي سن كافية لتأهيله لهذا المنصب العلمي بعد تلك الكفاءة النادرة والغزاراة في العلم والأدب ، كما رأينا والذي علمناه من سير الحوادث ، انه أعطى حلقة هذه ساعات قليلة معينة في الأسبوع ، منصرفًا فيما يتبقى من Woche الى أكمل دراسته وتحصيله ، مستمراً في خطنه الأولى في البحث عن القوائد الفكرية وجمعها من حلقات كبار شيوخ المسجد ، وعند الأعراب في منازلهم القرية ، وفي سوق المربد ، وفي البوادي النائية عند سنوح الفرس فهو استاذ وتلميذ في وقت معًا ، سيراً على القاعدة المتبعة عند علماء ذلك العهد

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٦١

(٢) ابن خلkan : ج ٥ ص ٢٣١

وقد رأينا ، في الأيام الأولى من بدء حلقته ، حريصاً كل الحرص على اظهار كفاءته وجدارته بمنصبه العلمي الجديد ، شأن كل استاذ مبتدئ ، يقف أمام الناس هذا الموقف الدقيق ، حيث يسأل عما يقوله صغيراً كان أم كبيراً وكأننا به امام طلابه سامعيه ، يلتقي عليهم اوثق ما جمع في الواحه ودفاتره ، وأجمل ما ادخر في ذاكرته من لغة فصيحة وقاعدة محوية مجمع عليها ، وشعر غريب طريف ، وتنف أدبية نادرة ، مستعيناً بين الفينة والفينية بآراء كبار شيوخه الذين درس عليهم ، وبأقوال فصحاء الأعراب المشهورين ، مستشهدًا بأمتن ما جمع فأوعى من الشعر الجاهلي القديم بأسلوب شيق ، وبيان واضح ، ولهمجة عذبة ؛ حتى اسع نطاق حلقته ، وكثير طلابها ومرتادوها ، ولما يمض على اشائتها ، بعد ، زمن طويل ولم يسر في ادارة حلقته كما كان يفعل في مجتمعه وبين زملائه من المسجدين الظرفاء حيث تنطلق التوادر والملح والنكات بغير قيد ولا حذر ولا حساب ؟ كما انه لم يتصنع التزتم والتجلد والاتقاض في إلقاء حديثه ولكنه اخذ الطريق الأوسط بين زملائه شيخوخ المسجد ، جامعاً بين وقار العلم وجلاله وخفة الروح ورقة الطبع فكان ناجحاً في ذلك كل النجاح ، فأحبه طلابه ولازموه بشوق ورغبة ، غير شاعرين بسؤام من جفاف اللغة ولا بكلل من قواعد النحو او شرح الغريب في معاني الشعر ، او غير ذلك

فكان اذا توغل في بحث من محوته العلمية او الأدبية وشعر بشيء من الملل عند ساميده ، اتحفهم بنادرة غريبة لها صلة بالبحث ، او بشعر جزل دقيق يأتي به على طريق الاستشهاد ، او برواية طريقة تضحك من حوله وتجدد لهم نشاطهم ، ثم يعود بهم الى إتمام بحثه وهكذا كان الذي

يحضر مجلسه يشعر بأنه امام دنيا واسعة الآفاق في غزارة المادة وصواب
النقد والتحليل وصحة التخريج ، وأمام « بلبل يطربهم بنعاته » ويتنتقل
بهم من روض الى روض في طرائفه وخفة روحه ، وأمام مصدر يفيض
عليهم كل آونة بجديد من الفائدة لوفرة حفظه واستمراره التواصل في البحث
عن الفوائد العلمية والأدبية الجديدة التي عرف مكامنها وأتقن وسائل
جمعها واقتانها

قيل انه كان يحافظ على أوقاته في حلقاته ، فيلقي دروسه ومحاضراته ؛
حتى إذا انتهى من ذلك حمل ألواحه ، وراح يتنتقل في حلقات زملائه
وأساتذته من كبار شيوخ المسجد ، ويجلس عندهم حيث ينتهي به المجلس ،
ويصفي الى أقوالهم وحججهم وبيناتهم ، ويدون كل مفيد غريب عليه
كما يفعل الطلاب أنفسهم ، فإذا وجد هناك ما لا يتفق ورأيه ناقش فيه
وناظر حتى يقنع أو يقنعه وربما اجل المناقشة في مسألة من المسائل التي
وجدها عند غيره حتى يعود الى حلقاته ، فيبحثها على طريقته ويعلن رأيه
فيها دون التعرض بشخص من خالقه في ذلك وقد يصل رأيه هذا الى
من عارضه من الأساتذة المذكورين ، فيجتمع الطرفان ويتبادلان وجهات
النظر والحجج والأدلة امام الطلاب والسامعين ، فتعم الفائدة على الجميع^(١)
جلس مرة في حلقة أستاذة القديم « شعبة بن الحجاج » يصفي الى
شرحه لقصيدة الشاعر « فروة بن سيميك » حتى وصل الى قوله
فاجبنوا أنا نشيد عليهم ولكن رأوا ناراً (تحش) وتسع
قرأها شعبة (تحس) بالسين ، وخالقه الأصمي فقال أنا هي

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤ - في اخبار الأصمي كثير من الناقشات التي كان يشيرها مع
الأساتذة الآخرين في داخل المسجد امام الطلاب . وهو كعادته لم يعارض في مسألة إلا
إذا كان وافقاً من علمه بها وصحة رأيه فيها .

(نحش) بالشين ، فقال شعبة هكذا أخذناها عن شيوخنا ، قال الأصمعي اذا جاءت بالشين كما تقول افادت معنى القتل ، واذا جاءت بالشين أفادت معنى الوقود وهو الأصح لمعنى البيت وجاء بالأدلة الكثيرة والحجج القوية ، فاقتبس شعبة بذلك ، وقال له « لو فرغت للزمالك » (١) أي لو كان في وقتني متسع للزمالك حلقتك ودرست عليك

وجيء للأصمعي يوماً بكتاب لأبي عبيدة يفسر فيه بعض آيات القرآن ، فأخذه وتصفحه ، ثم طواه غاضباً وقال « ما لابن الصباغ ، يفسر كتاب الله برأيه ومن أين علم أن الريب هو الشك ، في قوله تعالى ذلك الكتاب لا ريب فيه !! » فسمع أبو عبيدة قوله هذا ، فسأل عن مجلسه في أي يوم هو ؟ وركب حماره في ذلك اليوم ، ومر محلقته فنزل وسلم عليه ، وجلس عنده وحادثه ، ثم قال له يا إبا سعيد ، ما تقول في الخبز ، أي شيء هو !! قال الذي تخربه وتأكله قال أبو عبيدة قد فسرت كتاب الله تعالى برأيك ، فإن الله تعالى يقول « وقال الآخر أريني أحمل فوق رأسي خبراً تأكل الطير منه » قال الأصمعي هذا شيء بان لي فقلته ولم افسر كتاب الله برأيي ؟ فقال أبو عبيدة والذي تعيب علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا .. ثم قام وركب حماره (٢)

ومن أخطر المناقشات التي حدثت له ، فأحدثت دويًا كبيرًا في الأوساط العلمية بالبصرة هي تلك التي جرت بينه وبين « سيبويه » النحوي المشهور وقد حدثنا الأصمعي نفسه عن هذه المناقشة فقال : عرض

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٣٢

(٢) ابن خلكان : ج ٤ ص ٠٢٣٧

عليه شيء من الأبيات التي وضعها سيبويه في كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسر ، فبلغ ذلك سيبويه فشق عليه وقال لا تأقشنه إلا في المسجد الجامع فصليت يوماً في المسجد ، واردت الخروج فتلقاني ، وقال لي اجلس يا أبا سعيد فجلست واجتمع حولنا من كان في المسجد ، وتناظرنا فقال ما الذي انكرت من بيت كذا وكذا ؟؟ ولم فسرت على خلاف ما يجب ؟ قلت له ما فسرت إلا على ما يجب ، والذي فسرته أنت ووضعته في كتابك خطأ ، وما لك إلا أن تسلئي فأجيب وصرنا نتجادل بصوت عالٍ ، فسمع العامة فصاحتي ونظروا إلى لكتته ، فلأوا إلى جانبي ، وصادروا يريدون ان اغلبه ، وأظهروا شعورهم بذلك وبعد نقاش طويل ، نهض سيبويه وقال لي : «إذا علمت يا أصمي ما نزل بك مني ، لم التفت إلى قول هؤلاء » ثم نفض يديه ومضى ^(١)

وقد تناقل طلاب العلم أخبار هذه المعاشرة بين هذين النابغين ، وسألوا أساتذتهم في أيهما الحق برأيه ، فقال يونس بن حبيب النحوي «الحق مع سيبويه ولكن الأصمي غلبه بمسانده» ^(٢)

ولم يكتف الأصمي بجمع الفوائد من مصادرها ، واعطائها منقحة مصححة لطلابه الذين يلزمون حلقته ، بل كان يشجعهم على اكتفاء أمره في ذلك والعمل بمشله ، ويرشدهم إلى الطرق التي يسلكونها والموارد التي يردونها ، فيذهبون كما يذهب هو إلى المربد والبادية ويعودون وفي أواههم شيء مما جمعوه ، فيعرضونه عليه ، فیناقشه معهم ويصححه لهم ، ويظهر

(١) معجم الأدباء : ج ١٦ ص ١٢٥ .

(٢) بغية الوعاة : ٣١٣

اخطاءهم فيه بمقارنته بما عنده من آراء شيوخه وما كان قد عثر عليه عند علماء الأعراب وفصحائهم وربما أوعز الى هؤلاء الطلاب ان يعرضوا بعض فوائدتهم هذه على غيره من شيوخ المسجد الآخرين ليرى رأيهم فيه ^(١) والجدير بالذكر ايضاً ، ان فترات من المرح والدعابة كانت تمر احياناً حلقة الأصمعي فتتقلب - رغم ما يسودها من جو علمي وقول - الى مهرجان ادبي طريف مشحون بالنكات والملح والنواذر التي يتبادلها الطالب بينهم ، أو مع الأعراب الظرفاء الذين يقدون الى المسجد عمداً لمقابلة الأصمعي ، الذي اشتهر عندهم برواية الشعر وتقسيمه ، ولأنشاده ما عندهم من الأدب والغريب ، وسباع رأيه في ذلك وكان بين طلابه عدد من المسجديين الظرفاء الذين عرموا بسرعة البدائية وحبك النكتة ، امثال « عمرو بن محر الجاحظ » و « العباس بن رسم » و « محمد بن القاسم » المكنى بأبي العيناء الضرير ، وكان من أحضر الناس جواباً وأبرעם دعابة وفيه يقول ابن خلkan « انه كان من ظرفاء العالم » ^(٢) وغير هؤلاء من سنتحدث عنهم في مكان آخر

وقيل ان احد الجالسين في حلقة الأصمعي ، قرأ عليه اياتاً للنابعة الذبياني فلما وصل الى قوله

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقضيه بطيء الكواكب

صحفه فقرأه على الشكل التالي « كليني لهم يا أميمة باشت » فانفجر السامعون بالضحك ، وضحك الأصمعي معهم ايضاً ، ثم التفت اليه وقال له « يا هذا ، اما علمت ان كل ناجمة الأذنين تحيس ،

(١) نزهة الأنبلاء : ١٤٨

(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ٤٦٦

وكل سقاء الأذنين تبكيض ؟؟ » فزاد الحاضرون بالضحك ، وكتبوا كلام الأصمعي لما فيه من دعابة ونكتة وفائدة ؛ وقد قال أحد الحاضرين « لم أر تصحيفاً أجلب للفائدة منه » (١)

وروى أحدهم أيضاً فقال وقف علينا غلام من بني أسد ، رث الأطمار لا يدل مظهره على ذكاء او علم ؟ ثم سلم وجلس ، فسألته الأصمعي عن اسمه ؟؟ قال « حريقيص » ، قال الأصمعي ، اما كفى أهلك اس يسموك حرقوصاً - وهو اسم لحشرة كالبرغوث - حتى حقرروا اسمك وصغروه ؟ قال الغلام « ان السقط ليحرق الحرجة » ، فعجب الأصمعي من جوابه ، وقال له انشدنا شيئاً من أشعار قومك ؟؟ قال نعم ، انشدك قول « موار الأسيدي » ثم اشد

سكنوا شَيْئاً وَأَحْصَنْ وَاصْبِحُوا نَزَلت مَنَازِلَهُمْ بَنُو ذِيَّان
وَإِذَا يَقُولُ اتِيمٌ ، لَمْ يَرْجُوا حَتَّى تَقِيمَ الْخَيلُ سُوقُ طَعَان
وَإِذَا فَلَانَ مَاتَ عَنْ أَكْرَوْمَةَ رَقَعُوا مَعَاوِزَ قَفَرَهُ بَفَلَار
فَطَرَبَ الأَصْمَعِي لِأَنْشَادِهِ وَكَادَتْ تَسُونُ بِهِ الْأَرْضَ ثُمَّ قَالَ : أَكْتُبُوهُ
وَقَالَ أَحَدُ دَلَابِهِ إِيْضًا كَمَا فِي الْحَلْقَةِ ، فَأَقْبَلَ أَعْرَابِيَّ يَرْفَلُ بِالْخَرْزُوزِ ،
فَقَالَ إِنْ عَمِيدَكُمْ ؟؟ فَأَشْرَنَا إِلَى الأَصْمَعِيِّ ، فَسَأَلَهُ مَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ
لَا مَالَ إِلَّا العَطَافُ تَوْزِرُهُ أَمُّ التَّلَاثِينَ وَابْنَةُ الْجَبَلِ
لَا يَرْتَقِي النَّزَ في ذَلَذَلَهُ وَلَا يُعْدِي نَعْلِيهِ عَنْ بَلَلِ
فَضَحَكَ الأَصْمَعِيُّ ، وَأَجَابَهُ
عَصْرَتَهُ نَطْفَةٌ تَضَمِنُهَا لَصْبٌ تَلَقَّى مَوْاقِعَ السُّبْلِ
أَوْ وَجْهَةٌ مِنْ جَنَّةِ اشْكَلَةٍ اَنْ لَمْ يَرْغُبْهَا بِالْقَوْسِ لَمْ تَنْلِ

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٦٥

فأدبر الأعرابي وهو يقول « تالله ما رأيت كاليوم عضلة » فلما ذهب ، التفت الأصمعي علينا وقال هذه قصيدة لشاعر من بني كلاب ، يصف بها رجلاً خائفاً جاؤه إلى جبل وليس معه غير سيفه وقوسه وكنافة فيها ثلاثون سهماً ثم قرأ علينا القصيدة كلها ، وفسرها (١)

وروى أبو نصر « احمد بن حاتم الباهلي » قال كنا في حلقة الأصمعي ، فوقف بنا اعرابي فسلم ، ثم قال ايكم الأصمعي ؟ فقال : أنا ذاك ، قال أتاذنون بالجلوس ؟؟ فأذنا له ، وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء ادب الأعراب ، فقال يا أصمعي ، انت الذي يزعم هؤلاء النفر انك اتقهم معرفة بالشعر والعربيه وحكايات الأعراب ؟؟ قال الأصمعي فيهم من هو أعلم مني ومن هو دوني قال أفلأ تنشدني من بعض شعر اهل الحضر حتى اقتدي على شعاء أصحابنا !! فأنشده الأصمعي شرعاً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك

أنسلم انت البحر إن جاء وارد وليث إذا ما الحرب طار عقابها
 وأنت كسيف الهند وإنني ان غدت حوادث من حرب يعب عباها
 وما خلقت أكرونة في أمرىء له ولا غاية إلا إليك مأبها
 كأنك ديار عليها موكل بها وعلى كفيك يجري حسابها
 إليك رحلنا العيس اذ لم بجد لها أخا ثقة يرجى لديه ثوابها
 فتبسم الأعرابي وهز رأسه ، فظننا ادا ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم
 قال يا أصمعي هذا شعر مهلهل خلق التسيج ، خطوه أكثر من صوابه ،
 يعطي عيوبه حسن الروي ورواية المنشد ، يشبهون المدوح بالأسد الآخر
 الشيم المنظر ، والذى ربما طرده شرذمة امائنا وتلاعب به صبيانا ؟

(١) امالى القالى : ج ٢ ص ٠٢٦٥

ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبـه ، مر على من شربـه ؟
وبالسيف والسيف ربما خار في الحقيقة وربما عند الضربة ألا
أنشدتني كما قال صبي من حينا ؟؟ قال الأصمعي وماذا قال صبيك ؟؟
فأناشد

إذا سألت الورى عن كل مكرمة لم يعز اكرمها الا الى « المول »
فتى جواد أذاب المال نائله فالليل يشكر منه كثرة النيل
الموت يكره اب يلقى منيته في كرّة عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفة او زاحم الصُّم أجاها الى الميل
amp; من النجم ان نابتـه نائبة وعند اعدائه أجرى من السيل
لا يستريح الى الدنيا وزينتها ولا تراه اليها ساحب الذيل
يقصر الجد عنه في مكارمه كما يقصر عن أفعاله قوله
قال ابو نصر فآبئتنا والله ما سمعنا من قوله فتأنـي الاعرابي ، ثم
قال يا أصمعي ، ألا تنشدني شـعراً ترـاح اليـه النفس ، ويـسكن اليـه
القلب ؟؟ فأـنشـدـه لـعـدي بـن الرـقـاع

ونـاعـمة تـجلـو بـعـود اـرـاكـة مؤـشـرة يـسـيـ العـانـق طـيـبـها
كـأـرـ بـهـا خـرـاً بـاءـ غـامـمة اذا اـرـشـفت بـعـد الرـقاد غـرـوـبـها
ارـاكـ الى بـجـدـ تـحـنـ وـانـما منـيـ كلـ فـسـ حـيـثـ حلـ حـيـبـها
فـبـسـمـ الـاعـرابـيـ ، وـقـالـ يا اـصـمعـيـ ، ما هـذـا بـدـونـ الـأـوـلـ وـلـاـ فـوقـهـ ؟
اـلـأـنـشـدـتـنـيـ كـاـ قـلـتـ ؟ـ قـالـ وـمـاـ قـلـتــ ، جـعـلـتـ فـدـاكـ ؟ـ فـأـنـشـدـ
تعلـقـتـهاـ بـكـراًـ وـعـلـقـتـ جـبـهاـ قـلـبـيـ عنـ كـلـ الـورـىـ فـارـغـ بـكـرـ
اـذـاـ اـحـجـبـتـ لـمـ يـكـفـكـ الـبـدرـ ضـوءـهـ وـتـكـفـيـكـ ضـوءـهـ الـبـدرـ
وـمـاـ الصـبـرـعـنـهاـ اـنـ صـبـرـتـ وـجـدـتـهـ جـمـيـلاًـ وـهـلـ فـيـ مـثـلـهـ يـمـسـ الصـبـرـ

وحسبك من خر يفوتك ريقها ووالله ما من ريقها حسيك الخمر
 ولو ابر جلد الدر لامس جلدتها لكان للمس الدر من جلدتها اثر
 فالتفت الاصمي الى اصحابه ، وقال اكتبوا ما سمعتم ولو باطراف
 المدى في رقاق الاكباد وقام الاعرابي عندنا شهراً ، وجمع له الاصمي
 شيئاً من المال ؛ وكان يتعاهدنا في الحين بعد الحين حتى مات الاصمي
 وتفرق اصحابنا (١)

علومه ، ومذاهبه فيها

يقول ابو الطيب اللغوي « كان في العصر العباسي الأول ثلاثة
 هم أئمة الناس في اللغة والأدب وأخبار العرب لم ير الناس قبلهم ولا
 بعدهم مثلهم وعنهم أخذ جل ما في ايدي الناس من هذه العلوم ، بل
 كلها ، وهم ابو زيد الانصاري والأصمي وأبو عبيدة » (٢)
 ويقول محمد بن يزيد المبرد « كان للأصمي يد غراء في اللغة ، لا
 يعرف فيها مثله » (٣) . ويعده أجلة العلماء « من انتهى اليهم علم اللغة ».
 اما في النحو فلم يكن الأصمي كائليل بن احمد الفراهيدي ولا
 كيونس بن حبيب التحوي ولا سيبويه من الذين عاصروه ، ولكنه
 كان فيه أفضل من غيره من انصروا الى الاختصاص في اللغة والأدب
 والأخبار وقد قال الأخفش احد اساتذة ذلك العصر « ما رأينا
 أحداً اعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمي » فقيل له ايهما افضل؟؟
 قال الأصمي اعلم ، لأنه صاحب نحو (٤) وقد اتفق اصحاب السير

(١) زهر الآداب : ج ١ ص ٣٨٦

(٢) الزهر : ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٣) السيرافي : ٥٧ .

(٤) طبقات النجاة : ج ٢ ص ٢٤٨

والطبقات على عده في الطبقة الأولى من النهاة^(١) وكانوا يعتبرونه ثقة في هذا العلم ، ويحتجون برأيه لأنه يتقيد بالنصوص ، ويفضلون فتاويه النحوية على غيرها^(٢)

كان مذهبه في اللغة « تضيق دائرة اخذه لها » فلا يقبل غير الثابت الصحيح ، ولا يأخذ الا ما اجمع عليه علماء اللغة او فصحاء الأعراب فإذا ورد عليه شيء غريب منها عرضه على كبار شيوخ المسجد - يوم كان طالباً - ثم صار يعرض ما يشك في صحته على فصحاء البدو وعلمائهم ؛ فإن ايدوه قبله ودونه في دفاتره ، والا الغاه وشطب عليه ؛ وربما كان الذي يلغيه ويشطب عليه اضعف الذي يقباه يقول ابن أخيه عبد الرحمن « كان عمي اذا ورد عليه شيء ينكره من اللغة والأدب ، قال : جحفل به اي اتركه^(٣) »

ويقول احدهم « كان الأصمعي يضيق دائرة الأخذ ، ولا يجوز إلا افصح اللغات ، ويسدد في ذلك ، ولا يفتى إلا فيما اجمع عليه علماء اللغة ، ويقف عما ينفردون به ، ولا يجوز إلا الأفصح »^(٤) وربما ادى تشده هذا الى ان ينفرد برأيه في رفض ما لا يوافق عليه دون باقي العلماء الآخرين فقد جاء مثلاً ان جميع زملائه يوافقون على صحة القول « فاظ الميت » بالظاء و « فاطت نفسه » و « فاضت نفسه » بالطاء وبالضاد ، إلا هو فأنه يقول « فاظ الميت » و « فاضت نفسه » بالضاد فقط ، ولم

(١) السيرافي : ٥٨ .

(٢) نزهة الأباء : ٢٤٧ .

(٣) السيرافي : ٦٢ .

(٤) طبقات النهاة : ج ٢ ص ٣٠٢ .

يجمع بين الظاء والنفس ابداً^(١)

وكان في مقارنته يفضل اقوال شعراء الجاهلية وخطبائهم على اقوال من جاء بعدهم في صدر الاسلام او في عهد بنى امية فان لم يجد من اقوال الجاهليين ما يحتاج به فضل اقوال شعراء الاسلام من قاطني البوادي على اوائل الذين سكنوا المدن والحضر . وفضل فصحاء الاعراب الماكثين في كبد الصحراء على من جاور منهم البلاد والمحاضر المأهولة بالغرباء والأعاجم وكذلك كان مذهبه في النحو سئل مرة : هل يقال « شتان ما بين » ام « شتان بين » ؟ قال اما يقال « شتان هذا وغيره » واحتاج بقول الشاعر الجاهلي « حاجب بن زرارة »

شتان هذا والعناق والنوم والمنهل البارد في الطل الدوم
قالوا له ، ولكن الشاعر ربيعة الرقي يقول :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
قال هذا شاعر متأخر ليس محجة ولم يقبل غير ذلك ، بينما اجاز
غيره من النفوذين النحاة القواعد الثلاث كلها قالوا « شتان بين »
و « شتان ما بين » و « شتان ما هذا وذاك »
ويقول ابو حاتم السجستاني سألت الأصمي اتفوق في التهديد
« أبرق وأرعد » ؟ قال لا ، لست أقول ذلك الا ارى البرق
وأشمع الرعد قلت لقد قال الشاعر الكميت
أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيتك لي بضائر
قال الكميت جرمقاني من اهل الموصل ، ليس محجة ؟ ولكن
الحجۃ هو الذي يقول

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٤٠

اذا جاوزت من ذات عرق ثانية فقل لأبي قابوس ما شئت فارعد
 وهو شاعر جاهلي ، وشاعرك هذا متاخر لا يؤخذ بقوله . قال ابو حاتم :
 فأتيت ابا زيد الانصاري ، وقلت له كيف تقول من البرق والرعد
 فعلت الساء ؟؟ قال « رعدت وبرقت » ، قلت فمن التهديد ؟؟
 قال « رعد وبرق ، وارعد وابرق » فاجاز اللغتين ثم سالت اعرابياً
 فصيحاً عن ذلك فأجاز اللغتين ايضاً .. ولم يجز الاصمعي الا لغة واحدة (١) «
 وكان ينكر كلمة (زوجة) ويقولها (زوج) ، ويحتاج بقوله تعالى
 « امسك عليك زوجك » فقيل له ان الشاعر « ذا الرمة » يقول :
 أذو زوجة بالمرام ذو خصومة أراك لها في البصرة اليوم ثاويا
 فقال ذو الرمة ليس محجة ، اذ طلما أكل البقل والملاح في حوانين
 البقالين (٢)

ومن مذاهب في اللغة وتضييق دائرة اخذه لها اتباعه « قاعدة المتروك »
 وهي عدم قبوله استعمال الكلمات المتروكة التي اصبحت حكم الميت لابن
 العرب قاطبة تركوا استعمالها واستعاضوا عنها بغيرها ، ككلمة (الملة) ،
 والنشيطة ، والرابع) وما شاكل ذلك ؛ فكان يقول « لا يقولون
 احدكم ؛ أكلت ملة ، بل أكلت خبزة ، لأن كلمة ملة قد تركت
 ولم يستعملها احد من العرب »

وكذلك تمسكه بقاعدة « تبديل الكلام اذا تبدل المعنى » فيقول
 « لكل معنى كلام ي قوله العرب ، فإذا تبدل المعنى لم تتكلם العرب بذلك
 الكلام » ومن امثلته على ذلك ان العرب كانوا يدفعون صداق

(١) امالي القالى : ج ١ ص ٩٦

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٣٤

المرأة خيلاً وإياً فيقولون « ساق إليها صداقها » لأن الخيل والابل تساق ؛ ثم تغير الحال ، فصاروا يدفعون الصداق ذهباً وفضة أو تمراً أو ما شابه ذلك ، فلا يجوز القول هنا « ساق إليها صداقها » لأن الذهب والفضة لا تساق وكان العربي يضرب على اهله ليلة عرسه قبة أو خيمة يبنيها ، فيقال « بني بأهله » ثم تغير الحال عند سكان المدن ، فلم يبن أحد منهم خيمة ليلة عرسه ، فأصبح من الخطأ استعمال كلمة « بني بأهله » ما دام هو لم يبن

وكان تزنته هذا وتتسكه الشديد بالنصوص يجعله يكره « القياس » في اللغة وال نحو ولا يعمل به ؛ اي انه لا يقارن بين الأشياء المتشابهة ليستخرج من ذلك ما يراه ممكناً بل يكتفي بالنص المتفق عليه من أجل ذلك شبهه البعض بالآلة الحافظة تلتقط ما يؤتى لها ؛ فقال « ابن جني » « كان الأصمعي ليس من ينشط للمقاييس ؛ وانه معروف بقلة ابتعاثه في النظر وتوفره على ما يرى ويحفظ »^(١) وقد انصفه بعض الباحثين فقال « انه كان كشیوخ المحدثین ، متشددًا وافقاً عند النص اللغوي يكره القياس وينغضه »^(٢)

والذي نراه ان الأصمعي يتتجنب القياس ولا يعمل به ، لا عجزاً منه وضعاً عن تطبيقه وال موضوع فيه ولكنه كان يرى رأي بعض المحدثين الذين يعتقدون بأن العمل بالقياس في تفسير القرآن والحديث يسبب الاختلافات في الرأي ، ويفسح المجال للدخول البدع في الدين والانحراف عن الأصل . وكذلك الأصمعي يرى بأن القياس في اللغة وال نحو يسبب حدوث الاخطاء

(١) كتاب الحصائر : ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) ضحي الإسلام : ج ٢ ص ٢٧٩ .

فيها ويعتبر الى افسادها وأكثر من هذا انه يعتقد بأن الخطأ في الاجتهاد او القياس ، في اللغة والنحو ، يجر من يعمل به او بفتاويه الى الوقوع أخيراً في الخطأ ايضاً عند تفسير القرآن والحديث ، لما بين هذا وذاك من صلة مباشرة

وأما القول بأن الأصمعي اراد يوماً ان يدرس علم العروض على استاذه الخليل بن احمد فلم يوفق وعجز عن الاستمرار فيه لأنه يحتاج الى قياس ، فسألة فيها نظر ؟ وذلك لأن الأصمعي كان من أعرف الناس بالشعر وأقدرهم قاطبة على تمييز غنه من سمينه ، وصحيحه من مكسوره ، وكل ما فيه من زحاف واقواه وغير ذلك ؛ وهو نفسه كان ينظم الشعر سليقة ويرتجله بدون تعب وان لم يكن فحلاً فيه وقد قال احد معاصريه « اثنان هما خير من رأينا علماً بالشعر الأصمعي وخلف الأحمر »^(١) ، وقال آخر « كان الأصمعي وخلف الأحمر على نهج واحد في رواية المأثور عن السلف ، وهو اللذان فتقا المعاني ، وأوضحا المسالك ، وبينا المعلم ، ولم يكن لهما في علم الشعر نظير »^(٢) فمن كانت هذه منزلته من العلم بالشعر ، لا يعجز عن ادراك علم العروض اذا اراد درسه ، مع العلم بأن مقاييس العروض غير القياس في اللغة والنحو ، نوعاً ونتيجة

ولكن الذي نراه محتملاً - فيما اذا صحت الرواية هذه - هو ان الأصمعي رأى علم العروض ، الذي ابتكره استاذه الخليل ، علماً لا يفيد غير الذين لا يحسنون نظم الشعر ، ولم يوهبوا السليقة الفطرية في التمييز بين الصحيح والمكسور من اوزان الشعر ؛ ولم يجده هو نفسه في

(١) طبقات النهاة : ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) المزهر : ج ٢ ص ١٢٧

حاجة الى اضاعة وقته في درس مقاييس هذا العلم ودوائره وحساباته
وتقطعه ، فتركه

ولم يكن الأصمعي يتဂنن القياس ولا يعمل به فحسب ، بل كان
يغضنه ولا يقر غيره على العمل به ، ويعارض من يجذبه والظاهر ان
ذلك كان معروفاً فيه عند الناس ، فكان بعض الظرفاء من اصحابه
يمارحونه بذكرهم القياس امامه وتحييدهم له وقد حدثنا الأصمعي نفسه
عن شيء من ذلك قال دخلت على الفضل بن الربيع يوماً ، وبين
يديه العباس بن الأحنف الشاعر ؛ فقال العباس للفضل دعني اداعب
الأصمعي ، فقال له لا تفعل فإنه لا يتحمل العبث ، قال اب رأى
الأمير ان ا فعل ، قال ذاك اليك فلما دخلت وأخذت مجلسي قال لي
العباس يا ابا سعيد ، من الذي يقول

اذا احببت ان تصنع شيئاً يعجب الناس
فصور هاهنا فوزاً وصور ثم عباسا
فإلا لم يدنوا حتى ترى رأسيهما راسا
فكذبها بما (قاست) وكذبها بما (قاسا)

قال لي ابن ابي العلاء الشاعر - وكان حاضراً - : إنه اراد اب يبعث
بك وهو نبطي فأجبه على هذا ؟ فالتفت الى العباس وقلت له لا اعرف
من قال ذلك ، ولكنني اعرف الذي يقول

اذا احببت ان تصنع شيئاً يعجب الخلقا
فصور هاهنا (دوراً) وصور هاهنا (فلقا)
فإن لم يدنوا حتى ترى خلقهما خلقا
فكذبها بما لاقت وكذبها بما يلقى

فوجم العباس ، وضحك الفضل وقال له : قد نهيتك عنه فلم تقبل^(١)
 عدا ما ذكرنا من تضييق الأصمعي دائرة الأخذ في اللغة فقد كان لا
 يفسر ولا يتكلم في تفسير ما له شبه في القرآن يقول ابو حاتم
 سائل الأصمعي عن « الصرف » و « العدل » فلم يتكلم فيه وقلت له :
 هل معنى (الربة) جماعة من الناس ؟؟ فلم يقل فيه شيئاً لأن في القرآن
 (ربيون) اي جماعة منسوبة الى الربة ولم يتكلم في الكلمة « سرى
 واسرى » لأنه قرئ في القرآن (واسر بآهلك - وأسر بآهلك) وكذلك
 في الكلمة « عصفت » لأن في القرآن (ريح عاصف) ولا في (نشر
 - وانشر) ولا في (سلك - واسلك) لأن في القرآن (ما سلّكتم في
 سقر ؟) ولا في (نكرا - وانكرا) لقوله تعالى (قوم منكرون) ولا في
 (كنت الحديث - وأكنته) لأن في التنزيل (يض مسكنون)
 و (ما تكن صدورهم) ولا في (وعي - وأوعى) لأن في القرآن
 (جمع فأوعى) الى آخر ذلك^(٢)

وكان لا يفسر ولا ينشد ما كان فيه ذكر الأنواء لقوله عليه السلام :
 « اذا ذكرت النجوم فامسكونا »^(٣) ولا يفسر ما كان متشابهاً
 مع بعض نصوص الأحاديث ولا يفسر ولا ينشد شرعاً يكون فيه هجاء
 الا ما ندر ولا يذكر في الأساطير شيئاً^(٤)

خلاصة القول ، ان الأصمعي كان يضيق دائرة الأخذ في اللغة والقواعد
 النحوية ، بينما كان غيره من اللغويين والنحاة في عصره يوسعون نطاق
 اخذهم جهد الطاقة يقول ابو حاتم السجستاني « كان الأصمعي يقول

(١) الأغاني : ج ١٥ ص ١٤٣

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٠٥

(٣) المزهر : ج ٢ ص ٢٠٧

افصح اللغات ويلغى ما سواها ؛ وابو زيد يجعل الفصيح والشاذ واحداً ، فيجيز كل شيء قيل ومثال ذلك ان الأصمعي يقول حزني الأمر يحزنني ، ولا يقول احزنني ، وهم جائز لأن القراء قرأوا - لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر - بفتح الياء وضمها »^(١)

ولذلك قيل « كان الأصمعي يحب في ثلث اللغة وابو عبيدة يحب في نصفها ، وابو زيد يحب في ثلثها ، وابو عمرو بن كركمة يحب في كلها »^(٢) وقيل غير ذلك ايضاً ونحن وان كنا لا تلتفت الى مثل هذه التصانيف الحسائية لما يحتمل ان يكون فيها من جزاف في الحكم ، نرى بأن تشديد الأصمعي هذا وتضيقه جعل روایاته وآرائه امتن وأصح واوثق من روایات غيره وآرائهم ولذلك أخذ عنه في اللغة وال نحو أكثر مما أخذ عن زملائه الآخرين

وكان وحيد عصره في رواية الشعر وفهمه وتقده وتحليله ، ولم يجاره احد في هذا الميدان لكثرة ما جمع من الأشعار ووعها وحفظها ورواها وفسرها وتعمق في درسها ، وعرف شعراها وسيرهم وأخبارهم وقبائلهم ومنازلهم ومذاهبهم ، حتى صار يعرف الشاعر من شعره بدون عناء ، وقلما يخطئ في ذلك

وهو - باعتراف خصومه - احسن من كشف معاني الغريب في القريض ، والتلتفت الى الأخطاء الدقيقة فيه اذا وجدت ، وميز بين الصحيح والمنقول ، والغث والسمين ، والمتذكر في معانيه والمسروق منها وقد

(١) المزهر : ج ١ ص ١٣٩

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٥٠

عرف اللغويون وأدباء عصره فضله وطول باعه في هذا المجال فتجنبوا مناظرته فيه وسماه بعضهم « شيطان الشعر »^(١) لعلمه بخفاياه وأسراره ، وقال آخرون « هو اسد الشعر والغريب والمعاني »^(٢) وشهد بفضله خصميه اللذوين « ابن الأعرابي » احد كبار علماء اللغة والأدب في عصره ، فقال « شهدت الأصمعي وقد أنسد نحواً من مئتي بيت من الشعر ، ما فيها بيت عرفناه »^(٣) ويقول صاحب كتاب « الأغاني » المعروف بزيارة ادبه « كان للأصمعي مواقف في تفسير الشعر تدل على عبقريته ونبوغه في فهم الأدب والشعر خاصة »^(٤)

وفي رواية ارجلين كانوا ينتظران في الشعر ، ويتحدثان في غريبه ، فربما الأصمعي وهو يتجادلان ؛ فتوقفا عن الكلام ، وقال أحدهما للآخر متمثلاً ببيت الشاعر « ساعدة بن جدية »

وما ينجي من الغمرات إلا برآباء القتال أو الفرار
ثم استأناها حديثها بعد مروره ، وذلك إكباراً لفضله وعلمه في ميدان
الأدب والشعر^(٥)

وقيل انه كان يوماً في حلقة استاذه أبي عمرو بن العلاء ، وكان
هذا ينشد ابياتاً للخطيئة حتى وصل الى قوله
وغررتني وزعمت انك لا بن في الصيف تامر
أي كثير اللبن والتمر ، فقال الأصمعي اني اقرأه « لا تني للضيف

(١) كان هارون الرشيد يقول له : « انت شيطان الشعر » .

(٢) السيرافي : ٦٢

(٣) نزهة الأنبياء : ١٦٣

(٤) الأغاني : ج ١٣ ص ١٤٣

(٥) السيرافي : ٦٢ .

تامر » اي لا تتوانى عن ضيفك تأمر له بتعجيل القرى ؟ فقال له ابو عمرو:
انت في تصحيفك هذا اشعر من الخطيئة (١)

وسائل الأصمعي مرة جلاسَه عن معنى قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

يذكُرني طلوع الشمس صخراً واذكره لكل غروب شمس

قالوا معنى ذلك انهَا تذكره صباح مساء ، قال لا ، ولكنها
ارادت بقولها هذا انها كانت تذكر أخاها صخراً عند طلوع الشمس وقت
الغارة والغزو لأنَّه كان من الفرسان ، وتذكره عند غروبها وقت القرى
واطعام الضيف لأنَّه كان من الأَجْواد فقاموا وقبلوا يده (٢)

وبلغ بعلمه وفهمه للشعر انه قال اقت في المدينة بالحجاز زمناً ، ما
رأيت عند رواتها قصيدة واحدة سالمه الا مصحفة او مصنوعة (٣)

وقال جالست حاد الرواية فلم اجد عنده ثلاثمائة حرف ، ولم ارض عن
روايته للشعر (٤) وفي أخباره انه كان يسمع القصيدة الطويلة ويطرب لها ،
حتى اذا جاء فيها شعر منحول او مصحف قطب جبينه حالاً وصاح
« نقوها » فكان احداً اخبره بذلك

لا شك ان الذي اوصله الى هذه المكانة من النبوغ وفهم الشعر
وادراك معانيه وفحصه بهذا الميزان الدقيق ، امور كثيرة منها تعشه
للشعر والأدب حتى صار له غذاءً روحيًا لا مناص منه ، وهو الذي يقول :
« من لم يلهمه الأدب عن اهله واوطنه لم ينجب » ؛ وفي رواية اخرى
انه قال لأحد معارفه « الا أخبرك عن كنز لا يفني ، وصديق لا

(١) الأغانى : ج ١٣ ص ١٤٣

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢١١

(٣) المزهر ج ٢ ص ٢٤٥

(٤) العمدة : ج ١ ص ٧٥

لا ينسى ، ونوب قشيب لا يليل ؟ ؟ » قال وما هو ؟ ؟ قال الاصمحي « انه الأدب » وثاني هذه الامور ، كثرة ما حفظ من الشعر على أنواعه وألوانه حتى صار اذا سمع شيئاً منه تواردت على ذاكرته الحافظة كل ما شابه ذلك الشعر من معنى ولفظ وقاعدة نحوية ، فيدرك في الحال صحته من خطئه وحسنها من رداءته ثم ان تبحره في غريب اللغة واتقانه لها سهلا عليه فهم الشعر منها كان غريباً يقول « حفظت للحجر سبعين اسمأً ، وحفظت لغيره أضعاف ذلك فكيف يكون الغريب عندي غريباً ؟ ؟ »

اما مذاهب في قبول الشعر وأخذه ونقده وتفسيره فكثيرة نجدها في مناظراته ومحاضراته وروياته .. يقول صاحب « كتاب العمدة » كار مذهب الاصمحي في شعراء الجاهلية وما بعد الاسلام كذهب ابي عمرو الذي يفضل شعراء الجاهلية ، ويقول عن الآخرين « ما كان حسناً فقد سبقوه اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ليس النمط واحداً ، ترى قطعة دياج وقطعة مسح وقطعة نطع ^(١) » وكان لا يكتفي بأخذ الشعر دون محاولة معرفة صاحبه ، والمناسبة التي قيل فيها ، والمكان الذي أنشد فيه ، ومن كان حاضراً ساعة الانشاد ، وماذا علق الحاضرون على أقوال الشاعر من آراء ، وبماذا أجابهم ، وكيف كانت النتيجة بعد ذلك من استحسان وتقدير ، أو استهجان وعقاب وفي أخبار الاصمحي موافق كثيرة تدل على علمه بذلك في بعض ما يروي من الشعر ^(٢)

كان يحاول عند أخذه الشعر معرفة كل ما يتعلق به من أخبار بالتفصيل ؛

(١) العمدة : ج ١ ص ٧٥

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥

فإن عجز عن ذلك أكفى بما حصل عليه من اسم الشاعر ومتناهية الشعر ،
فإن لم يجد هذا بحث عن قبيلة الشاعر وعشيرته لكي يقول عند روایته
« أنسد أحد بنى فلان » أما اذا غاب عنه كل ذلك وعثر على الشعر
مجرداً أكفى عند روایته بقوله : « قال احدهم » او « أنسدنا أحد الاعرب ».
وكلما وجدنا شرعاً رواه الأصمعي دون ان يذكر اسم قائله ، او قبيلته على
الأقل

وكان لا يقبل الشعر المنحول او المصحف ، واذا قبله ثم علم بذلك
الغاء من دفاتره ، او رواه مجريداً دون نسبته الى احد ، وربما ذكر صورة
التصحيف فيه والاتصال ، وشرح ذلك لطلابه وسامعيه منعاً للوقوع في
الخطأ وكانت له من الكفاءة العلمية والأدبية ما يستطيع بها تقدير ذلك ..
قيل اب ابا عبيدة روى ابياتاً للحاجب بن زراة ، احد شعراء نجد ،
يقول فيها

شتنان هذا والعناق والنوم والنهل البارد في ظل الدوم
فسمع الأصمعي بذلك فقال كذب ابو عبيدة ، ائما هو « والنهل البارد
في الطل الدوم » اي الدائم ، وأما قوله في ظل الدوم ، فعنده في ظل
شجر الدوم ، وشجر الدوم ينبت في الحجاز ، والشاعر بحدى ، وليس لأهل
نجد شجر الدوم (١)

وهو - عدا ذلك - لا يروي شرعاً قط إلا بعد تذليل الغريب من
ألفاظه ، وفهم معناه ووجوه تفسيره ومعالجة القواعد النحوية فيه اذا
وجدت وأكثر من هذا انه كان يبحث في مدوناته وذكرياته ليعلم
ما اذا كان معنى ذلك الشعر مبتكرأ ام مقتبساً من شعر سبقه ؛ واذا كان

(١) نزهة الألباء : ١٢٨

مبتكراً فـأي الشعـاء اقتـبهـ فيما بـعـد ، فـإـن وـجـدـ شـيـئـاً منـ هـذـا قـارـنـ بـينـ
 الشـعـرـينـ منـ حـيـثـ الـجـودـةـ وـالـسـبـكـ وـجـمـالـ الـلـفـظـ وـالـدـيـبـاجـةـ وـوـضـوحـ الـعـنـيـ
 وـاـذـا وـجـدـ فيـ الشـعـرـ خـطـأـ فيـ الـلـفـظـ اوـ التـشـيـهـ ، اـشـارـ الىـ ذـلـكـ
 الخـطـأـ يـقـولـ مـثـلاًـ اـخـطـأـ «ـابـوـ النـجـمـ الرـاجـزـ»ـ فيـ اـشـيـاءـ اـخـذـتـ عـلـيـهـ
 مـنـهـ قـوـلـهـ

وـهـيـ عـلـىـ عـذـبـ روـيـ المـنـهـلـ
 دـحـلـ اـبـيـ المـرـقـالـ خـيرـ الـادـحلـ
 مـنـ نـحـتـ عـادـ فـيـ الزـمـانـ الـأـوـلـ

وـالـخـطـأـ فـيـهـ انـ «ـالـدـحـلـ»ـ لـاـ تـورـدـ اـنـماـ تـورـدـ الرـكـابـ ،ـ وـهـذـاـ خـطـأـ
 مـعـيـبـ ؟ـ ثـمـ قـوـلـهـ عـنـ الدـحـلـ «ـمـنـ نـحـتـ عـادـ»ـ وـالـدـحـلـانـ لـاـ تـحـفـرـ وـلـاـ
 تـنـحـتـ ،ـ اـنـماـ هـيـ خـرـوقـ وـشـعـابـ فـيـ الـأـرـضـ وـفـيـ الـجـبـالـ لـاـ تـصـيـبـهـ الشـمـسـ
 فـتـبـقـيـ فـيـهـاـ الـمـيـاهـ ،ـ وـهـيـ هـوـةـ فـيـ الـأـرـضـ يـضـيقـ فـمـاـ ثـمـ يـتـسـعـ فـيـدـخـلـهـ
 مـاءـ السـمـاءـ^(١)

وـلـهـ فـيـ تـفـسـيرـ الـشـعـرـ مـذـاهـبـ يـخـتـصـ بـهـ اـحـيـانـاًـ دـوـرـ غـيرـهـ مـنـ رـوـاـةـ
 الـأـدـبـ ،ـ وـيـخـتـلـفـ فـيـ الرـأـيـ بـهـ عـنـ الـلـغـوـيـنـ الـآـخـرـيـنـ يـقـولـ اـبـوـ هـلـالـ
 الـعـسـكـريـ فـيـ نـحـثـ التـصـحـيفـ حـوـلـ بـيـتـ جـاءـ فـيـ مـعـلـقـةـ اـمـرـيـءـ الـقـيـسـ يـصـفـ
 بـهـ طـوـلـ الـلـيـلـ «ـرـوـاـهـ الـأـسـمـاعـيـ هـكـذـاـ

كـأـنـ الثـرـياـ عـلـقـتـ فـيـ مـصـامـهاـ بـأـمـرـاسـ كـتـانـ إـلـىـ صـمـ جـنـدـلـ
 وـفـسـرـهـ كـمـ كـيـاتـيـ مـصـامـهاـ ،ـ اـيـ مـصـامـ الثـرـياـ ،ـ وـمـعـنـاهـ مـوـضـعـهـ وـمـقـامـهـ ؛ـ
 وـهـوـ يـصـفـ الـلـيـلـ ،ـ وـاـنـ نـجـومـهـ لـاـ تـسـيرـ مـنـ طـوـلـهـ ،ـ فـكـأـنـ لـهـ أـوـخـيـ فـيـ
 الـأـرـضـ تـحـبـسـهـاـ هـذـاـ مـذـهـبـ الـأـسـمـاعـيـ وـقـدـ رـأـيـتـ بـعـضـ عـلـمـاءـ الـلـفـةـ

(١) الأغانى : ج ٩ ص ٨٣

يروونه على شكل آخر ويفسرونها مختلفاً مذهب الأصمعي فيقولون
كأنّ نجوماً علقت في مسامه بأمراس كتان الى ص جندل
ومسامه ، يعني مسام الليل ؛ والفرق ظاهر بين المذهبين » (١)

والشعر عند الأصمعي قيم تختلف باختلاف أنواع الشعر فهو يعبأ
بالشعر الجاهلي المتن ويتحذه شاهداً يحتاج به في درس اللغة وضبط القواعد
النحوية ويفضله على غيره ؛ ويروي القصائد الطوال لـكبار شعراء
المجاهلة والاسلام لأجل الأدب اولاً ثم كسد يثبت صحة أخبار الحوادث
والمناسبات التي قيلت تلك القصائد فيها وأما القطع الشعرية القصيرة
النادرة في معناها ورقة ديجاجتها فيدخلها لأنشادها والتعليق بها في المجالس
والمنتديات ؛ كما يحفظ بالشعر الظريف الفكه ليوضع به ملحنه ودعاباته
وطرائفه وحتى الشعر النافع في نظره كان يحفظه للفرص والمناسبات وله
في كل ذلك أثر صخم قلما خلا كتاب ادبي قديم من شيء منه
على ان الذي نأخذه على الأصمعي هو اهمـالـه لشعر المجاء اولاً ،
معتقدين بأنه - لا شك - عثر على ثروة ثمينة من هذا اللون الأدبي فأهمله
ولم يروه ؛ ولو رواه لأضاف الى كنوز الشعر ثروة اخرى ثم انه كان
يتتجنب اخذ الشعر وروايته اذا كان فيه ما يخالف مذهبـه ومعتقداته وآراءـه
الدينية والسياسية والاجتماعية ؛ وربما عزف عن روایة شيء من ديوانـ كامل
لـشاعرـ مجیدـ لأنـهـ كانـ يـدينـ بـمذهبـ اوـ عـقـيدةـ غـيرـ مـذـهـبـهـ وـعـقـيـدـتـهـ حدـثـ
ـ«ـ التـوزـيـ »ـ قالـ رـأـيـ الأـصـمـعـيـ فـيـ يـدـيـ جـزـءـاـ فـيـ شـعـرـ «ـ السـيدـ
ـالـحـمـيـ »ـ قـفـالـ بـنـ هـذـاـ ؟ـ فـسـتـرـتـهـ عـنـهـ لـعـلـمـيـ بـمـاـ عـنـدـهـ فـيـ ؟ـ فـأـقـسـمـ عـلـيـ
ـأـخـبـرـهـ فـأـخـبـرـتـهـ ،ـ قـفـالـ اـنـشـدـنـيـ قـصـيـدـةـ مـنـهـ ،ـ فـأـنـشـتـهـ قـصـيـدـةـ ثـمـ اـخـرىـ

(١) خزانة الأدب : ج ٣ ص ٢٤٧

وهو يستزيدني ، ثم قال قبحه الله ما اسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ؟
ولولا ما في شعره ما قدمت عليه احداً من طبقته (١)

*

ويعتبر الأصمعي من كبار رواة الأخبار والأخبار - كما علمنا - مرحلة من مراحل نشوء علم التاريخ ، قبل اب يجمع ويدون بالتسلسل ويصبح علماً مستقلاً بنفسه ولم يكن في عهد الأصمعي راوية للأدب إلا اذا روى شيئاً كثيراً من اخبار العرب الأقدمين التي اصبحت - فيما بعد - مادة في علم التاريخ وحلقات في سلسلته العامة ، وذلك حكم اباحث هؤلاء الرواة عن المناسبات والحوادث التي قيلت فيها تلك القصائد او الخطب والأرجيز والأمثال والشواهد وغيرها مما يدخل في حظيرة اللغة والأدب

وقد جمع الأصمعي اخباراً كثيرة ، دونها في الواحد ودفاتره ، وروتها للناس في مجالسه وهي على انواع منها ما يصلح ان يكون خبراً من الأخبار التاريخية كذكر الواقع والمحروب والأحلاف والمنافرات في العهد الجاهلي ، او الغزوات والجهاد والفتح في صدر الاسلام والعهد الاموي ؛ ومنها ما يدخل في سير الملوك والقادات والولاة والشخصيات المشهورة في التاريخ ؛ وبعضها يعتبر جزءاً في تاريخ الشعراء وأحوالهم وسيرهم كما انه روى بين هذا وذاك اخباراً تكشف جوانب كثيرة من اخلاق القبائل والمجتمعات العربية وتصرفااتهم في معاملاتهم ومشاكلهم وطرق التحكيم عندهم ، الى آخر ذلك (٢)

قص علينا في بعض رواياته اخبار العالقة وحرسو بهم ومجاسيمهم وطراز

(١) الأغانى : ج ٧ ص ٤.

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٩

معيشتهم وعاداتهم وأحوال البعض من ملوكهم وكبارهم وحدثنا عن العرب البداءة والعربية والستعرية وروى الكثير عن عرب الجاهلية قبيل الاسلام وأيامهم والحروب التي استعرت بينهم فحكى مثلاً عن حرب «البسوس» بين بكر وتغلب، وروى اشعار ابطالها امثال «المهلهل»، وجساس بن مرة، وأخته جليلة، والحارث بن عباد، وجحدر، وغيرهم». وعن حرب «داحس والغبراء» بين عبس وذبيان، وعن ابطال بني عبس امثال «زهير بن جذيمة»، وفيس بن زهير، وعنترة بن شداد» مع ذكر اشعارهم التي قالوها في حربهم^(١)؛ وتحدث عن فارس بني جشم «دريد ابن الصمة» وعشقه للشاعرة المعروفة «الخنساء بنت عمرو بن الشريد»^(٢)؛ وعن «ريعة بن المقدم» وبطولاته وحادث مقتله الغريب^(٣) وقص علينا حادث النقار المعروف بين عامر بن الطفيلي وغلقمة بن علاءة، وما ادى ذلك النثار من تحزب بين القبائل المؤيدة للطرفين، وما قيل فيه من الأشعار والخطب والأمثال^(٤)؛ وعن المسافة بين حاتم الطائي والنابغة الذبياني حول «ابنة عفرز»، وعما اشتهر به حاتم من الساحة والنجدة والفتوة، وعما وقع من خلاف بينه وبين زوجته «ملوية» وما قال في ذلك من الشعر^(٥) وعن «عمرو بن معدى كرب» وصلكته في الجاهلية وجهاده في الاسلام، وروى معظم شعره مع ذكر المناسبات والحوادث التي قاله فيها^(٦) ونقل لنا اخبار الصعاليك والعدائين امثال

(١) الأغاني : ج ١٠ ص ١٦

(٢) الأغاني : ج ٩ ص ١٤

(٣) الأغاني : ج ١٤ ص ١٣٠

(٤) الأغاني : ج ١٥ ص ٥٧

(٥) الاملاني : ج ٣ ص ١٥٢

(٦) الاملاني : ج ٣ ص ١٤٦

عروة بن الورد والسليك والشنفرى ، واخبار المصوص وقطع الطريق واشعارهم ...
الى آخر ذلك

خلاصة القول ، ان المطلع على ما روی الأصمعي من انباء عرب الجاهلية وحدهم يكاد يجزم بأنه لم يترك حادثاً خطيراً من حوادث هؤلاء القوم الا روی عنه شيئاً ان لم يكن قد جاء بمعظم أخباره وهذا ما جعل بعض رواة الأدب والتاريخ يقولون بأنه نقل لنا معظم أخبار الجاهليين وأدبهم وقيل انه هو الذي آتى لنا بالمعلقات السبع في شكلها الحالي (١) ثم روی الكثير من أخبار العرب في صدر الاسلام وبعده في العهد الاموي حتى أيام بني العباس الأول الذين عاصرهم ولم يترك خليفة ولا قائداً او ولياً او شاعراً الا اعطانا فكره عن شخصه وسرد لنا بعض اعماله وتصرفاته وقد تحدث كثيراً عن الصحابة في عهد النبي عليه السلام ولكن له لم يرو غير النذر اليسير من سيرته ؛ وقد يكون السبب في ذلك اعتقاده بأن الرواية عنه أمر يمس الدين في الصميم ، وهو يتتجنب الوقوع في الخطأ والأثم فيه ؟ وربما كان هنالك سبب آخر ، فقد سبق الأصمعي جماعة من رواة الأخبار جمعوا سيرة النبي في كتب عديدة سميت « كتب المغازي » وفيها اعماله وغزواته (٢) ، فلم يجد الأصمعي خبراً لم يرو ، موثوقاً ، في هذا المجال لكي يرويه . وكان مذهبه في جمع الأخبار وقبولها مذهبة في اخذ اللغة والأدب والشعر ، فلا يقبل غير الصحيح الثابت ، ولا يركن الى رواية رجل

(١) قد يكون الأصمعي روی البعض من المعلقات السبع ، ولا نجزم بأنه روواها كلها

(٢) من أشهر كتب المغازي التي الفت قبل ظهور الأصمعي في علم الأخبار كتابان ، هما « كتاب المغازي لابن مسلم الزهرى » المتوفى عام ١٢٤ هجري ، و « كتاب المغازي لموسى بن عقبة » المتوفى عام ١٤١ هجري . وقد ضاع معظم هذه الكتب بل كلها الا كتاب موسى بن عقبة ، فقد وجدت منه نسخة في مكتبة (برلين) جمهها يوسف بن محمد ابن عمر وقد طبع احد المستشرقين قطعة منتخبة من هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ م

مطعون بصدقه ، أو معروف بضعف ذاكرته ، ولا يتأثر باللغוט الشائع بين الناس ولكننه يسير على مذهبه في التحقيق والتمحيص والاستقصاء حتى يرد الحقيقة التي يطمئن لها ، غير عابٍ - بعد ذلك - في ان تأتي روایته مخالفة للمألف الشائع او مناقضة لروايات الآخرين كأن الناس - مثلاً - في عهده يتناقلون اشعار « قيس بن الملوح » المعروفة بمجنون بنى عامر ويتحدثون عن هيامه وتدهله بابنة عمّه « ليلٍ » ، ولكن الأصحى ينكر وجود هذا العاشق المشهور ويقول « في بنى عامر عدة مجاهين في الحب ، صنعتهم أخيلة الرواية والشware ، منهم قيس بن الملوح » ؛ ويروي عدة روايات تدل على صحة قوله^(١)

وهو - رغم كثرة ما روى من الأخبار على الشكل الذي يينا - لم يؤلف كتاباً في هذا العلم مما يدل على انه لم يعن بعلم التاريخ والسير عناته بالأدب واللغة وغيرها ولكن فضله على التاريخ كبير بضمخامة ما انتجه من مادته وبصدق رواياته التي اعتمد الكثير من المؤرخين عليها في النقل

ولم يكن مقصرًا في « علم الأنساب » ايضًا ؛ اذ كانت صلته الوثيقة بالقبائل وعناته القصوى بجمع اخبارها وأشعارها وأدابها تقودانه الى معرفة انسابها وكان علم الأنساب هذا راجحاً عند العرب الجاهليين وقد نبغ فيهم عدد كبير من النساة وبقي الحال كذلك في صدر الاسلام ، فكان ابو بكر الصديق مثلاً من أعرف الناس بأنساب العرب ؛ ثم احتاج المسلمين الى هذا العلم لأجل العطاء على الأنساب حسب « ديوان عمر بن الخطاب » ، فوسعوه وثبتوه ودونوه

(١) نزهة الأنبلاء : ١٣٧

وقد نبغ في العصر الأول العباسي جماعة من علماء النسب ، اختصوا به وألقوها فيه أمثال « هشام بن محمد » المعروف بابن الكلبي ، وغيره ولكن الأصمعي لم ينصرف بكله الى هذا العلم ولم يكن في طليعة القوم به ؛ لذلك كانوا اذا ذكروا علماء الأنساب قدموا غيره عليه وان لم يؤخروه كثيراً عن باقي علماء الأدب والأخبار فيه وله روايات معروفة في انساب العرب الاقدمين ومن جاء بعدهم ، وحتى في انساب عتاق الخيل المعروفة بالعدو السريع

وقد رأينا في قائمة أسماء مؤلفاته « كتاب النسب » ولكنـه من الكتب الضائعة فلم نستطع الجزم في لفظة هذه الكلمة ، أبفتح التون أم بكسـرها واـسكنـتها وجدـنا أثـنـاء بحـثـنا عـنـ أـخـبـارـ الـأـصـعـيـ كتابـاـ فيـ المـكـتبـةـ الـوـطـنـيـةـ فيـ «ـ مـارـيـسـ »ـ مـخـطـوـطـاـ بـالـكـوـفـيـ عـلـىـ وـرـقـ مـنـ الـجـلـدـ بـاسـمـ «ـ الـعـربـ »ـ مـنـ أـبـنـاءـ هـوـدـ »ـ يـبـحـثـ فـيـ أـنـسـابـ مـلـوـكـ وـأـمـرـاءـ الـيـمـنـ الـأـقـدـمـينـ وـأـخـبـارـهـ ؛ـ وـقـدـ كـتـبـ فـيـ مـقـدـمـتـهـ اـنـ اـبـاـ حـاتـمـ السـجـسـتـانـيـ قدـ نـقـلـهـ عـنـ اـسـتـاذـهـ الـأـصـعـيـ مـنـ مـحـاـضـرـاتـ كـانـ القـاهـراـ فـيـ بـغـدـادـ

عـداـ ذـلـكـ ،ـ كـانـ الـأـصـعـيـ -ـ كـاـ قـلـناـ -ـ اـخـتـصـ بـقـرـاءـةـ «ـ نـافـعـ ،ـ وـأـبـيـ عـرـوـ بـنـ الـعـلـاءـ »ـ وـاـنـهـ كـانـ يـلـقـيـ درـوـسـاـ فيـ هـاتـيـنـ الـقـرـاءـتـيـنـ مـنـ الـقـرـاءـتـ الـقـرـآنـيـةـ السـبـعـ وـهـوـ -ـ كـاـ عـلـمـنـاـ -ـ مـنـ حـفـظـةـ الـقـرـآنـ ،ـ وـمـنـ اـعـرـفـ النـاسـ بـعـانـيـهـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـفـسـرـهـ تـجـبـيـاـ لـلـخـطـأـ وـتـخـوـفـاـ مـنـ الـأـثـمـ وـلـمـ يـرـوـ مـنـ الـأـحـادـيـثـ غـيـرـ النـزـرـ الـيـسـيرـ ،ـ وـلـمـ يـفـسـرـهـ تـدـيـنـاـ اـيـضاـ ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ -ـ لـاـ شـكـ -ـ يـحـفـظـ الـكـثـيرـ مـنـهـ ،ـ وـاـنـ لـمـ يـرـوـهـ ،ـ بـحـكـمـ قـوـةـ حـافـظـتـهـ وـكـثـرـةـ مـاـ يـتـرـدـدـ عـلـىـ سـمـعـهـ مـنـ أـحـادـيـثـ النـبـيـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ وـكـلـ ماـ روـاهـ مـنـهـ فـهـوـ صـحـيـحـ بـشـهـادـةـ الـأـئـمـةـ الـكـبـارـ وـرـجـالـ الـحـدـيـثـ فـيـ صـدـقـهـ .

وكان ملماً بعلوم أخرى كانت تتصل بفروع اختصاصه كعلم الجغرافيا وله روایات فيها ، يتعلّق بعضها بذكر مساحات قسم من البلاد الإسلامية وحدودها وطبيعتها وانهارها ومناخها والمانك المجاورة لها ؛ ولكن بشكل بدائي بسيط لا ينطبق انتظاماً صحيحاً والمقاييس الجغرافية الحالية ؛ وله مؤلفات في ذلك منها كتاب « مياه العرب » و « جزيرة العرب » و « الدارات » وهي مصنفات تدل عناوينها على أنها تبحث في بعض المسائل الجغرافية مع شيء من اللغة والأدب والكتاب الأولان مفقودان ، الا كتاب « الدارات » الذي ستيحدث عنه في مكان آخر من هذا كله نفهم بأن جل اختصاص الأصمعي كان في « اللغة والنحو والأدب والشعر والأخبار » وقد نبغ فيها نوعاً فائقاً فعد في طليعة علماء العرب بها كما أنه المـ^{إماماً} واسعاً يباقي العلوم الأخرى التي تتصل بها - في ذلك العهد - اتصالاً وثيقاً ، قبل ان تكتمل وتصبح علوماً مستقلة بنفسها وكان الغالب على مذاهبه في كل هذه العلوم قاعدتان او لاهما ، تضيق دائرة الأخذ ، وثنائيهما التمسك بالنصوص والتقييد بها والابتعاد عن الاجتهاد والقياس توخياً للصدق

بقي علينا ان نعلم ما اذا كان الأصمعي يحسن اللغة الفارسية ويتكلم بها أم لا ، وقد وجدهنا في بعض احاثاته اللغوية يرجع مصادر الكلمات المستعرة الى اصلها الفارسي ، او يقارن بعض الكلمات العربية بما يشابهها من الكلمات الفارسية في المعنى (١) ؟ ! في الواقع اننا لم نجد في الأخبار ما يفيد بأنه عني بدراسة هذه اللغة

(١) ادب الكاتب : ١٤٩

عنایة خاصة في وقت ما ولکتنا لو رجعنا الى المحيط الذي وجد فيه الأصمعي وخالطه طوال حياته لرأينا بأن اللغة الفارسية كانت في متناول يده لکثرة الأسر الفارسية المستوطنة في البصرة ، وقرب هذه المدينة من تخوم فارس . وقد دلت الروايات المتواترة على ان القسم الأعظم من هؤلاء الفرس كانوا يتکلمون لغتهم الأصلية القومية فيما بينهم ، في الأسواق والأزقة والمجتمعات ، وحتى في مسجد البصرة بين الطلاب من الموالي والفارسية ، كما هو معروف ، لغة عريقة بالأدب والعلم والحضارة الفكرية وفي البصرة عدد كبير من فحول الشعراء وكبار العلماء من اصل فارسي ؟ وفيهم من يتکلم الفارسية بين زملائه وبني عنصره على الدوام وبديهي ايضًا ان يجد الأصمعي من بين رجال الفكر الذين يخالطهم ويتحتك بهم من ينشد الشعر الفارسي حين يجد في الشعر العربي معنى مشابهًا له ، او عند مقارنته فكرة بفكرة ، او ما شابه ذلك في كل مناسبة سانحة وهذا يدل على ان الأصمعي كان محاطًا بنين يتکلم هذه اللغة في كل مكان ، وانه كان يسمعها في ليله ونهاره ، وحتى اثناء اتصاله بيلات هارون الرشيد واحتکاكه بالبرامكة والعناصر الفارسية الاخرى في بغداد فاذا تذکرنا حافظة الأصمعي اللاقطة ، و حاجته احياناً الى التفاهم مع من لا يحسن العربية من هؤلاء الأعاجم الكثر في البصرة وبغداد ، غالب على ظننا انه قد ألم باللغة الفارسية تماماً واسعاً ، يجعله جديراً بأن يقارن بين بعض الكلمات العربية والكلمات الفارسية المشابهة لها في المعنى ، ويرجم المستعرب منها الى اصله الفارسي كما رأينا في بعض آثاره ^(١) . وربما كان يتکلم الفارسية عند الحاجة وان لم يكن من يألفها لكرهه الشديد للعنصر الفارسي .

(١) المزهر : ج ١ ص ١٦٥

القسم الرابع

في دار الخلافة

١٨٨٤ - ١٧٣٥هـ

١ - الاتصال بهارون الرشيد

٢ - في مجالس الرشيد

٣ - الفوائد الثلاث

٤ - أثره في مصرع البرامكة

٥ - ترکه بلاط الرشيد

الاتصال بهارون الرشيد

تولى الرشيد الخلافة عام (١٧٠ - ٧٨٦ م) ولما يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر^(١) ولم يمض - يومئذ - على بناء مدينة بغداد أكثر من ربع قرن ؛ ولكنها كانت - خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن - قد مشت شوطاً بعيداً في مضمار التقدم العثماني والاجتماعي والفكري بفضل كونها عاصمة الخلافة ، ومستودع بيت المال ، ومصدر الكسب والغنى

والمعروف جيداً ان حركة بغداد الفكرية كانت قبساً من نور تلك النهضة العلمية والأدبية في كل من مدینتي البصرة والكوفة ، لكثرتة من نزح منها اليها من حملة الأقلام وقادة الفكر وعاقة الأدب والشعر ، فضلاً عن التجار الموسرين وأرباب السيف ورجال الادارة من أشغلوا المناصب الخطيرة في بلاط بني العباس ودولتهم فكان طبيعياً انتقال ، مع بعض هؤلاء ، مؤلفات الكثيرين من الشيوخ البصريين والكوفيين وتنشر في اجزاء المعلمین والمتأدیین من ابناء العاصمة الجديدة وكان طبيعياً ايضاً ان تسرب اخبار المجتمع الفكري في البصرة بين صفوف البغداديين ، فيتحدث العنيون بشؤون تلك النهضة عن المسجد الجامع والمربد ومحالس المناظرات والمناقشات وما ينثر فيها من الطرائف والتوادر والأخبار ، وعن سير اولئك النوازع الذين يبذلون الجهد الجبار في سبيل جمع اللغة وتركيز قواعد النحو ولم شتات الأدب والشعر القديم ، ويبنون قواعد النهضة العربية الاسلامية

ولم يمض على استقرار هارون الرشيد في احضار خلافته أكثر من

(١) ولد هارون الرشيد بن محمد المهدى في مدينة الري عام (١٤٨ هجري) .

عامين او ثلاثة حتى استقرت الاحوال وانتظمت الامور وازدهرت الحياة في البلاد ، بفضل من ساهم في تسيير دفة الحكم من رجال الدولة وفي مقدمتهم « يحيى بن خالد البرمكي » الذي شغل منصب الوزارة وأدار مقاليد الأمور بيد قادرة حازمة ^(١) وبدأ جو بلاط الخلافة يصفو ويروق ويتضخم بأكبر الشخصيات المتقدمة من شيوخ العلم والأدب والرأي بشكل يدعو الى الاعجاب والتقدير فكان من اريد ضمه الى هذه المجموعة النادرة فيه واحد من مشاهير علماء البصرة ورواة الادب والشعر يكون نداً لعلي بن حمزة « السكائي » معلم الرشيد وأحد مشايخ الكوفة البارزين فاستقر الرأي على استقدام كل من الأصمعي وابي عبيدة ليختار الرشيد أحدهما ؛ وأودع تنفيذ امر احضارهما الى « الفضل بن الريء » الحاجب ^(٢)

وقدم الاثنان الى بغداد في وقت واحد - عام ١٧٣ هـ على وجه التقريب ^(٣) - فنزل الأصمعي ضيفاً على صديقه الأمير « سعيد بن سلم الباهلي » الذي كان - يومئذ - مقرباً في بلاط الخليفة ؛ ونزل ابو عبيدة عند شخص آخر من اصحابه فاهم المجتمع العلمي البغدادي بخدمتها اي اهتمام ، وتبدلت الزيارات والخلافة بهما ، واجريت المقابلات

(١) كان يحيى بن خالد البرمكي من عباقرة الرأي والفكر وقد رضى الرشيد ثدي احدى نسائه فصار له اباً في الرضاة وهو الذي عني بتربيته وتأديبه منذ الصغر وبقي بجانبه حتى تولى الخلافة فصار وزيراً له .

(٢) كان الحاجب « الفضل بن الريء » هو الذي يعني بخاشية الرشيد ، ويستقدم من يريد مواجهته ، وينظم اوقات زيارة الوفود وم مقابلتهم الخليفة .

(٣) نعتقد بأن الأصمعي وابي عبيدة قدما بغداد في هذا التاريخ لأن الرشيد اختار الفضل بن الريء حاجباً له في عام ١٧٣ هجري ، وفي هذه الفترة كان وزير الرشيد « الفضل بن يحيى البرمكي » بجانب ايه ، وسرى الأصمعي بقابل الرشيد بوجود هذا الوزير معه .

بينها وبين علماء بغداد واساتذتها ، وانشغل الجو الفكري والادبي بهما
عدة أيام ثم اقسم الناس بينها الى جانبين ، كل جانب منها يفضل صاحبه
ويريده للمنصب الجليل الذي قدمه من أجله

والظاهر ان أخبار المنافسة والصراع العنصري بين الأصمعي وصاحبه في البصرة
كانت قد سبقت وصولهما بغداد فلما ورداها وجدا نفسيهما في جو يشبه
جو البصرة ، لا يختلف عنه في شيء ؛ فهنا جماعة من العرب ت يريد النجاح
للأصمعي وتشيد بذكر محسنه ودمائته خلقه وتعدد مثالب خصمه ؛ وهناك
جمهرة من الموالي والشيوخ بين تفضل ابا عبيدة وتنوه بغزاره علمه وتظهر
عيوب منافسه وما قاله الشاعر ابو نواس في تلك الفترة : « انهم لو
امكروا ابا عبيدة لقرأ عليهم اخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي
فليس غير بلبل يطربهم بنغماته » اما رجال البلاط ، فانهم
وقفوا صامتين أمام هذه الضجة ، تاركين الخيار لل الخليفة هارون الرشيد
ولكن الذي نلمسه من سير الحوادث ان البرامكة كانوا يتمنون في
سريرتهم ان يكون المقدم لهذا المنصب ابا عبيدة لأنه فارسي ؛ غير انهم
يعرفون ما فيه من سوء الطبع وسلطة اللسان وحدة تطرفه بشعريته ، مما
قد يشير لهم المشاكل التي هم في غنى عنها ؛ فوتفقا موقف المحايدين من
الامر ولم يعيروه كثير التفات ، واكتفوا بأن اقاموا مأدبة فخمة للرجلين ،
مظهريين لها جانب الود والاعجاب على حد سواء وكان الفضل بن
الربع يعرف اخلاق الرجلين حق المعرفة ، ويعتقد بأن الأصمعي أصلح
لمجالسة الخليفة من صاحبه ، ويؤيده في ذلك عدد من رجال البلاط ،
منهم صديقه سعيد بن سلم الباهلي ثم ان الفضل بن الربع كان في

خصوصة صامته مع البرامكة لأسباب يطول شرحها^(١) ، فليس من رغبته ان يزيد في حاشية البلاط شخصاً من الفرس الشعوبين ليكون عوناً للبرامكة عليه

وانتهت المشكلة بـأـ قرر ابن الريـع الحـاجـب تقديم الأـصـمـعـي قبل صاحـبـهـ إلى الرـشـيدـ ، وـهـوـ وـاثـقـ بـأـنـهـ سـيـرضـيـهـ وـيـعـجـبـهـ بـغـزـارـةـ عـلـمـهـ وـأـدـبـهـ فيـ أـوـلـ مـقـابـلـةـ تـكـوـنـ مـعـهـ ؟ـ فـإـذـاـ اـخـتـارـهـ وـرـضـيـهـ عـنـهـ اـنـسـ الطـرـيقـ اـمـامـ اـبـيـ عـبـيـدةـ ، وـانـحـلـ الـأـرـمـةـ وـفـيـ الـحـالـ أـوـعـزـ لـلـأـصـمـعـيـ اـنـ يـتـأـهـبـ لـمـواـجـهـةـ اـمـيرـ الـؤـمـنـيـنـ فـيـ مـجـلـسـهـ عـنـدـ اـوـلـ فـرـصـةـ ، فـأـصـلـحـ هـيـئـتـهـ ، وـلـبـسـ اـجـمـلـ ثـيـابـهـ ، وـقـدـ «ـ قـصـرـ الـخـلـدـ »ـ حـيـثـ يـقـيمـ الرـشـيدـ ؟ـ وـمـكـثـ فـيـ جـنـاحـ الـانتـظـارـ يـتـرـقبـ السـاعـةـ المـوعـودـةـ

كان هارون الرشيد - يومئذ - في السادسة والعشرين من عمره ، فـتـيـ فيـ رـيـانـ الشـابـ ، ايـضـ اللـونـ طـوـيلـ القـامـةـ ، فـيـ جـبـةـ بـيـضاءـ نـاصـعةـ ، وـعـيـنـيـنـ كـبـيرـتـيـنـ دـعـجـاوـيـنـ ، وـشـعـرـ اـسـوـدـ كـثـيـفـ يـتـجـعـدـ حـولـ قـلـنسـوـةـ سـوـدـاءـ مـلـثـاثـةـ بـعـامـةـ رـقـيـةـ مـنـ الـخـزـ الـأـسـوـدـ ، حـادـ الذـكـاءـ جـمـيلـ نـبرـاتـ الصـوتـ ؟ـ يـحـبـ الـعـلـمـ وـيـحـلـ الـعـلـمـ ، وـيـتـذـوقـ الـأـدـبـ بـوـجـهـ خـاصـ ، وـيـحـفـظـ الـكـثـيرـ مـنـ الشـعـرـ ، وـلـهـ سـلـيـقـةـ فـيـ نـظـمـهـ ، وـبـرـاعـةـ فـيـ نـقـدـهـ وـكـانـ تـقـيـاًـ يـصـليـ فـيـ الـيـوـمـ مـائـةـ رـكـعـةـ وـيـتـصـدقـ كـلـ صـبـاحـ بـأـلـفـ دـرـهـمـ ، وـيـسـكـيـ لـمـوـعـذـةـ وـلـاـ يـحـبـ الـمـرـأـ وـالـجـدـلـ فـيـ الدـيـنـ ؟ـ وـلـكـنـهـ حـادـ الـمـزـاجـ سـرـيعـ الـغـضـبـ وـالـنـقـمةـ

(١) كان يحيى بن خالد البرمكي يكره الفضل بن الريـع لأنـهـ شـدـيدـ الـاعـتـدـادـ بـنـفـسـهـ ، ذـكـرـ طـمـوحـ ، وـكـانـ اـبـنـ الـرـيـعـ يـكـرـهـ الـبـرـامـكـةـ اـيـضاًـ مـنـذـ كـانـ هـوـ حاجـاًـ وـوزـيراًـ لـلـخـلـيفـةـ الـهـادـيـ الـذـيـ أـرـادـ خـلـعـ هـارـونـ الرـشـيدـ مـنـ وـلـاـيـةـ الـعـهـدـ .ـ فـلـماـ تـوـلـ الرـشـيدـ الـخـلـافـةـ تـمـكـنـ يـحـيـيـ الـبـرـمـكـيـ مـنـ اـقـصـاءـ الـفضلـ بـنـ الـرـيـعـ عـنـ النـاـصـبـ مـدـةـ ثـلـاثـةـ اـعـوـامـ (ـ اـنـظـرـ الـطـبـرـيـ سـنـةـ ١٢٣ـ هـ)ـ .ـ

اذا استثير ، سريع العفو والرضى اذا استرضي بلبةة ؛ مرهف العاطفة والشعور ، ندى الكف الى أبعد حدود الندى ؛ وهو حكم شابه وحيوته يسرف باللذة الى أقصى ما يبيحه الشرع للمسلم وله عدا ذلك صفات اخرى ليس هذا موضعها^(١)

اما الأصمعي فكان قد ناهز الثمينين ، ولم يكن الشيب قد وخط عارضه بعد ، متماسك الجسم ، متدفع النشاط ؛ في روح مرحة تتقد حيوية وظرافاً ، وذاكرة ما زالت في قوتها تلتقط وتحمّل وتذكر ما كنّت وادخرت؛ ورغبة جامحة نحو الكسب ، وطموح الى الشهرة والمباهلة وقد حدثنا هو عن شعوره المضطرب ساعة وصوله قصر الخاد ، وكيف كانت الآمال تملأ جوانب صدره ، والأحلام تبشره بتحقيقها^(٢)

وطال به الانتظار يومين او ثلاثة ، وهو في ضيافة حرس القصر ، يحدّثهم ويسامرهم بنوادره وطرائفه حتى ألفوه فأحبوه وأكرموه ورغبو في مجاحده وتوقيه . ثم كانت ساعة اللقاء فخرج عليهم الخادم في ليلة كان الرشيد يسمّر فيها مع وزيره الفضل بن حبيبي البرمكي ، فقال هل بالحضررة أحد يحسن الشعر ؟؟ قالوا هذا الأصمعي ققام اليه ، وهو يقول في نفسه « أنا صاحبك الذي طلب فأدمي وحفظ فاتقن »^(٣). فأخذ الخادم بيده نحو البهو الذي يجلس فيه الرشيد ، وقال له ادخل ، عسى الله ان يختتم لك بالاحسان لديه

روى لنا صاحب كتاب « العقد الفريد »^(٤) عن لسان الأصمعي

(١) اختلف المؤرخون في وصف اخلاق الرشيد والأصح هو ما ذكرنا

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٦

(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥

نفسه ، وصفاً مسبياً جداً لتلك المقابلة ، وما دار بينه وبين الخليفة وزيره الشابين من أحاديث أدبية طريفة ومساجلات فكرية دقيقة ، تعطينا صورة واضحة عن اجواء السمو في قصر الرشيد التي لبث فيها صاحبنا - بعد ذلك - خمسة عشر عاماً أو يزيد

ملخص ذلك أن الأصمعي دخل البهو المزين بالألوان والذهب والفرش النادرة ، فوجد الخليفة في أبهى زيه جالساً في الصدر ، وبجانبه وزير البرمكي ، وحولهما الشموع الضيئه على قصب المناور والخدم وقف على مقربة منها ؛ فأحس في نفسه شيئاً من الروعة ، ولكنّه تقدم إلى حيث يسمعون صوته؛ ثم سلم ، فردا عليه السلام ، وأعمره الرشيد بالجلوس ريثما تسکن نفسه ، فجلس قليلاً ، ثم بدأ بالكلام مخاطباً الرشيد « يا أمير المؤمنين اضاءة كرمك ، وبهاء مجدك مجيران لمن نظر إليهم من غير اعتراض اذية له اتسألكي فأجيب أم ابتدئ فأصيب ، بيمن أمير المؤمنين وفضله !! » (١)

فتسم الفضل ، ثم قال للرشيد ما أحسن ما استدعي الاختيار ،
ولقد استسهل الفاتحة ، وأجدر به ان يكون محسنا انه والله يا امير
المؤمنين ، قدم مبرزاً محسناً في استشهاده ، على براءته من الحيرة ، وأرجو
ان يكون ممتعأ

قال الرشيد أرجو ذلك ؟ ثم قال للأصمي أدن أشعار أم راوية ؟؟ قال راوية يا أمير المؤمنين قال لمن ؟؟ قال الذي جد وهزل بعد ان يكون محسناً قال ما رأيت ادعى للعلم ، ولا اخبر

(١) اراد الأصمعي بكلمة و «فضلة» تورثية بين الأفضال وبين وجود الوزير الفضل وهي التفاتة جليلة اعجبت - لا شك - الفضل بن مجبي البرمكي .

بمحاسن بيان فتنته الأذهان منك ، ولئن صدرت حامداً أثرك لتعرفن الفضل
موججاً إليك سريعاً

سأله الرشيد عن ارجوزة للشاعر « رؤبة بن العجاج » يمدح فيها أحد
خلفاء بنى امية ، فأنشده الأصمعي او لها حتى اذا وصل إلى مدح بنى امية انتقل
حالاً إلى ارجوزة للشاعر نفسه في مدح جد الرشيد « أبي جعفر المنصور »
فسر الرشيد الى هذه الالتفاتة البارعة

ثم سأله عن قصيدة للشاعر « عدي بن الرقاع » في مدح « الوليد
ابن يزيد الأموي » والتي مطلعها
عرف الديار توهماً فاعتادها

فراح الأصمعي يجري في انشادها فكان الرشيد يوقفه عند كل بيت
منها ويقول له : ماذا قال الوليد عندما سمع هذا البيت ؟؟ فيجيئه الأصمعي ،
وكانه كان حاضراً في ذلك المجلس ، فيعجب الرشيد باجوبته وصحة
روايته ، ويناقشه احياناً في قوله - وكان الرشيد قد درس اخبار هذه
القصيدة - ثم يسأله عما قال الشعراة الحاضرون في ذلك المجلس حين
إنشادها ، فيجيئه الأصمعي بما كان قد جرى ، فيقول احسنت

ثم انتقل الخليفة إلى شاعر آخر كاب يحفظ أكثر شعره وهو « ذو
الرمة » وقال له هل رويت للشاعر ذي الرمة شيئاً ؟؟ قال الأصمعي
الأكثر يا أمير المؤمنين قال الرشيد والله لا أسألك سؤال امتحان ،
ولا كان هذا عليك ، ولكنني اجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفائك ،
وإلا فلا ضيق عليك بذلك عندي ثم سأله معنى بيت غريب لهذا
الشاعر ، فانطلق الأصمعي في تفسيره ، وأتى بالشهاد والأدلة والحجج ،
وما زال كذلك حتى قال له الرشيد اصبت

ثم تحول بعد ذلك الى ذكر الشاعر « الشماخ بن مزرد » وسئل عن
قصيدة من قصائده فأنشدها الأصمعي له
وهكذا ظل الرشيد يسأل والأصمعي يجيب ، والفضل بن يحيى يصفى ،
ويعلق أحياناً على أقوال هؤلاء الشعراء مداعباً الرشيد باعتراضات خفيفة تشير الى
بداوة العرب وسذاجتهم ، فيرد عليه الرشيد مدافعاً عن الفكر العربي ومعرضاً
بالمقومية الفارسية

ودام المجلس طويلاً حتى قال الرشيد للأصمعي « أمسك ، واستغفر
ربك ثلاثةٌ لقد وفيت ، وامتعت منشداً ، ووجدتك محسناً في ادبك ،
معبراً عن سرائر حفظك » ثم نهض ، فنبادر الخادم ، فجاء صالح ،
حتى نزل عن فراشه ، وقال : يا غلام ، علي بصالح الخادم ، فجاء صالح ،
 فقال له يؤمر للأصمعي بتعجيزه ثالثين الف درهم في ليلته هذه فقال
الفضل بن يحيى لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد مثله
لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين . ثم أمر له بتسعة وعشرين الف
درهم فخرج صاحبنا وفي يده مبلغ من المال لم يحمل مثله قبل ذلك (١)
كانت هذه الجلسة أشبه بامتحان صعب خرج الأصمعي منه ناجحاً بجدارة
وتفوق وهي في الحقيقة مقابلة تاريخية بالنسبة له ، غيرت محجرى حياته ،
وفتحت أمامه باباً واسعاً نحو عالم جديد معبدة طرقه ومسالكه نحو
الشهرة والجد والغنى

وبعد أيام قليلة منها اجتمع أبو عبيدة والأصمعي عند الرشيد في مجلس عقد
نهاراً ، فجادلها بعض الأحاديث ؟ ثم قال لأبي عبيدة يا معمر ، بلغني
ان عندك كتاباً حسناً في صفة الخليل ، قال نعم ؟ قال الأصمعي ان

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٨ .

يسمح أمير المؤمنين ان يحضر فرساً فيقوم كل واحد منا ويضع يده على اعضائه واحداً واحداً ويسميه وينشد ما قيل فيه فأمر الرشيد باحضار فرس فأحضر ؛ فقال الأصمعي لأبي عبيدة قم فسم لنا أعضاءه ؛ فقال أبو عبيدة أنا لست بطاراً ، وإنما هي لغة أخذتها عن العرب فقام الأصمعي ، وصار يضع يده على كل عضو منه ، ويقول اسمه ، وينشد ما قال الشعرا فيه ، حتى اتاه فقال الرشيد لأبي عبيدة ما تقول فيما قال ؟؟ قال قد أصاب في بعض وأخطأ في بعض والذى أصاب فيه شيء نعلم ، والذى أخطأ فيه لا ندري من أين جاء به (١) وفي رواية أن الرشيد قال للأصمعي حين انتهى من ذلك « خذ الفرس لك » (٢)

وبعد ان يعود ابو عبيدة الى البصرة ، دعاه الفضل بن الريبع الى مجلسه وأكرمه من ماله الخاص ؛ ثم استحصل له من عند الخليفة منحة كبيرة ترضيه وتخفف عنه وقع تلك النتيجة على نفسه فعاد الى البصرة ، وبقي الأصمعي في بغداد ليكون بجانب امير المؤمنين (٣)

في مجالس الرشيد

كان الرشيد من أشد الخلفاء عناءة بتنظيم مجالسه والمحافظة على نظمها وآدابها ، رغم كثرتها وتنوعها واختلاف القواعد في عقدها اهمها وأخطرها « مجلس الأسرة » الذي ينظر في شؤون السياسة العليا المتعلقة

(١) نزهة الأنبياء : ١٤٥ .

(٢) ابن خلkan : ج ٢ ص ٣٤٧ – رأينا هذه الرواية في عدة مصادر ، وقد زعم البعض ان هذا الحادث جرى في مجلس الفضل بن الريبع لا في مجلس الرشيد .

(٣) ابن خلkan : ج ٤ ص ٣٢٧

بأمر العرش والبيعة بولاية العهد وما شابه ذلك ؛ وهو مجلس استشاري لا يحضره غير الشخصيات الكبيرة من أسرة بنى العباس ، ولا يعقد إلا في المناسبات الخطيرة القليلة الوقع

وهنالك « مجالس النظر » في شؤون الدولة العامة ، وهي كثيرة تعقد باستمرار للنظر في امر من امور سياسة الدولة ، كإرسال الجيوش للجهاد والفتح ، او لاخماد ثورة في ناحية من نواحي المملكة ، او في تبديل اداري وتنقل بين الولاية والعمال ، او تعيين اشخاص جدد في مناصب خطيرة ، الى آخر ذلك ولا يحضر هذه المجالس غير وزير التفويض - ويكون عادة من البرامكة - ومن يطلب حضوره من ذوي الاختصاص في الأمر الذي عقد المجلس من اجله ، للمشورة وأخذ الرأي

ثم المجالس الخاصة وتدعى « مجالس الرشيد » التي تعقد له في أوقات فراغه ، وهي على انواع منها ما يكون خاصاً بالفقهاء والعلماء ، ومنها ما يكون للأدباء والشعراء ؛ وبعضها يكون خاصاً بالولاية ورجال الادارة وقادات الجيوش وهي أشبه بـ مجالس ثقافية علمية لا تخلي من ثمرات يفيد منها الرشيد علمأً او رأياً او خبراً وليس لها وقت معين تعقد فيه ، ولكنها تجتمع له المناسبات بين فترة وأخرى كلما سمح وقته بذلك

ولكل طبقة من طبقات هذه المجالس الخاصة اباس معين يتحلى به عند الحضور ويكون الرشيد رئيس ذلك المجلس المنعقد ، والمدير لدفة المباحثات والكلام فيه ، فلا يتحدث احد من الحاضرين إلا بإذن منه ، ولا تجري المناحرات الا بموافقتنه وبعد سؤال يلقيه هو بنفسه على احد الحاضرين ، او على جماعة منهم ، او عليهم جميعاً ولا يسمح لأحد ان يتجاوز حدود الآداب السنونية ، ومن يخطئ يعاتب او يعنف او يطرد

من المجلس

تكلم الأصمي مرة في أحد هذه المجالس ولم يراع قواعد الآداب فقال له الرشيد - بعد انفصال المجلس - « يا عبد الملك ، انت أحافظ علينا ، ونحن أعلم منك لا تعلمونا في الملا ، ولا تسرع الى تذكيرنا في اخلاقنا ، واتركنا حتى نبتدىء بالسؤال ، فإذا بلغت بالجواب قدر استحقاقه فلا تزد واياك والبدار الى تصديقنا وشدة التعجب مما يكون لنا وعلمنا من العلم ما تحتاج اليه على عتبات النابر وفي اعطاف الخطب وفواصل المخاطبات ودعنا من مخاطبة حoshi الكلام وغرائب الأشعار ؛ واياك واطالة الحديث الا ان نستدعي ذلك منك ومتى رأينا صادفين عن الحق فأرجعنا اليه ما استطعت من غير تقرير باخلطا ولا اضجاع بطول التردد . » فقال الأصمي يا امير المؤمنين ، اني الى حفظ هذا الكلام أحوج مني الى كثير من البر ^(١)

ومن مجالسه ايضاً ما يسمى « مجلس المصاحبة » او المائسة ، وهو مجلس يعقد احياناً في النهار في الساعة التي يحس بها الخليفة بتعب نفسي او ملل فكري ؛ فيدعوه اليه من يأنس بمجاسته وترتاح اليه نفسه من أحد الامراء المقربين او العلماء البارزين او الأدباء الظرفاء او الشعراء او غيرهم ويكون هذا المجلس عادة من شخص واحد أو شخصين أو بضعة أنفار . ولا يتشرط في هذا المجلس لباس خاص ، ولا تفترض فيه قيود شديدة للمجالسة وهو أشبه بمحالس « السمر والمنادمة » التي تعقد عادة في الليل وتكون فيها حرية الكلام والتتدر والملح واسعة كل السعة وكان الرشيد قد خصص لهذا اللون من المجالس بيت مال خاص سماه « بيت مال

(١) المقرizi : ٥٩ .

السرور » لتقديم المنح والأعطيات الى هؤلاء السمار والندياء المقربين كما ارتاحت نفسه

أما مجالس اللهو والفناء والمضحكتين واللعل بالشطرنج وغيرها فلها طاب آخر وحديث يطول شرحه ولا حاجة هنا الى ذكره بيد ان الذي يستحق الذكر هنا ، هو أن الرشيد كان من أسعد الخلفاء حظاً في كثرة من اجتمع في بلاده من نوابع عصره ومؤسس تلك الحضارة الاسلامية المجيدة يقول الجاحظ « اجتمع له أقطاب الجد والمذل ، فكان وزير داهية السياسة والتدبير يحيى بن خالد وابنه الفضل وجعفر اللذار لم ير مثلها سخاءً وسوراً ؛ وكان قاضيه أبو يوسف القاضي صاحب الفتاوى وفقيه زمانه ومؤلف كتاب (الخراج) النادر في نوعه ؛ ونديمه عم أبيه العباس بن محمد الماشي ، ومن قواده يزيد بن مزيد الشيباني وهرمة بن اعين ، ومن جلاسه الأصمي عبد الملك بن قريب صاحب التوارد والأخبار وأذب من تحدث وحكى ؛ وحاجبه الفضل بن الريبع وهو أئمه الناس وأشدهم تعاظماً ؛ ومن أطبائه جبريل بن مختيشوع ، ومن شعرائه ابو العتاهية ومروان بن ابي حفصة وأبو نواس ، وهم أمراء الشعر في عصره ، ومن معنئه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ؛ وضاربه ززل ، وزامرته برصوم ، ومضحكته ومؤسسه ابن ابي مرريم المدني » (١) وغير هؤلاء آخرون كثيرون وقد حدثتنا الأخبار عن اسماء عشرات من الفقهاء والعلماء والأدباء ورجال السيف والرأي والأدارة

ولا نبتعد عن الواقع اذا شبّهنا بلاط الرشيد هذا بيلات « لويس الرابع عشر ملك فرنسا وأكبر عاهل في اوروبا بين عامي ١٦٤٣ -

(١) تاريخ بغداد : ج ١٤ من ١١

(١٧١٥ م) وان كان الرشيد قد سبقه بـألف سنة تقريباً فقد اجتمع لكل منها في بلاطه عباقرة العصر وقادة الفكر فوزير لويس الرابع عشر « مزان » داهية اوربا السياسي والاداري اشبه بيعيى بن خالد في زمانه في معظم الوجوه؛ وشراوئه « راسين ، ولافوتين ، وبوالو » كأبي العتاهية ، ومروان بن ابي حفصة ، وابي نواس في حكمهم وغزلم واتاجهم ؛ وادباء في نقد فن الشعر « روشفوكو ، ولابروير ، وفليشيه » اشبه بالكسائي ، ويحيى بن المبارك اليزيدي ، وعمرو بن كلثوم العتابي ، وجليسه « مولير » في مسرحياته الفكهة الطريفة قريب الشبه بالأصمعي في رواياته ونواودره عن الاعراب وقد اطلق الفرنسيون على عصر لويس اسم « عصر الشمس والنور » كما اطلق العرب اسم « العروس » على ایام هارون الرشيد لجلالها وبهجتها ورقي العلم والأدب والفن فيها على اـ ما اجتمع في بلاط الرشيد من العباقرة والقادات اـ أكثر ما اجتمع في قصر لويس رغم الفارق في الزمن

بدأ الأصمعي في أول عهد اتصاله بيلات الرشيد يحضر مجالس العلم والأدب مع غيره من زملائه ؛ ثم صار يشتراك في المنازرات والجدل حول الموضوعات التي يحيدها كلا ستحت الفرص وكان كعادته ، لا ينافق الا فيما يعلم علم اليقين ، ولا يصر على رأي الا بعد الوثوق من صحته ، فكان التوفيق حليفه في اـ أكثر المواقف ؛ فاتجهت اليه الانظار وصار يحسب له في هذه المجتمعات حساب ثم بدأ الرشيد ، شيئاً فشيئاً ، يدرك قيمة الأصمعي النابغ ، ويلتفت اليه حين ييدي رأيه ، ويصفي بكله الى سحر اشاده للشعر ، ويعباً بمناقشاته مع الآخرين ، حتى صار يعجب كل الأعجاب ببلاقته ومنطقه و بغزاره علمه و خفة روحه وسرعة بديهته قيل

سأله الرشيد يوماً عن كلمة « محرم » في بيت الشاعر « الراعي » :
 قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أزَّ مثله مخدولاً
 فقال الكسائي كان محرماً بالحج ؟ قال الأصمعي هذا خطأ ؟ فأصر
 الكسائي على رأيه ؛ فقال الأصمعي فقولهم
 قتلوا كسرى بليل محرماً تركوه لم يتع بکفن
 هل كان كسرى محرماً بالحج وهو غير مسلم ؟ قال الكسائي فـا
 معنـى (محرماً) هنا اذا ؟ قال معناه لم يحل من نفسه ما يوجب القتل .
 فاقتصر الكسائي وقال له الرشيد « ما تطاق في الشعر ، يا أصمعي » ؛ ثم
 التفت الى الحاضرين وقال لهم « لا تعرضوا له في الشعر » (١)
 وفي مجلس آخر ، قال الرشيد انشدونا ما قيل في وصف العقاب ؟
 فسكت القوم ، ولم يأتوا بشيء ، فقال الأصمعي احسن ما قيل فيها
 باتت يئرقها في وكرها سغب وناهض يخلص الأقوات من فيها
 وقول امرئ القيس
 كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والخشـف البالي
 فقال له الرشيد « ما بعل (اختار) القوم في شيء الا وجدت
 عندك فيه شيئاً » (٢)
 وانشد احدهم ابياتاً حتى وصل الى
 وذات هدم عار نواشرها تصمت بملاء تولباً جذعاً
 فقال له الأصمعي صحت ، انتا هو (جدعـا) بالدال لا بالذال
 ومعناه « سيءـ الغذـاء » واصر المنشد على قراءته ، فقال الأصمعي هو كـا

(١) السيرافي : ٥٩ - تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٦ .

(٢) ديوان الماني : ج ٢ ص ١٤٢ .

قلت لك ولو نفخت بألف شبور ثم احتكموا فكان الصواب فيما قال
 الأصمعي قال له الرشيد «انت شيطان الشعر»^(١)
 وانشد الكسائي في حضرة الرشيد اياتاً للشاعر «فنون التغليبي»
 حتى وصل الى قوله

ام كيف ينفع ما تعطى العلوق به ريحان انف اذا ما ضن بالبن؟؟
 فرأها (ريحان) بفتح النون فقال الأصمعي هي بضم النون؛ وتجادلا
 في ذلك ، فحكم من كان في المجلس بصحة قول الأصمعي^(٢)
 ودار الحديث مرة حول معنى بيت غريب فاختطف الجالسو في
 تفسيره ، وجاء دور الأصمعي في الكلام فسره بغير ما فسره الآخرون
 وأتى بمعنى جديد في تفسير كلامه ، وأوضح ذلك بمرادفات ألفاظه ، وروى
 الأشعار التي جاءت فيها تلك الألفاظ حتى أتم المطلوب فلم يخف الرشيد
 اعجابه بعلمه وقال له «ان الغريب عندك ليس بغريب» قال الأصمعي
 الا تكون كذلك يا امير المؤمنين ، وقد حفظت للحجر سبعين اسمأ^(٣)؟؟
 ويقول الأصمعي كنا عند الرشيد ، وبحضرته ابو يوسف القاضي ؛
 وكان الحديث عن صلة اللغة بالاجتهد الفقهي ، فسألت ابا يوسف عن
 الفرق بين « عقلت القتيل » و « عقلت عنه » فلم يفهم ، قلت له
 (عقلت القتيل) اذا اديت ديته ، و (عقلت عنه) اذا ألمته دية
 فاديיתה عنه فاستحسن ذلك^(٤)

ما كان الأصمعي مجهولاً بين زملائه رجال العلم والأدب قبل ان يحضر مجالس

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) كتاب المجالس : ٧٢ .

(٣) المزهر : ج ١ ص ١٨٩ - الصناعتين : ٢٥٧ .

(٤) نزهة الألباء : ١٦٥ .

الرشيد معهم ولكنهم ما كانوا يعرفون فيه تلك الكفاءة واللباقة التي بدت منه أخيراً إليهم ، وقد استعار هو بكل ما لديه من هبات طبيعية جلب انتظارهم إليه فلم يمض طويلاً وقت عليه حتى برزت شخصيته بينهم ، فأحبوه وقربوه ، وأكرموه في حضوره ، وتقدموه في غيابه ، وربما احتاجوه فأرسلوا إليه من يدعوه ، أو بعثوا له بمشكلة استعصت عليهم ليجيب فيها قيل إن الرشيد سأله يوماً عن صدر البيت الذي عجزه

« ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟؟ »

فلم يجرب أحد من حاضري مجلسه ؛ فقال أين الأصمعي ؟؟ قالوا مريض في بيته ، قال أحلوا إليه ألف دينار لنفقته وسد حاجته وأكتبوا بهذا إليه فحمل الرسول المثال والسؤال ، وأتى دار الأصمعي بهما ، فرد الجواب على الرقة يقول انشدنا خلف الأحرم لأبي النشاشي الأعرابي وداويبة تيهاء يخشى بها الردى سرت بأبى النشاشي فيها ركابه ليدرك ثاراً أو ليكتب مغنا جزيلاً وهذا الدهر جم عجائبه وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟

وروى القصيدة كلها (١)

وازداد اعجاب الرشيد به على مدى الأيام ، حتى صار يعتب عليه إذا تغيب عن مجلسه وقتاً ما ، ويشير إليه بالجلوس اذا نهض القوم واقضوا ، ليخلو به ويتحدث معه ؛ ويسأله اذا زل ، ولا يغضب عليه يقول دخلت على الرشيد ومجلسه حافل - وكنت قد غبت عنه زمناً فقال : ما اغفلك عنا يا أصمعي وأجفاك لحضرتنا !! قلت والله يا أمير المؤمنين ، ما

(١) المزهر : ج ١ ص ١٠١

« لاقني » بلاد بعده حتى أتيتك ؟ فأمرني بالجلوس ، وسكت عنى
 فلما خلا المجلس نهضت ، فأشار إلى بالبقاء حتى لم يق غيري ، ثم قال :
 يا أبا سعيد ، ما معنى قولك « لاقني » ؟؟ قلت امسكتني ، وانشدت :
 كفاك كف ما تليق درهماً جوداً وأخرى تعطي بالسيف دما
 قال « هذا حسن ، وهكذا فكن ؛ وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا ؛
 فإنه يصبح بالسلطان ان لا يكون عالماً فاما ان أسكنت فعلم الناس انني
 لم افهم اذا لم أجب ، وأما ان أجيب بغير الجواب فعلم من حولي أني
 لم أفهم ما قلت » (١)

ولكن هذه المكانة في بلاط الرشيد ، وتلك الحظوة عنده ، لم ترضي
 الأصمعي كل الرضا ، فقد كانت نفسه تحس بشيء من وطأة القيود
 المفروضة على الحاضرين في آداب هذه المجالس العلمية ، والتقييد بقواعد
 الكلام فيها ، والتحفظ من الواقع في الخطأ أمام هذا الخليفة الأنبياء
 بالفاظه ، السريع الالتفاتة إلى هفوات محدثيه ، ولكل لسان هفوة اذا
 طال حديثه سأله مرة عن مسألة يعرفها فقال ساهياً « على الخبرير
 سقطت ، يا أمير المؤمنين » فأجابه فوراً « اسقطك الله على رأسك »
 فخجل الأصمعي من غلطته (٢)

ثم ان الأصمعي - كما رأينا - اشبه بالطائر المفرد ، قلما يغنى حبساً
 في قفصه كما يفرد طليقاً في ارجاء روضه ؛ فلم يستطع في مجالس الرشيد هذه
 المقيدة ان ينطلق على سجيته ، وينقل كما تشهي نفسه من لون الى لون
 في الأدب ؛ حتى فتحت له ابواب مجالس الصحابة والسمر والمؤانسة ، حيث

(١) تاريخ بغداد : ج ١٤ ص ٩٠

(٢) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ١١٧

تنسخ الحرية وتنعدم التكاليف وترفع القيود وتغدق المنح والهبات من « بيت مال السرور » ؟ فأقبل على دنيا الرشيد مرح النفس مرتاح الفكر ، يتألق بمواهبه ، ويملاً أجواء قصر الخلد بنوادره ورواياته وملحنه وانشاده الشعر الجليل ، وكل ما كان يدخله لنفسه ويدخل به على الغير ، حتى تتمكن من قلب الرشيد ونال اعجابه إلى حد قوله له : « لا حسن لدنيا لا يكون فيها مثلك ، يا أصمعي » (١)

قيل انه كان يفتّن في إلقاء نوادره في مجالس الرشيد هذه ، ويتألق بجمال صوته وحسن القائه فتهفو إليه الأسماع فإذا نسب نادرة منها إلى قبيلة معينة تكلم بلهجتها كأنه واحد منها أو اعرابي من بينها ؛ وإذا عزّها إلى اعرابي مجھول ، ألبسها ثوب البداؤة ، وأضفى عليها خشونة الصحراء بألفاظه وعباراته ووصفه للأشياء ، وإذا رواها عن بعض أهل الحضر كساها لوناً من ألوان الحضارة وترف المدينة ، واستعمل اصطلاحات ذلك البلد الذي يروي الحكاية على لسان أهله وإذا انشد شعراً اختار المناسبة له ، ثم يلقيه فكأنه يعنيه بذلك الصوت الساحر وهو من أمر الناس في خلق المناسبات لما يريد أن يقول أو ينشد ، ومن أبرعهم في تغيير شجون الحديث إلى ما يريد عرضه على سامعيه من رأي أو فكر قال عنه الماحظ « الأصمعي أذب من تحدث وحكى » وزامله اسحاق الموصلي في بلاط الرشيد اعواماً فقال « عجائب الدنيا معروفة ، منها الأصمعي » (٢)

ويكاد يجزم الباحث المدقق في سيرة كل من هارون الرشيد والأصمعي

(١) ديوان المعاني : ج ١ ص ٣٠٤ .

(٢) الزهر : ج ٢ ص ١٢٧ .

بأنها شخصان خلق كل منها لاتمام سعادة صاحبه الروحية . فالأصمعي الغني بعلمه وأدبه تطمح روحه كل الطموح الى بلوغ الشهرة والجد والخلص من الحاجة والفقر والوصول الى الثراء والغنى ، وقد وجد في شخص الرشيد ومجالسه وسخاء يده ضالته والرشيد صاحب المجد والسلطان والمال ، يتعشق الشعر ويفهمه ، ويطرد للنادرة ويقدرها حق قدرها ، ويستمتع بالملحة ويضحك لها بروح فتية وذكاء متيقظ وقاد ؛ وقد وجد في الأصمعي جليسًا نادر المثال في تقواه ونظافة لسانه ، وغزارة علمه وأدبه ، ووفرة روایته وتضلعه في الشعر والنواذر والأخبار ؛ فاصطفاه وأحبه ، وقربه منه وغمراه بجوده وعطائه ؛ وسمح له ب مقابلته متى أراد وفي أي وقت شاء ؛ ولم يعامل أحداً من زملائه العلماء بمثل هذا غير أستاذه ومؤدبه منذ الصغر « علي بن حمزة الكسائي » وربما أنس بالأصمعي أكثر منه

ولم يجحد الأصمعي هذا اللطف والأنسان من قبل الرشيد ، فأحبه بكل قلبه ، و Axel الصحبة والوفاء حقاً ، ولم يحجم عن زيارته ومنادته وبذل ما لديه امامه من رأي وعلم وأدب وقد رأيناه يدخل اليه أحياناً في وقت طعامه ، وأثناء مرضه ، وساعة حزنه وتفكيره ، ويتحن له الجواري اللاتي يريده تسريهن أو شراءهن للخدمة ثم رأيناه يطلع على بعض اسراره الخاصة ، ويفتي بيته وبين أقرب الناس اليه ؟ ويقيم معه اذا أقام ، ويرحل اذا رحل ، ويحج اذا حج ، ولا يفارقه ولا يتبع عنه الا في فترات مقطعة تقتضيها الضرورات والظروف الملزمة . كل ذلك مع الاحتفاظ بآداب المجالسة ، والاحترام لمقام الخلافة

وللأصمعي روايات كثيرة لا تحصى ، حدثنا فيها عن صلاته بالرشيد في مجالسه ببغداد والرقّة ، وفي أسفاره الى جوانب دولته ، عدا الغزوat والمحروب ،

فإن الأصمعي لم يكن من رجالها وفيما يأتي بعض تلك الروايات التي لا تخلو من تأييد لرأينا هذا ووصف للصلة التي ارتبطت بين الرجلين :

قال دخلت على الرشيد مرة وهو يأكل الفالوذج ، فقال إيه يا أصمعي ، ماذا قال الأعراب في هذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين وأين للأعراب مثل هذا ؟؟ وكان أطيب طعامهم ما وصفه « مزد بن ضرار »

ولما مضت أمي تزور عاليها هجمت على العكم الذي كان تمنع خلطت بصاعي حنطة صاع تمرة إلى صاع سمن فوقها يتربع وذيلت أمثال الأنثافي كأنها رؤوس رجال قطعت لا تجمع وقلت لبني بشري اليوم انه حمى آمن ما تخاف وتفزع فإن كنت مصفوراً فهذا دواه وأن كنت غرماناً فذا يوم تشبع فضحك ودفع الصحن الي وقال كل يا أصمعي ، فذا يوم تشبع (١) ودخلت عليه يوماً ، وهو محوم ، فقال انشدني شرعاً مليحاً قلت أرصنينا فحلاً يريده أمير المؤمنين ، أم شجيأ سهلاً ؟؟ قال غزاً بين السهل والفالح . فأنشدته للعديل بن الفرج العجلي

صحا عن طلاب البيض قبل مشيه وراجعاً غض الطرف فهو خفيض كأني لم ارع الصبا ويرقني من الحي احوى المقتلين غضيض دعاني له يوماً هو فأجابه فؤاد اذا يلقى المراض مريض لمستأنسات بالحديث كأنه تهلك غرّ برقة وميس

قال لي أعدها ، فما زلت اعيدها عليه حتى حفظها واستأذنت بالدخول عليه مرة ، فوجده يقرأ ورقة ويبكي فلما رأني

(١) المقد الفريد: ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الأغاني : ج ٢٠ ص ١٩

قال اجلس ، فجلست ، فقال أرأيتني ابكي ؟ قلت نعم ، قال أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ؟ ثم رمى إلى القرطاس وقال أقرأ ، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية يقول

هل انت معتبر بن خليت منه غداة مضى دساً كره ؟؟
وبمن اذل الموت مصرعه فتبرأت منه عشائره ؟؟
اين الملوك وain غيرهم صاروا مصيرأ انت صائره
تل ما بدا لك ان تناول من الدنيا فار الموت آخره

ثم قال يا اصمعي ، كأني والله اخاطب بذلك دون الناس - وكان الرشيد
غزير الدمع عند الموعظة (١)

وفي ذات يوم ، أمطرت السماء بعد انحباس ، فاستبشر الناس ،
وكلت اسامر الرشيد وحدي فقال اعندك شيء بمناسبة نزول المطر بعد
انحباسه ؟؟ قلت عندي ما اقوله ، وأخشى ان يسمعه جعفر بن يحيى ؛
قال ما هو ؟؟ قلت حدثني اعرابي قال اصابتنا سنة مجده ، وعندهنا
رجل غني وله كلب ؛ فجعل الكلب يعوي جوعاً ، فأنشد صاحبه يقول
تشكري الي الكلب شدة جوعه وبه مثل ما بالكلب او بي اكثر
فقلت لعل الله يأتي بغيشه فيضحي كلانا قاعداً يتأنمر
كأني امير المؤمنين من الفنى وأنت من النعمي كأنك جعفر
فأغرق في الضحك وقال قاتله الله من اعرابي (٢)

ودخلت الى مجلسه انا و محمد بن علي المعروف بأبي حفص الشترنجي ،
فلم نجده ، فجلسنا ننتظره حتى خرج علينا وهو كالمتغير النفس ، فجلس

(١) المسعودي : ج ٦ ص ٣٥٩ .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٠٤

وقال ايکما قال بيتاً وأصاب المعنى الذي في نفسي فله مني عشرة آلاف درهم ؟ فقال ابو حفص

مجلس يألف السرور اليه لحب ريحانه ذكراك
كلا دارت الزجاجة زادته حيناً ولوعنة فبكاك

قال احست ، قلت

لم ينزلك المني بأن تحضرني وتجافت امنيتي عن سواك

قال احست ، ثم قال هو

فتمنيت ان يغشيني الله نعاً لعل عيني تراك

قلنا يا امير المؤمنين انت اشعر منا فجوائزنا لك ، ففضحك وقال لا ،
انما جوائز كما لكما (١)

واختلف الرشيد يوماً مع عيسى بن جعفر العباسي في اي الرطب اطيب ، فقال الرشيد : هو رطب (القربيتا) وقال عيسى : هو (السكري) ، وقررا الاختقام إلي ، وأرسلا رسولهما ينشدني ، فجئت ؛ ولكنني قبل ان ادخل عليهما سألت الرسول عن سبب دعوتي فأخبرني بالأمر ، فدخلت ، فقصا علي المسألة وطلبا الجواب قلت : ان (القربيتا) أجود من السكري ، وقد كنا في البصرة صبياناً نلعب بالنوى فنجعل نوى القربيتا دنانير ونوى السكري دراهم فعطي نواة من القربيتا ونأخذ عشرين من سائر النوى ، ففضحك الرشيد لهذا الحكم المعلى بالأدلة (٢)

وبعث الي الرشيد من الرقة وأنا في بغداد ، فتوجهت اليه بأمر من

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٩ - كان ابو حفص لاعب شطرنج ماهر وهو مولى المهدى بن المنصور - وقبل ان اسمه عمر بن عبد العزيز .

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٨٣ .

ابنه الأمين ، فلما دخلت عليه ، قال قد اشتقت اليك ، وعندي
جاريتان اهديتا الي ، فأريدهك ان تختنها ؟ فامتحنتهما وفضلت احداهما على
الأخرى ؟ ثم حدثته طويلاً وسلتيه وبقيت بجانبه ونزل منه عطاءً جزيلاً^(١)
ودخلت عليه يوماً ، وكنت قد اقطعت عنه بالبصرة حولاً كاماً ،
فلست عليه بالخلافة ، فأؤمأ الي بالجلوس قريباً منه ، فجلست قليلاً ثم
نهضت ، فأؤمأ الي ان أجلس ، فجلست حتى خف الناس ؟ ثم قال يا
أصمعي ، الا تحب ان ترى ولدي محمدًا وعبد الله ؟؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ؛
فدعنا بها ، فاقبلا صبيين صغيرين ، وهما يومئذ ولیا عهده له ، فسلموا على
أبيهما بالخلافة وجلسا ، فأمرني عطاراتها الأدب فعلت ؟ فقال كيف
ترى أدبهما ؟؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثلها بذكائهما ؟ فضمها الى
صدره ، وامرها بالذهب ؟ ثم التفت اليّ وفي عينه عبرة وقال : يا أصمعي ،
كيف بها اذا ظهر تعاديهما ، وبدأ تبغضهما ، ووقع بأسهما بينهما حتى
سفك الدماء ، ويود كثير من الأحياء انهم كانوا موتى ؟؟ فسكت ولم
أجب وعلمت ما في نفسه من هواجس نحوها^(٢)

وأجرى الرشيد الخيل يوماً في الرقة ، فلما عدت صار الى مجلسه في
حدائقه حيث تواقي اليه الخيل ، ووقف على أريكته حتى طلت ،
فإذا في أولئك سوابق من أفراسه ، يقدمها فرسان في عنان واحد لا يقدم
أحدهما صاحبه ؟ فتأملها فقال فرسي والله ؟ ثم تبين الآخر ، فقال
وفرس المؤمن وجاء الفرسان يختذلان أمام الخيل ، وجاء فرسه السابق ،
وفرس المؤمن ثانية ، فسر الرشيد بذلك سروراً عظيماً ثم جاءت الخيل

(١) نزهة الألباء : ١٦٣

(٢) - الدميري : ج ١ ص ٦٤ - يقول الخليفة للمؤمن بعد موت ابيه ومقتل أخيه الأمين :
ان ابي كان قد قال ذلك للأخ صعي لأنه سمع من عيسى بن جعفر اخي زبيدة : اتنا كما
نكره بعضاانا والأمين

بعدها ؟ فطلبت الأذن بالوصول اليه ، فأذن لي ، وقال ما عندك يا أصمعي ؟؟ قلت يا أمير المؤمنين ، كنت أنت وابنك اليوم في فرسيكا
كما قالت الخنساء

جارى اباه فأقبل سقاً
يتقارب تقارب الخصر
وهما كأنهما وقد بزا صقران قد حطا على وكر
برزت صحيفه خد والده ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أه يقار به لولا جلال السن والقدر
فازداد سروراً على سروره ذاك (١)

وقال الرشيد يوماً لزوجته زبيدة وهو يناديها « يا أم نهر » وكانت كنيتها « أم جعفر » ، فاستغربت من هذا النداء وظلت انه قصد بذلك شيئاً لم تفهمه ، فأرسلت الي تسألي عن ذلك ، فقلت لرسولها : قل لها ان معنى « جعفر » في اللغة هو النهر الصغير وان أمير المؤمنين اراد ذلك عن طريق المداعبة ؟ فذهب الرسول واخبرها بما قلت ، فأرسلت الي هدية ثمينة (٢)

وتحدث الرشيد يوماً في اخبار بني امية ، فذكرت له ان « سليمان ابن عبد الملك » كان شرعاً أكولاً نهراً ، يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية ، وهي كما اخرجت من تنايرها ، فيريد اخذ كلها فتمنعه الحرارة ، فيجعل يديه على طرف حلته ، ويدخلها في جوف الحروف فيأخذ ما يريد فقال الرشيد قاتلك الله ، ما اعلمك بأخبارهم ؟؟ اذكر انه عرضت علي ذخائر بني امية ، فنظرت الى ثياب يمنية مذهبة ،

(١) مروج الذهب : ج ٦ ص ٣٤٨ .

(٢) كتاب المعرف : ٣٢٨

وأكالها ودكة بالدهن ، فلم ادرك ذلك حتى حدثني بالحديث ؟ ثم قال على بشاب سليمان ، فأتي بها ، فنظرنا الى تلك الآثار ظاهرة فكساني منها حلة مذهبة^(١)

الفوائد الثلاث

ودامت صلة الأصمعي بدار الخلافة خمس عشرة سنة بدأها حين استتب الأمن والاستقرار في دولة الرشيد عام ١٧٣ هـ ، وأنهَا على اثر حادث نكبة البرامكة في اوائل عام ١٨٨ هـ وهي أجمل فترة في تاريخ خلافة الرشيد ، وأزهى حقبة عبرت في ايام دولة بنى العباس على الاطلاق . والي يسمونها « العروس » لبهجتها وتألق نور الحضارة فيها عاش الأصمعي خلالها كأنعم ما يكون العيش ، وسعد فيها كأند ما تكون السعادة في بغداد على شاطئ دجلة حين يكون الرشيد في بغداد ، وفي الرقة على صاف الفرات حين يصيف الخليفة فيها ، وأحياناً على اجنحة مواكب السفر في خراسان ، وفي البوادي العربية والمدن المجازية التي كان يزورها الرشيد للحج في كل عامين مرة ولم تقطع هذه الصلة إلا بعد ان افاد الأصمعي منها فوائد ثلاثة « علمية ومادية واجتماعية »

يقول « احمد بن يحيى » المعروف بـ « ثعلب » الذي كاد يعاصره^(٢) :

« قدم الأصمعي بغداد ، وأقام فيها مدة ، ثم خرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة »^(٣) ذلك لأنه اتصل بفضل

(١) ابن خلkan : ج ١ ص ٤١١

(٢) توفي ثعلب عام ١٩١ هـ - وهو احد علماء الكوفة وصاحب كتاب « مجلس ثعلب » . المتداول في عهتنا .

(٣) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٧ .

مجالس الرشيد العلمية - بنوابع عصره وأيات زمانه ، وكلهم أستاذة اجلاء لا يقل واحدتهم عن الأصمعي نفسه شفافة وادراكاً وما كانت مجالس الرشيد التي انتظمت هؤلاء العباقة غير اسوق علمية ادبية سامية لا يعرض فيها الا الجيد النادر من الاتاج التكري ، ولا ينثر على بساطها غير الشمين من عصارة قرائح الشعراء والأدباء الذين نضجت عقولهم فجاوزوا قصر الخلافة ينتجعون الثراء والجد فكان الأصمعي يلتفت تلك الدرر الفريدة من ألسنة هؤلاء حافظته الجبارية ليدونها في دفاتره حال خروجه من حضرة الرشيد ، ويختزليها دون كد او عناء في سبيل البحث عنها وتنقيحها او تصحيحها كما يفعل بما يأخذه عن الأعراب

يقول عمرو بن كلثوم العتابي^(١) سألي الأصمعي في دار الرشيد اي الأنابيب للكتابة اصلاح وعليها اصبر ؟ قلت « ما نشف بالمجير ماؤه ، وستر عن تلويمه غشاوه ، من الشيزية القشور ، الدرية الظهور ، القصيبة الكسور » قال فأي نوع من البرى اصوب وأكتب ؟؟ قلت « البرية المستوية القطة ، التي عن يمين سنها برية ، يامن معها الجهة عند المدة والمطة في شقها فنيق ، وللريغ في حرفها حريق ، والمداد في خرطومها دقيق » فبقي الأصمعي باهتاً ينظر الى ولا يحير جواباً^(٢)

وفي رواية للأصمعي انه كان محضرة الرشيد ، فجاء له بعد الملك ابن صالح العباسي مكبلاً بالحديد ، لريبة كانت منه ، فعاتبه طويلاً وحدشه بما كان يحس به نحوه وكان يحيى بن خالد حاضراً ، فقال لعبد الملك

(١) العتابي هو احد الشعراء والخطباء الفصحاء ، وكان بدوي الترعة ، يرتاد مجلس الرشيد ويعده ، وله معه حوادث واخبار .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٥٣

بلغني انك حقود ! فقال عبد الملك « اصلاح الله الوزير ، اـ يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي ، فانها لباقياـ » فالتفت الرشيد الى الأصمعي وقال له « حررها ، فوالله ما احتاج احد للحقد بمثل ما احتاج به هذا » (١)

ولم تكن مجالس الرشيد تتعقد في قصر الخلد حين يكون في بغداد ، او في قصر الخلافة حين يكون في الرقة فحسب ، ولكنها كانت تعقد له اينما سار وحيثما حل فإذا ركب الى الصيد وعسكر في بادية من البوادي جاؤوا له بأعراب ينشدونه الشعر والأرجاز وحتى الحداـ ، وربما قصوا له النواـر والأخـارـ . واذا دخل مدينة من المدن وكان فيهـا بعض العـلـماءـ أو الفقهـاءـ ، عـقـدواـ لهـ المجالـسـ ، وأجـرواـ أمـامـهـ المنـاظـراتـ فيـ مـسـائلـ شـتـىـ . قـيلـ : انهـ دـخـلـ المـدـيـنـةـ الـنـوـرـةـ ذاتـ مرـةـ ، وـسـأـلـ عـمـنـ فيهاـ منـ الفـقـهـاءـ وـالـعـلـماءـ فـذـكـرـواـ لهـ عـدـدـاـ مـنـهـمـ وـفـيـ مـقـدـمـتـهـ الـإـمامـ «ـ مـالـكـ بـنـ أـنـسـ »ـ فـاسـتـدـعـاهـ معـ بـعـضـ الـعـلـماءـ ، وـطـابـ مـنـهـ أـنـ يـقـرـأـ لـهـ كـتـابـهـ «ـ الـمـوـطـأـ »ـ فـقـرـأـهـ ، ثـمـ اوـزـعـهـ إـلـىـ قـاضـيـ قـضـاتـهـ اـبـيـ يـوسـفـ اـنـ يـنـاظـرـهـ فـيـ مـسـأـلـةـ فـقـهـيـةـ فـرـفـضـهـ «ـ مـالـكـ »ـ وـاوـزـعـهـ إـلـىـ أـحـدـ الـعـلـماءـ فـاظـرـهـ بـدـلـاـ مـنـهـ وـالـأـصـمـعـيـ حـاضـرـ يـسـمـعـ وـالـذـيـ يـحـبـ اـنـ لـاـ نـسـاءـ هـنـاـ بـأـنـ الـأـصـمـعـيـ لـمـ يـغـيـرـ شـيـئـاـ مـنـ عـادـتـهـ السـابـقـةـ فـيـ عـدـمـ القـاءـ أـلـوـاحـهـ مـنـ يـدـهـ حـتـىـ خـلـالـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ الـتـيـ قـضـاـهـاـ فـيـ صـحـبـةـ هـارـونـ الرـشـيدـ ، الاـ فـيـ السـاعـةـ الـتـيـ يـكـونـ فـيـهاـ بـحـضـرـتـهـ يـقـولـ خـرـجـناـ مـعـ الرـشـيدـ إـلـىـ الرـقـةـ فـقـالـ لـيـ هلـ حـمـلتـ شـيـئـاـ مـعـكـ مـنـ كـتـبـكـ يـاـ أـصـمـعـيـ ؟ـ ؟ـ قـلـتـ نـعـمـ ، حـمـلتـ مـنـهـاـ مـاـ خـفـ حـمـلهـ ، قـالـ كـمـ حـمـلتـ ؟ـ ؟ـ قـلـتـ ثـمـانـيـةـ عـشـرـ صـنـدـوقـاـ ، قـالـ : هـذـاـ لـاـ خـفـتـ ، فـلـوـ ثـقـلتـ كـمـ كـنـتـ

(١) مروج الذهب : ج ٤ من ٣٠٣

تحمل ؟؟ قلت : اضعافها يا أمير المؤمنين ، فجعل يعجب من عالي (١)
وشيء آخر يحدر بالذكر ، هو ان الأصمعي لم يقطع صلته بالبصرة اثناء
اتصاله بدار الخلافة ، ولكنه كان يغتنم الفرص السانحة لغزو الرشيد بلاد الروم
او تغيبه عن العاصمة في سبيل سفر بعيد يتعلق امره بشؤون الدولة ،
فيعود هو الى البصرة ، ويدبر اموره وشؤونه الخاصة ؛ ويتصل بمحو المسجد
الجامع ويسلم على صحبه فيه وعلى طلابه ، وربما عقد معهم المجالس او
ألقى ما لديه من محاضرات جديدة ؛ ثم يتوجه الى المربد ويتصل بأهله
الذين كان يألفهم ، ويأسأ لهم عما جد لديهم من الفوائد ؛ واذا وجد
الوقت كافياً ركب ناقته وتوغل في البوادي الى القبائل التي ألف زيارتها
فيما مضى ويزل في البيوت التي عاشر اهلها زمناً ، ويجمع منهم الفوائد
اللغوية والأدبية الجديدة ؛ ثم يعود مسرعاً بعد ذلك الى البصرة ليشد
راحته منها الى بغداد حيث يكون الخليفة قد آب من سفره بعد غيبة
حالت او قصرت ، حسب الظروف

كان يفعل ذلك عن رغبة وشوق الى الاستمرار في الكسب العلمي
المجديد والأدبي الطريف ليضيفه الى ثروته التي بين يديه ، ويقدم اثفناها
واطرافها على باسط المجالس الفكرية في قصر الخلافة ، ويتجمل بها كشيء
جديد له لذته الروحية وثمنه الأدبي

ولما كانت ساعات اللقاء مع الرشيد في مجالس علمه او سره محدودة
خلال الأسبوع الواحد ؛ كان الأصمعي ينصرف في باقي اوقاته الى حضور
مجالس بعض الامراء ووجوه الدولة في بغداد حيث يجتمع العلماء والأدباء
والمفكرون ، فتجريي البحوث والمناقشات في المسائل العلمية ؛ فكان اكثر

(١) الأغاني: ج ٥ ص ٦٨

ما يحضر من تلك الاندية مجلس صديقه الباهلي « سعيد بن سلم » الذي كان يقيم اكثراً أشهر السنة في بغداد كا انه كان يتعدد أحياناً الى بعض المساجد هناك ، فيسمع المحاضرات في حلقات اكابر الشيوخ ، أو يلقي هو على الناس دروساً في فروع اختصاصه ، فيلتف حول حلقته جموع غفير من العلماء وطلاب العلم^(١) .. وهكذا نجده لم ينقطع أبداً عن الدرس والتدريس والافادة والاستفادة حتى قيل انه خرج من بغداد وهو أعلم منه حيث قدم باضعاف مضاعفة

* *

اما الفائدة المادية ، فقد كان الاصمعي ماهراً في استدرار كرم الرشيد وجوده ، لمعرفته بالتواحي التي يستطيع ادخال السرور منها الى قلبه ، ولبراعته في اختيار المناسبات السانحة في ذلك ولكنه لم يكن وحده منفرداً في هذا الأمر؛ بل كان عطاء الرشيد هدفاً لكل رجال الحاشية على الاطلاق ، سواء أكانوا من وزرائه البرامكة ، ام من امراء البيت العباسي ، ام من رجال السيف والادارة والفكر وكان الرشيد يغمر كل هؤلاء بفيض عطائه ، فتختلف ضخامة منحه لهم حسب شخصياتهم ومراتبهم ومهامهم وقربهم منه ؛ وفي مقدمتهم وزراؤه البرامكة الذين كانوا في اول أمرهم يتroxون عطاءه ، ثم شاركوه بعد ذلك في ملائكة من وراء ستار ؟ ويأتي بعدهم امراء البيت العباسي الذين كان الرشيد يبرهم ويكرهم ويقول « هم أهلي وأعز بهم » ولم يكن الفضل بن الريبع بأقل من هؤلاء نصيباً من الفائدة ؛ واما ابو يوسف القاضي فكان حظه وافياً من هذا النوال ، وأوفر من باقي رجال العلم والأدب الذين كان منحهم صغيرة ولسكنها مستمرة حسب الفرص

(١) نزهة الأنبياء : ٢٢٦

والمناسبات

ولم يزاحم الأصمعي في صيد الدرهم غير اسحاق الموصلي ، وهو وان لم يكن كالأصمعي في مواهبه وظرفه ، ولكنه كان زيادة على علمه وثقافته ينظم الشعر وينجده ويلحنه احياناً ويفغنه للرشيد ، اذ كان - بعد أبيه ابراهيم الموصلي - رئيس مدرسة للغناء في عهد بنى العباس وكان الرشيد يأنس بجمع الأصمعي واسحاق في مجلس واحد للسمير فقط ، لالغناء ، لأن الأصمعي لم يحضر مجالس الطرف

يقول الأصمعي دخلت أنا واسحاق الموصلي على الرشيد ، فرأيناه تعيس النفس مهموماً ، فعادناه وسرينا عنه ، وانشده اسحاق من نظمه قصيدة يقول فيها

وأمراة بالبخل قلت لها اقمرني
فذلك شيء ما اليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى
خليلاً له حتى المهاطل خليل
فعالي فعال المكثرين تحملاً
ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف اخاف الفقر او اعدم الغنى
ورأي أمير المؤمنين جليل
قال الرشيد لا تخاف ان شاء الله ؛ ثم قال الله در ابيات تأتينا بها ،
ما اشد اصولها وأقل فصولها ؛ وأمر له بخمسين ألف درهم ، فقال له
اسحاق وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه ، فعلام آخذ
الجائزة ؟؟ فضحك الرشيد ، وقال اجعلوها لهذا القول مئة الف درهم .
قال الأصمعي فلمنت - يومئذ - ان اسحاق احذق مني بصيد الدرهم (١).
وكان بين الأصمعي واسحاق صحبة طويلة ، بدأ تاريخهما منذ قدوم
الأصمعي الى بغداد ؛ ولكل واحد منها مع صاحبه نوادر ونكات طريفة ،

(١) الأغاني : ج ٥ من ٧٨

ومزاجة خفية في التودد الى الرشيد ولأسحاق كل يوم شأن مع الأصمعي ؟ فاذا رضي عنه مدحه واطلب في مدحه وقال فيه « عجائب الدنيا معروفة منها الأصمعي »^(١) ، واذا غضب عليه نفر منه وسلقه بلسانه ، وهجاه بشعره وكان الأصمعي يبعث به عثباً بريئاً ، ويترخص الفرص ليوقع به وقعاً خفيفاً يكسفه ولا يشق عليه كان - مثلاً - يعطيه جزءاً من قصيدة طويلة ولا يعطيه بقيتها ؛ او ينشده اياتاً رقيقة ولا يعلمه باسم صاحبها ؛ فيدخل هذا عند الرشيد وينشده ما اخذ عن الأصمعي فيطرد الرشيد ويسأله عن بقية الشعر او عن اسم الشاعر فيقول لا ادري ، ويكون الأصمعي حاضراً ، فيجيب على كل ما يسأل الرشيد ، فيخرج اسحاق وقد امتلاً غيظاً عليه

وكان اسحاق يوماً غاصباً على الأصمعي ، فسمع اب « ابا ربيعة » احد الامراء زاره في بيته ، فطلب الأصمعي منه اب يقرضه مالاً ويبعث له بهدية ، ففعل ذلك ؟ فأرسل اسحاق الى ابى ربيعة اياتاً يقول فيها

أليس من العجائب ان قرداً اصيمع باهلياً يستطيع
ويزعم انه قد كاف يفتى ابا عمرو ويسأله الخليل
اذا ما قال قال ابى ، عجبنا لما يأتي به ولما يقول
وما ان كان يدرى ما دبير تزول الراسيات ولا تزول
وجله « عطاء الملك » عاراً
ونصحت ابا ربيعة فيه جهدي وبعض النصح احياناً ثقيل
وقل لأبى ربيعة اذ عصانى وحاد به عن القصد السبيل

(١) المزهر : ج ٢ ص ٤٥١

لقد ضاعت بروتك فاحتسبها وضاع الفص والسيف الصقيل^(١)
وعلم الأصمي بهذه الأبيات وما فيها من قسوة في الهجاء ، فأجابه
بهذه الأبيات الرزينة الساخرة ، كعادته في مقابلة الخصوم

أئن تغنىت للشرب الكرام ألا رد الخلط جمال الحي فافترقوا
وقيل : أحسنت ، فاستدعاك ذاك إلى ما قلت ، ويمك لا يذهب بك الخلق
وقيل انت حسان الناس كلهم وابن الحسان ، فقد قالوا وما صدقوا
فا بهذا تقوم النادبات ولا يثني عليك اذا ما ضمك الخلق^(٢)
ومهما يكن من أمر ، فقد كان الأصمي يشعر بأنه أمام معين لا
ينصب من كرم الرشيد وبذله ؟ فكان شغوفاً متلهفاً الى ادخال السرور
على قلبه ليفتح يديه له ، ولم يترك فرصة تفلت منه دون ان يغتنمها
ويستدر ضرعها وقد وصل به الحال الى ما وصفه لنا هو ، فقال
« سمعت بيتين من الشعر لم احفل بهما ؛ فقلت حفظهما على كل حال
خير من بقائهما في الدفاتر ، فحفظتهما وانى عند الرشيد يوماً ، وعنده
عيسى بن جعفر العباسى ؟ فأقبل على « مسرور » الخادم وقال له يا
مسرور ، كم في بيت مال السرور ؟ قال ما فيه شيء فقال عيسى
هذا بيت الحزن ؛ فاغتم الرشيد لذلك ، وأقبل على عيسى ، وقال له
والله لتعطين الأصمي سلفاً على بيت مال السرور الف دينار فاغتم عيسى
وانكسر فقلت في نفسي جاء موضع البيتين ، فأنشدتها الرشيد

اذا شئت ان تلقى اخاك معبساً وجداه في الماضين كعب وحاتم
فشكشه عما في يديه فاما تكشف اخبار الرجال الدرام

(١) الأغاني : ج ٥ ص ١٠٨

(٢) الأغاني : ج ٥ ص ١٠٧

فجلى عن الرشيد ، وقال لسرور اعطاه على بيت مال السرور الف دينار آخر فأخذت بالبيتين التي دينار ، وما كان البيتان عندي يساويان درهرين (١)

*

بجانب هاتين الفائدين - العلمية والأدبية - افاد الأصمعي من صحبته لل الخليفة الرشيد « الشهرة والواجهة » ؛ فكان يرى في مجالسه تلك منبراً عالياً يسمع منه صوته الى اقصى اجواء العلم والأدب في زوايا المملكة ، اذ كانت تنقل اليها أخبار المذاخرات العلمية والأدبية والطرف والنواذر التي يطرب لها الرشيد ، عن طريق رجال الحاشية والعنين بشؤون الفكر وكان الأصمعي يحسن اختيار رواياته وآرائه وطراقه التي تناسب القام ، والتي يعلم بأنها تروج وتنشر بسرعة بين الناس فتناقلها الألسن في كل مكان وكان هذا اقصى ما يسره ويفرجه

بذلك اصبح الأصمعي علماً معروفاً في أنحاء المملكة الإسلامية ، بعد ان كان ذكره لا يتعدى الدوائر المحدودة في البصرة وحدها ومن هنا جاءت الواجهة التي كان يصبو اليها ، فعرفه العامة والخاصة ، وصار البصريون بوجه خاص ينظرون اليه باحترام واجلال كجليس للرشيد محب لديه ، وصديق للبرامكة اصحاب الحل والعقد في الدولة ، وزميل لأبي يوسف قاضي القضاة ، وغيره . والناس منذ القديم يعظمون صاحب السلطان او من كان من اخصائه ، فكيف وقد نال صاحبنا هذا المجد بمحنة واستحقاق !!

*

(١) الأمالى : ج ٤ ص ١٨٣

على اب الأصمعي وصل الى ما وصل اليه بالطرق المستقيمة ؟ ولم يخرج في محاولاته تلك عن حدود الرزانة وكرامة العلم ، ولم يعرض نفسه الى ما يثينها قطعاً في سبيل الحصول على هذه الشمرات التي اقتطفها من بلاط بنى العباس طوال الأعوام الخمسة عشر التي لبئها فيه ؟ اللهم الا ما كان يغلب فيه احياناً على امره بقوة قاهرة وقلما حصل ذلك

كان يتصيد عطاء الرشيد كما يفعل غيره من زملائه ، لا بطريق المراوغة وبيع الضمير ، بل بالعلم والأدب والنادرة والملحة ، وهذا امر لا يؤاخذ عليه البة ثم انه كان يقبل المنح والمهدايا من امراء بنى العباس والبرامكة في اول الأمر كما هو مألف عند العلماء والشعراء في ذلك العهد وهو مع ذلك لم يكن في يوم من الأيام عرضة للعبث به ، بشهادة الرشيد الذي قال يوماً لأحد جلاسه حين اراد العبث به « انه لا يحتمل العبث »^(١) وكان - رغم طول صحبته للرشيد - لا يحضر مجالس الطرف والغناء ، سيراً على قاعدة رجال الدين من العلماء في ذلك الزمن ، وخشية ان يصيده شيء من عبث تلك المجالس التي كان يحضرها المفنون والمضحكون الساخرون الذين يأتون احياناً بما لا يتفق ووقار العلم وأما صلته باسحاق الموصلي - وهو من المفنين - وحضورها معه محضرة الرشيد ، فكان لأجل السر الأدبي فحسب ، لأن اسحاق هذا كان من علماء زمانه في شتى فروع العلم والأدب^(٢) ؛ ولم نجد في اخبار الأصمعي معه انه حضر يوماً مجلس غناء له مع ارباب العزف والضرب

(١) الأغاني : ج ١٥ ص ١٤٣

(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ١٨٣ - كان اسحاق الموصلي عالماً أدبياً وله باع في الفقه ايضاً . قال عنه الخليفة المؤمن : « لو لا ما سبق لأسعق على ألسنة الناس ، واشتهر بالفتاء لوليته القضاة ، فإنه أولى واعف واكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ... »

يد ان بلغ الأصمعي هذه المكانة عند الرشيد ، واسترساله معه برواياته الطريقة ، ونوارده الظرفية عن الأعراب ، وملحه الأدية ، جمل خصومه وحساده وشائيه ، من زملائه العلماء او الأدباء الذين لم يصلوا الى مكانته ، يتقولون فيه ويرشقونه بأسمهم فزعم بعضهم بأنه كان يتعدى حدود القار العلمي الى مذاهب الظرفاء في مجالس السلاطين ، لأضاحك الرشيد والأفادة من بذلك ونائله ونسبوا اليه حوادث واعمالا هو في الحقيقة براء منها ، وتحذثوا عن لسانه بما لم يقل ؟ فادعوا - مثلاً - بأنه روى عن نفسه ، قال « دخلت على هارون الرشيد فوجدهه منغمساً في القرش ، فقال ما ابطأك يا أصمعي ؟؟ قلت : احتجمت يا امير المؤمنين ، قال : فما أكلت عليها ؟؟ قلت (سكبة وطهاجة) ، قال رميتها بحجرها ؛ ثم قال : اشرب ؟؟ قلت نعم ، وانشدت

اسقني حتى تراني مائلاً وترى عمران ديني قد خرب (١)

هذا وامثاله شيء لا نعتقد بصحته بعد ان علمنا ما هو عليه الأصمعي من التقوى والصلاح والتمسك بالدين ، واحجامه عن كل ما يسبب الام والخطيئة ؛ فكيف يقول مثل هذا القول المزري بالدين كله ، والذي لا يصدر منه الا عن الزنادقة والمارقين ؟؟ ولم يكن الأصمعي من يشرب النبيذ وان حلله بعض فقهاء العراق لأنه كان لا يقبل بالاجتهاد والقياس في مثل هذه الأمور ويتمسك بالتصوّص على طريقة سكار المحدثين ، كما اسلفنا

وقد وجدنا في بعض كتب المؤرخين من الشيعة ، بأنه كان ينال من آل

(١) العقد الفريد : ج ٤ من ١٧٢

الـبيـت الـعلـوي ، فـي مجـالـس الرـشـيد ، اـرـضاـه لـه وـقـرـباـه مـنـه . (١) وـالـحق اـنـا
 لمـبـجـد فـي بـحـثـنا عـنـ سـيـرـتـه ماـ يـدـلـ عـلـى صـحـة هـذـا الـادـعـاء وـقـد عـرـفـاه
 عـفـ اللـسـان عـنـ اـكـثـرـ النـاسـ ، فـكـيـفـ عـنـ قـوـمـ لـهـ مـصـلـةـ نـسـبـ بالـرسـولـ
 الـأـعـظـمـ ؟؟ وـلـكـنـ الـذـي وـجـدـنـاهـ هـوـ اـنـهـ كـانـ يـجـلـ زـعـمـاءـ الـعـلـويـنـ وـيـحـترـمـهـمـ ،
 غـيرـ اـنـهـ لـاـ يـرـىـ رـأـيـ الشـيـعـةـ فـيـهـمـ ، وـرـبـماـ كـانـ يـتـظـاهـرـ بـتـقـديـمـ بـنـيـ العـبـاسـ
 عـلـيـهـمـ فـيـ الـحـقـ مـاـخـلـافـةـ ، وـهـوـ كـاـنـ عـلـمـ - فـيـ عـهـدـ كـثـرـ فـيـهـ اـنـفـاصـاتـ
 الـعـلـويـنـ وـثـورـاتـهـمـ عـلـىـ سـلـطـانـ بـنـيـ العـبـاسـ ، وـفـيـ خـلـافـةـ الرـشـيدـ نـسـهـ
 وـلـيـسـ فـيـ اـبـدـاءـ مـثـلـ هـذـاـ الرـأـيـ نـيلـ مـنـ آـلـ الـبـيـتـ
 وـأـيـاـ كـانـ الـأـمـرـ ، فـنـحنـ لـاـ نـزـعـمـ بـأـنـ الـأـصـمـيـ كـانـ زـعـيـاـ دـيـنـيـاـ ، وـلـاـ مـعـصـومـاـ
 مـنـ اـخـطـأـ ، زـاهـدـاـ فـيـ دـنـيـاـ مـنـصـرـفـاـ فـيـ عـبـادـتـهـ وـتـقـواـهـ ؛ وـلـكـنـهـ - كـاـ وـصـفـنـاهـ -
 رـجـلـ دـنـيـاـ وـآـخـرـةـ ؛ يـحـبـ المـالـ وـيـجـمـعـهـ بـطـرـقـ مـشـروـعـةـ لـاـ تـمـ دـيـنـهـ وـلـاـ تـخـرـجـهـ
 عـنـ تـقـواـهـ ؛ وـيـطـلـبـ الشـهـرـةـ وـالـمـجـدـ وـلـكـنـ لـاـ يـفـضـلـهـاـ عـلـىـ آـخـرـتـهـ ثـمـ
 إـنـاـ لـاـ نـشـكـ بـأـنـ اـعـمـالـاـ كـانـتـ تـجـرـيـ فـيـ بـلـاطـ الرـشـيدـ ، وـفـيـ بـعـضـهـ شـيـءـ
 مـنـ الـأـخـرـافـ قـلـيلـاـ اوـ كـثـيرـاـ عـنـ جـادـةـ الشـرـعـ لـاـ يـسـلـمـ الشـتـرـكـونـ فـيـهـاـ مـنـ
 الـأـئـمـ ؛ غـيرـ اـنـاـ نـعـتـقـدـ بـأـنـ الـأـصـمـيـ كـانـ مـنـ يـحـاـولـ جـهـ طـاقـتـهـ الـابـتـاعـ
 عـنـ خـطـفـهـاـ وـقـدـ لـاـ يـنـجـحـ دـائـماـ

اـثـرـهـ فـيـ مـصـرـعـ الـبـرـامـكـةـ

لاـ شـكـ فـيـ اـنـ مـصـرـعـ الـبـرـامـكـةـ حـادـثـ تـارـيـخـيـ خـطـيرـ وـقـدـ ذـهـبـتـ

(١) فـيـ رسـالـةـ لـأـبـيـ بـكـرـ الـخـوارـزمـيـ «ـ اـنـ هـارـوـنـ الرـشـيدـ لـاـ يـعـطـيـ وـلـاـ يـنـذـلـ نـوـالـاـ الـأـلـنـ»
 يـشـتـمـ آـلـ أـبـيـ طـالـبـ ، وـيـنـصـ مـذـهـبـ التـوـاصـبـ مـثـلـ مـرـوـانـ بـنـ أـبـيـ حـفـصـ وـالـأـصـمـيـ ..»
 وـلـيـسـ الـأـمـرـ فـيـ الـمـقـيـقـةـ كـذـلـكـ عـنـ الرـشـيدـ وـلـاـ عـنـ الـأـصـمـيـ ، وـلـكـنـ الـأـمـرـ لـاـ يـتـعـدـىـ
 حـدـودـ تـقـديـمـ آـلـ الـعـبـاسـ عـلـىـ الـعـلـويـنـ بـالـحـقـ فـيـ الـخـلـافـةـ . - اـنـظـرـ ضـحـىـ الـاسـلامـ :ـ جـ ٤ـ
 صـ ٢٩٧ـ

آراء المؤرخين فيه مذاهب شتى ، ولعبت الاهواء والنزاعات في تأويله وتفسيره أيما لعب ؟ خاصة وان الرشيد لم يخبر احداً بأسباب هذا الحادث حتى توفي

والأصمعي عاصر حكم البرامكة هؤلاء من البداية حتى النهاية ؟ وكان قريباً منهم وصديقاً لهم في بادئ الأمر ، ثم تغير عليهم فخاصهم مع من خاصهم ، وعمل مع من عمل على ازاحتهم عن عاتق الحكم وايصالهم الى تلك المأساة الدامية فلابد لنا من الاسهاب قليلاً في وصف تلك الحركة السياسية وذكر عواملها والملابسات التي حدث فيها ، لكي نستطيع فهمها بوضوح ، وليتبين لنا الدور الذي لعبه الأصمعي فيها كان الرشيد - يوم مبايعته بالخلافة - قد أعطى يحيى بن خالد البرمكي خاتم الوزارة ، وقال له كلته المشهورة « يا ابتي انت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قدمتك أمر الرعية ، واجرته من عنقي اليك . فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، واسقط من رأيت فإنني ، غير ناظر معك في شيء »^(١) فأخذ يحيى بيده تلك السلطة المطلقة ، وتصرف في شؤون الدولة بقدر ما أتي من حزم وتدبير ، ولم يستشر أحداً فيما يصنع غير « الخيزران » أم الرشيد ، التي كان يحلوها ان تتدخل في الشؤون العامة ، والتي كانت تثق بيعي ثقة تامة ، وقد ساعدته ، في الماضي القريب على ايصال ابنها هارون الرشيد الى كرسي الخلافة ليكون هو وزيره المطلق في تصريف مقدرات البلاد . فكان أول شيء فعله في ادارته ، ابعد اولئك الرجال الذين اعانوا الخليفة السابق « موسى المادي » في خصومته ضد أخيه الرشيد ، ومحاولته

(١) الطبرى : ج ٣ ص ٤٠٣ .

انزعاج ولاية العهد منه ؟ ومن بينهم الفضل بن الريبع حاجب المادي وزيره ، وسعيد بن سلم الباهلي أحد أركان حاشيته ، وعلى بن عيسى بن ماهان أحد رجال دولته ، وغيرهم ثم توفيت الخيزران عام ١٧٣ هـ ساعد يحيى الأين في شؤون القصر ، فحلت محلها « زبيدة بنت جعفر » زوجة الرشيد ؟ وكانت تعطف على الفضل بن الريبع ، فعملت على اعادته حاجياً للرشيد ؟ ثم عاد الآخرون شيئاً فشيئاً إلى حاشية البلاط (١).

وكان الرشيد يحب أخويه بالرضاة ، « الفضل وجعفر » ، ولدي يحيى ابن خالد البرمكي حباً صادقاً ، ويقربها منه ولا يفترق عنها أو عن أحدهما إلا نادراً فآراد أبوها أن يدفع بها إلى الحكم بجانبه ؟ فقبل خاتم الوزارة في أول الأمر إلى ابنه الفضل وبقي هو المستشار الأعلى بين الرشيد وزيره الجديد ؟ ثم نقل الخاتم من يد الفضل إلى يد أخيه جعفر ، فتقرب هذا من قلب الرشيد أكثر من قبل حتى صار يجلس على العرش بجانبه ويضرب النقד باسمه

وبقي الوزراء البرامكة الثلاثة يتناقلون بينهم الخاتم في فترات مختلفة ، ويديرون شؤون الدولة بالتعاون والتشاور ، محتفظين بأسرار الدولة وادارتها لأنفسهم ؟ والرشيد معهم في غاية الثقة والاطمئنان والرضا ، بحيث لم يلتفت إلى اعمالهم إلا بقدر ما يهمه بعضها ؟ منصرفًا إلى غزوه وحجه وأسفاره ومجالسه ولذائنه

ولم يكن البرامكة في بداية حكمهم ينحرفون إلى ما يسيء سمعتهم أو يبعث الشك في تصرفاتهم ويدعوا الألسن إلى التقول فيهم فسارت سفينة

(١) الطبرى : ج ٣ ص ٤٠٨ - كانت زبيدة يتيمة في حضن جدها المنصور ، وكان الريبع بن يونس وزيره ، يخدمها هو وابنه الفضل وبناته وغائبها وهي طفولة ، فحفظت للفضل بن الريبع تلك اليد البيضاء .

الدولة على احسن ما يرام مدة خمسة اعوام ، حتى اثيرت مشكلة ولایة
العهد بين ولدی الرشید « عبد الله المأمون و محمد الأمین »^(۱) وخلاصة
ذلك ان الرشید ، حين تولیه الخلافة لم يكن له ولی عهد فآزاد اب
يأخذ البيعة لأحد هذین الولدین ، خوفاً من موت فجأی يداهه وليس
له ولی عهد يجمع الشمل بعده ، ويبعد احتمال وقوع انشقاق وتمزیق
في الدولة

وفکر باخذ البيعة لعبد الله المأمون باعتباره اکبر من اخیه الأمین
بیضعة اشهر ولكن ام الأمین زبیدة وفت دون ذلك ، وأصرت على
زوجها ان يختار ابنها للأمر ، زاعمة بأنه ابن هاشمية حرفة لا جاریة ملوكه .
فوقف جعفر بن يحيی البرمکی في وجه زبیدة ، يدافع عن حق المأمون ،
مدعیاً بأنه هو الأکبر ، ولكنه كان يخفی في نفسه سبیاً آخر ، هو ان
ام المأمون « مراجل » جاریة فارسية من عنصره
فانقسم جو البلاط الى معاکرین هذا يؤید فکرة زبیدة ، ويكونون
من اکثرية امراء بني العباس ومعهم الفضل بن الربيع وشخصيات اخرى
تکره البراماکة ؛ وذلك يؤازر جعفرأً بن يحيی ، ويكونون من عناصر فارسية
وغير فارسية من صنائع آل برمک وكان الفضل بن يحيی - يومئذ -
يجانب الأمین لأنّه كان يشرف على تربیته ، كما كان جعفر يشرف على
تأدیب المأمون وتنقیفه

ولكن الأزمة لم تطل ، إذ دعا الرشید يحيی بن خالد - وكان
قد وقف موقف الحیاد من الأمر - فاستشاره وتحادث معه طويلاً ، فأشار
عليه بإعطاء ولایة العهد للأمین بن زبیدة ، وينتظر حتى يكبر الصغیران

(۱) لقب عبد الله بالمؤمن ، و محمد بالأمین بعد اخذ البيعة لها بولایته العهد .

و عمر كل منها يمتد لا يزيد عن خمس سنوات - و تظهر الفوارق ،
بينها فيختار الأصلح لها ^(١) و انتهى الأمر بأن بيع الأمين ؟ فهذا
العاصفة على أثر ذلك سبعة أعوام أخرى ، حتى استثيرت من جديد

وبقي جو البلاط - خلال تلك الفترة - هادئاً إلى حد ما ؛ وليس
فيه إلا ما كانت تجمجم به زينة احياناً ضد جعفر البرمكي وحده ، وما
كان يهمس به الفضل بن الريبع في آذان خلصائه من كلمات تشير إلى
تدعمه من استبداد البرمكية بشؤون الدولة و الظاهر أن هؤلاء الوزراء
الثلاثة بدأوا يستبدون في الأمر شيئاً فشيئاً حتى ملكوا القصور والشّاء
الطائل والضياع العamera ، وأسرفوا في الدعاوة لأنفسهم يبذلهم واعطائهم
الأموال الطائلة على حساب بيت المال طبعاً ، فدحهم الشعراء بما لم يندح
به الخليفة نفسه ، ورسخت اقدامهم في سلطان الملكة وامتدت جذورهم
فيها إلى حد بعيد ، فقربوا صنائعهم ، وعينوا أعونهم في المناصب ،
وانشأوا تكتلات مسلحة في خراسان تأمر بأمرهم تحت اسم الدفاع عن
الحدود الشرقية للدولة ^(٢) . فبدأ الساهرون على مصلحة الدولة يتهمون
بینهم عما وصل اليه هؤلاء من مزللة خطيرة ؟ ولكن الرشيد لم ينتبه إلى
ذلك ، ولم يقبل من أحد منها كان ناصحاً وقربياً لديه ان يقول كلمة
سيئة على وزرائه هؤلاء

قلنا - فيما مضى - ان الأصمعي قدم بغداد (عام ١٧٣ هـ) اي
قبل تأزم هذه المشكلة بعامين ؟ وكان قد باهز الحسين يومئذ ، وقد
اكتملت عقليته ووضج تفكيره ؟ فلم ي quam نفسه في تيارها حين تأزم اول

(١) الخثار : ٥٩

(٢) انظر كتاب الطبرى سنة ١٧٨ هـ وما بعدها

حرة ، فبقيت صلته بالبرامكة على اتم ما يكون ، حافظاً لهم حفاوتهم به حين قدومه الى بغداد (١) ؛ ذاكراً مساعدة الفضل بن يحيى له في اول مقابلته مع الرشيد في تلك الليلة التاريخية - كما أسلتنا - وأجدهم فأحبوه ، وخالفت الى مجالسهم يزورهم ويزورونه ؟ وأغدقوا عليه من جزيل كرمهم فشاد هو بذكرهم ، ومدح جعفرأ بن يحيى بيتين من الشعر ولم يكن قد مدح قبل ذلك أحداً من الناس

اذا قيل من للندي والعلى من الناس ؟ قيل الفتى جعفر
وما ار مدحت فتي قبله ولكنبني برمك جوهر (٢)

وألف كتابه « النواذر » وأهداه له ، على نفط ما كان يفعل بعض العلماء والأدباء في ذلك العهد ، فأكرمه جعفر بمال وعطاء وغيره ولم تكن صلة يحيى بن خالد أضعف منها بولديه هذين

هكذا كان الأصمعي في وئام تام مع البرامكة في الأعوام الأولى من وجوده في بلاط الرشيد ، يوم كان هؤلاء يعملون باخلاص في ادارة شؤون البلاد ولم يشعر نحوهم بأي فتور رغم كرهه للعنصر الفارسي ، ومقته للشعوبين الذين كانوا يختموس بهم وينالون من العنصر العربي احياناً في مجالسهم فلما بدأوا ينحرفون في سيرتهم الى التحاو الذي ذكرنا ، صار هو يتغير عليهم وينحرف عنهم شيئاً شيئاً ولم يكن تغييره هذا بتأثير همسات الفضل بن الريبع وسعيد بن سلم الباهلي وغيرهما فحسب ، بل بداعع شعوره القومي ايضاً وحبه للرشيد الذي اخلص الود

(١) اقام الفضل بن يحيى مأدبة فخمة للأصمعي حين قدم بغداد حضرها عدد كبير من العلماء ووجوه العاصمة — انظر نزهة الآباء ١٤٠

(٢) طبقات النجاة : ٣١٣ .

والوفاء له ؟ وربما كان ايضاً عامل الحرص على الصالح العام
وبقي التذمر دفيناً في الصدور ، لا يستطيع احد اد بیوح به امام
الخلفية الشاب المخاطب بأعين البرامكة وأذانهم ، حتى كان عام (١٨٢هـ)
حين اثيرت مشكلة ولادة العهد من جديد ولم يقل التاريخ كيف
استثيرت بعد ان هدأت واستقرت بجانب الأمين ؟ ولكن سير الحوادث
يدل على ان جعفر البرمكي كان في خلواته مع الرشيد يشير له دأماً نحو
الفارق بين الولدين في الذكاء وحفظ الدروس والأعمال والتصرفات التي
تصدر عنها ، ويفضل امامه المأمور المجتهد المادي على الأمين الذي
كان يفسده دلال امه له وشفقتها عليه وتلبية رغباته في كل شيء . فساورت
الرشيد فكرة انتزاع البيعة من الأمين واعطائها لأخيه (١)

وسمعت زبيدة بالخبر فطار طائرها ، ووقفت على قدميها امام الرشيد
تصيح في وجهه ، وتجمع جموعها لتحول دون تحقيق ما يريد ؛ وانتفضت
المشكلة من جديد ولكن بصورة اشد وأعنف مما سبق وأسفر العداء بين
أم الأمين سيدة القصر ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد وأكبر شخصية في
الدولة بعده وتألب كل فريق بحزبه ، فانحصر الرشيد بين ضغطين ،
وراح يبحث عن مخرج لهذا المأزق العظيم الذي وقع فيه
يقول الأصمعي بينما انا ادخل على الرشيد ذات ليلة لأساعره ، اذ
رأيته قلقاً يقعد مرة ويضطجع اخرى ، ويبكي ثم ينشد

قلد امور عباد الله ذا ثقة موحد الرأي لا نكساً ولا برا
فلا سمعت ذلك منه علمت بأنه يريد امراً عظياً ثم قال للخادم
عليّ يحيى بن خالد ، فما لبث ان جاءه ؟ وجلسا يتحادثان ، فسأل الرشيد

(١) انظر الطبرى ، سنة ١٨٧هـ .

عن رأيه في فكرة انتزاع ولاية العهد من الأمين واعطائها للمأمون بعد أن ظهر صلاحته لها أكثر من أخيه !! فطلب يحيى اب يكون المجلس خالياً ليدي رأيه ، فأشار لي الرشيد ففتحت جانباً بحيث اسمع كلامهما . فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن يعقد الأمر للمأمون بعد الأمين (١) وبعد ذلك بأيام قليلة أخذت البيعة من الناس بولاية العهد الثانية للمأمون

فكانت تلك فكرة خاطئة ، لم تذك نار الحقد والبغضاء بين الآخرين فقط ، بل أبقيت الأحقاد والضغائن متلبدة في جو الخلافة بين المُسَكِّرين اللذين يخلو بعض المؤرخين ان يسموهما بالعسكر العربي وال العسكر الفارسي أو الشعوي ، وهم حرباً زبيدة ومن معها وحزب جعفر بن يحيى ولم يمض طويلاً وقت حتى انتعشت الوشايات والدسائس والأخبار بنوعيها صادقة وملفقة ، حول البرامكة وأعمالهم

وكان أول من كشف الرشيد في أمرهم زبيدة ، فلم يصح لها أول الأمر ويعبأ بقولها ؛ فراح تغتم الفرص وتحذر منه وتقول له «انت غريق في بحر عميق من مودتهم والثقة بهم » ، وتشير بكل ما تسمع وما يصل الى اذنها عن اعمال هؤلاء وسعة نفوذهم وثرائهم وسيطرة صنائعهم على مناصب الدولة ثم فتحت باب القصور للمؤامرات والاشاعات ، وراح تساند مؤازريها من خصوم البرامكة المتكلمين بزعامة الفضل بن الربع ، وجعفر بن موسى والشاعر أبي العتاية وغيرهم (٢)

وكان الأصمعي حتى ذلك العهد قد تغير عليهم وقاطعهم ، وتغيروا هم

(١) مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٢) مصادر هذه الأخبار : الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وغيرهم

ايضاً عليه وقاطعوه ، وأطلقوا ألسنة صنائهم فيه ، فاتتهموه بقلة الوفاء
ونكران الجميل واحفاء النعمة^(١) فلما استثيرت قضية ولادة العهد للمرة
الثانية هذه كان هو بجانب الأمين لعلمه بأن بيعة المأمور قوة لجعفر
البرمي وسند لنفوذ الفرس في البلاط العباسي ولما توترت الأزمة بعد
ذلك بين الجانبين مال الى ناحية الفضل بن الريبع وجاهر بكرهه للبرامكة
وخاض ذلك الصراع السياسي الصامت الى الأذقان ، وقال فيهم على
لسان الشائعات التي كانت تحيط بهم

اذا ذكر الشرك في مجلس اضاءت وجوه بني برك
واب تلية آية عندهم اتوا بالآحاديث عن (مزدك)^(٢)
وحن وان كنا نشك في ان يكون الأصمعي قد نظم هذين اليترين ، لما
فيهما من تهمة البرامكة بالشرك وهم من المسلمين ، وتکفير السلم حرام
ما لم يكن باثبات شهود عدول ، وليس هذا من شأن الأصمعي قطعاً ؟
غير ان الحوادث الآتية تدل على انه كان من ابغض الناس لهذا النفوذ
الفارسي المهدد لدولة الرشيد ، وانه كان من اکثر خلطاء الرشيد تحذيراً له
من نفوذ البرامكة وتشجيعه على التخلص منهم ان وجد الى ذلك سبيلاً
تقول المصادر بأن الرشيد بدأ يفتح عينيه ، ويصنعي الى هذه الضبعة
التي تدور حوله همساً وایاء وتنويهاً ؛ ثم انه صار حس و يومئه لبعض
خاسته الى ما وصل اليه هؤلاء الوزراء الفرس من ثراء ونفوذ ، وببدأ
يتغير عليهم ولكنه لم يبادئهم بما يسيئهم او يخيفهم ، ثم صار يبت حولهم
العيون والأرصاد ، فتأنبه الأخبار بما يسيئه قيل ان احدهم حادث

(١) البخلاء : ١٢٣

(٢) ابن خلكان : ج ٢ من ٣٤٨ — (ومزدك) هذا رئيس مذهب مجوسى من مذاهب
الفرس ، يدعوا الى الفوضى الخلقية — انظر كتاب الملل والنجاع).

جعفر يوماً في امر القرى الكثيرة التي امتلكوها ، وطلب منه ان يمنع بعضها الى ولد الرشيد ، فقال جعفر « والله ما أكل الرشيد الخبر الا بفضلنا ، فإن حدثه نفسه بأخذ بعض ما نملك ، فسيعود عليه الو بالسريراً » وجاءه خبر آخر ان جماعة من الفرس في مجلس جعفر ، كانوا يتحدثون عن أبي مسلم الخراساني وكيف قلب دولة بنى أمية فقال جعفر « اي فخر لرجل يقلب دولة ويأتي بدولة اخرى بعد ان يسفك مئات الآلاف من الأرواح والأنسن ؟؟ ولكن الفخر لن يفعل مثل ذلك بدون ارقة دم »^(١) الى آخر ذلك مما يطول شرحه

وأخيراً عزم الرشيد في نفسه ، ودون ان يطلع احداً على عزمه ، التخلص من خطر البرامكة ، فترك بغداد وسكن الرقة وفي عام (١٨٧هـ) بعد ان انهى كل ما يلزم للامر^(٢) ، عزم على الحج ، وقرر ان يأخذ معه ولديه الأمين والمأمون فيكتب عليهما في مكة العهود بعدم تعدي احدهما على حقوق الآخر ؛ وأرسل الى ولاته في الأقاليم ان يوفدوا الى الحج وجوه بلادهم ليوافووه في مكة ثم سار بهوكه من الرقة ونزل بجانب بغداد ولم يدخلها ، فالتحق به سائر البرامكة ورجال الدولة إلا من بقي في مكانه لحفظ الأمن

وبعد ان حج وكتب العهود على ولديه ، وبلغ ذلك سائر عمال الأقاليم في المملكة ، عاد ادراجها الى العراق فلما وصل نهر الفرات ،

(١) الطبرى : سنة ١٨٧

(٢) كان الرشيد قد ارسل احد عماله « علي بن عيسى بن ماهان » وهو خصم البرامكة ، الى خراسان فشتت شمال القوى المسلحة التي كان البرامكة قد نظموها هناك ثم انه ترك بغداد وسكن الرقة لوجود قطعة من الجيش فيها وجلهم من الفرس ، ويسورهم « الكرنبية » وقام بأعمال اخرى ، يطول شرحها ، في تصفية حساب البرامكة قبل ان يقع بهم

نزل ناحية « العُمر » قرب مدينة الأنبار وهي قرية من بغداد ، ومعه
 ولها عمه وجميع البرامكة ورجال الحاشية ، وفيهم الأصمعي وبعد
 أيام من اقامته هناك ، أرسل الى أحد رجاله الخلصين له « السندي بن
 شاهك » رئيس الحرس في بغداد ، فجاءه مسرعاً فأمره أن يذهب بمن
 معه من جنده ويحرس دور البرامكة في جانب الرصافة ، ولا يدع أحداً
 يخرج منها ؛ وأن يتذهب لكل طارئ يحدث ، حتى يأتيه أمره فعاد
 السندي الى بغداد ونفذ الأمر ثم دعا الرشيد في منتصف تلك الليلة
 خادمه العبد « مسورو » وقال له كيف انت مني ؟؟ قال لو أمرني
 أمير المؤمنين أن أدخل هذا السيف في بطني وأخرجه من ظهري لفعلت ؛
 قال فاذهب الآن ، بدون تردد ولا تأخير ، الى حيث ينزل جعفر بن
 يحيى ، فاقتله في الحال وجثي برأسه قبل أن ينزل عليك غضبي فذهب
 مسورو مع بعض الجندي ونفذ أمر سиде ، وحمل الرأس اليه ، فأمر بوضعه
 في إناء ، وغطاه وأوْزَعَ الى أحد قواده فألقى القبض على سائر رجال آل
 برمك ، عدا محمد بن يحيى البرمكي الذي كان الرشيد يأمن جانبه ؛ وساقهم
 جميعاً الى سجن الرقة حيث قضوا نحبهم فيه بعد زمن طويل ؛ ولم يتعرض
 للنساء والأطفال

يقول الأصمعي « أرسل الى الرشيد في ساعة متأخرة من تلك الليلة ،
 فجئت وأنا لا أدرى ما الخبر ، ودخلت عليه فوجدته يتحفظ كالوحش
 المفترس فلما رأني قال اجلس ، فجلست ؟ ثم قال تقدم وارفع الغطاء
 عن هذا الوعاء ، فتقدمت ورفعته ، فوجدت فيه رأس جعفر ، فجاشت
 نفسي فقال يا أصمعي

لو ان جعفر هاب أسباب الردى لنجا به مجته طَمَّرْ مُلَاجِمْ

ولكان من حذر المنون بحيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكره لما تقارب عهده لم يدفع الحدثان عنه منجم
فskت ولم أتكم ، قال « الحق بأهلك ، يا أصمعي »
فخرجت وقد علمت بأنه دعاني في تلك الساعة لكي ينشدنى هذه الأبيات
التي نظمها ، حتى أذيعها على لسانه (١)

ومحن لا تقنع بتعليق الأصمعي هذا ، اذ لا يعقل أن يكون الرشيد
في تلك الساعة الدامية الخطيرة يهم بإذاعة أبيات من الشعر قالها ، ولكننا
نرى بأن الرشيد تذكر الأصمعي ، دون غيره من رجاله الذين كانوا معه
في تلك الآونة الحاسمة ، لأسباب عديدة ، منها انه أراد أن يريه بأنه
قد تخلص من كابوس البرامكة وخطرهم الذي كان الأصمعي يخدره منه
ويشير اليه - في المناسبات الكثيرة - تنويهًا بوجوب اتخاذ الحزم تجاهه
وتويد رأينا هذا روایات عديدة ، تقول احداها ان الأصمعي ، بعد

خروجه من عند الرشيد في تلك الليلة ، نظم أبياتاً يقول فيها
ايها الغور هل لك عبرة في آل برمك

غرهم عن قدر الله حساب (المشتدرك)
عبرة لما ترد أنت ولا قبل أب لك (٢)

إلى آخر ذلك مما يشير إلى أنه كان شاملاً لحادث هؤلاء ، ذاكراً
غرورهم ، خائفاً من طغيانهم على دولة الرشيد وعشهم بمقدراتها

تركه بلاط الرشيد

لم نعثر على خبر للأصمعي ، بعد نكبة البرامكة ، يفيد بأنه بقي بجانب

(١) السيرافي : ٦٦

(٢) السيرافي : ٦٦ — كلمة (المشتدرك) فارسية تقال لرقعة مخططة تحسب عليهـا دراهم
بيـت المال ، او كل دراهم اذا كانت كثـيرـة

الرشيد ولا نستطيع الجزم بأنه عاد الى البصرة بعد مقابلته له ليلة مقتل جعفر بن يحيى قوله « الحق بأهلك يا أصمي » والأخبار التاريخية تحدثنا ان الرشيد سكن الرقة بعد ذلك الحادث وترك بغداد نهائياً ، ولم يعد اليها حتى توفي بعد ستة اعوام قضتها بالسهر على الأمن والاستقرار في جوانب دولته ؛ فحج وسافر وتنقل في البلاد ، وغزا الروم في شتاء بارد وفي اشقي كفنة ، فاصيب بمرض في جوفه وانتابته « حمى الربع » فأنهكت جسده وصحته وكان آخر امره ان نشب ثورة « رافع بن الليث » في خراسان ، فأرسل لها الجيوش ، ولكنه لم يطمئن للنتيجة ، فزحف اليها بنفسه رغم وطأة مرضه ، فمات في الطريق عام (١٩٣ هـ) ، ودفن في قرية « سناباذ » احدى ضواحي مدينة « طوس »

من ذلك نفهم بأن الرشيد كان في شغل شاغل عن عقد المجالس والسرور خلال هذه الأعوام الستة ، إلا قليلاً وقد تبدلت حاشيته ، إذ توفي ابو يوسف القاضي ، ومات الكسائي قبل مأساة البرامكة ، وتزهد الشاعر ابو العناية ، وهلك مروان بن ابي حنفة ، وانشغل الفضل بن الربع في شؤون وزارته وادارة البلاد .. الى آخر ذلك

ولكن رواية وردت في كتاب الأغاني تقول « كان اسحاق الموصلي يأخذ عن الأصمي ، ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجر اسحاق وثلبه وكشف للرشيد معاييه ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعفه وان الصناعة لا تزكيه عنده ؛ ووصف له معمراً بن المنى - ابا عبيدة - بالثقة والصدق والسماعة والعلم ؛ وفعل مثل ذلك عند الفضل بن الربع ، واستعن به ؛ ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمي وأسقطه عندهم ، وأنفذوا

الى ابي عبيدة من اقدمه ^(١) وقيل ايضاً ان اسحاق هذا أرسل الى الفضل بن الريبع اياتاً يحرضه فيها على الأصمي ويشجعه على استقادام ابي عبيدة ، وفيها يقول

عليك ابا عبيدة فاصطنه فain العلم عند ابي عبيده
وآثره وقدمه عليه ودع عنك القرىد بن القرىد ^(٢)

فاذ صحت الرواية هذه ، يكون الأصمي قد بقي بجانب الرشيد زمناً بعد تلك النكبة وفي كتاب « نزهة الألباء » للأبناري « ان ابا عبيدة ورد الى بغداد عام (١٨٨ هـ) ثم عاد الى البصرة ^(٣) » ، وهذا يعني خلال السنة التي قتل فيها جعفر البرمكي فيكون بقاء الأصمي بجانب هارون الرشيد لم يتتجاوز الأشهر القليلة أو الأيام المعدودات بعد محنـة البرامكة . ولكننا لا نعتقد بأن اسحاق الموصلي كان السبب الوحيد والماـشر في تغيير الرشيد على الأصمـي ، واستقادام ابي عبيـدة مكانـه - كما تـخبرـنا الروـاية المذـكـورة - اذ لم يكن الأمر على هـذه الصـورـة من التـراـخي في شـؤـونـ الـخـلـيفـةـ وـخـاصـتـهـ يـيدـ أنـ سـيرـ الـحوـادـثـ يـدلـنـاـ عـلـىـ أنـ الأـصـمـيـ بـعـدـ اـشـتـراكـهـ فـيـ ذـلـكـ الـصـرـاعـ السـيـاسـيـ ضـدـ الـبـرـامـكـةـ ،ـ أحـاطـتـهـ الدـسـائـسـ وـالـوـشـائـيـاتـ وـالـنـيـمةـ عـنـ الرـشـيدـ ،ـ مـنـ قـبـلـ الـبـرـامـكـةـ أـفـسـمـ وـمـنـ صـنـائـعـهـ وـمـؤـازـرـيـهـ فـضـلـاًـ عـنـ خـصـومـهـ وـحـاسـدـيـهـ أـمـثالـ اـسـحـاقـ المـوـصـليـ وـيـحـيـيـ بـنـ الـمـارـكـ الـيـزـيـديـ - مـؤـدبـ أـولـادـ الرـشـيدـ - وـالـشـاعـرـ أـبـيـ نـوـاسـ الـذـيـ كـانـ قـدـ اـتـصـلـ أـخـيـراًـ بـالـخـلـيفـةـ وـسـبـحـ مـحـمـدـهـ وـالـظـاهـرـ أـنـ الرـشـيدـ مـاـ كـانـ يـصـنـيـ اـلـىـ أـقـوالـ هـؤـلـاءـ فـيـ الـأـصـمـيـ ،ـ

(١) الأغانـيـ : جـ ٥ـ صـ ١٤١ـ

(٢) ابن خـلـكانـ : جـ ٢ـ صـ ٣٤٩ـ

(٣) نـزـهـةـ الـأـلـبـاءـ : ١٤١ـ

لأنغاله - يومئذ - بما هو أخطر من ذلك ؟ فلما انتهى من تصفية حساب وزرائه واقصر في شؤون مملكته والشهر على الأمن فيما ، صار لا يلتفت الى امثال الأصمعي ومحالسه ؛ وربما شعر بأن وجوده بجانبه يذكره بتلك الأيام البغيضة المتعبة التي امتلأ بالقيل والقال قبيل حادث البرامكة .

ثم ان الأصمعي نفسه كان قد بلغ الخامسة والستين من عمره ، ونال من الجاه والثراء ما صار يعنيه عن الاستمرار في طلب الکسب فلما حدثت مأساة البرامكة بذلك الشكل الدامي الذي لم يكن يتوقعه ، وتعطلت مجالس الرشيد وزالت عنها المسرات ، أحس بأن مهمته قد انتهت ؛ واب نفسه بدأت تنازعه نحو الراحة والاستقرار والابتعاد عن ذلك الجو الذي غمرته الكآبة بعد المرح ؛ فودع صاحبه الرشيد وعاد الى البصرة وقد لمحنا في سيرة أبي عبيدة ، فلم نجد له أثراً يذكر في مجلس الرشيد بعد عودة الأصمعي ، مما يدلنا على ان الرجل ، قدم (الرقة) ولكنه لم يلتقي بالخلافة أو لم يترك أثراً عنده ، ولم تطل اقامته بجانبه

القسم الخامس

المراحل الأخيرة

١٧٢ هـ - ١٨٨

- ١ - الاستقرار في البصرة
- ٢ - مرضه وموته
- ٣ - ذريته
- ٤ - طلابه

الاستقرار في البصرة

ألقى الأصمعي أخيراً عصاه في البصرة بعد ان تعب من صحب حياة البلاط وضوئها ، وما فيها من اخذ ورد وقيود وتحفظات ، ووشایات ودسائس ؟ وآلی بعد ذلك ان لا يبارح مكانه الا لضرورة ملحة ، منصرفًا الى حياته الأولى في الدرس والتحصيل وإلقاء المحاضرات في المسجد الجامع ولكن الحوادث كانت تلاحقه ، والأخبار المخزنة تضم آذانه وتحزنه

فقد مات الرشيد ، وتولى الخلافة بعده ولـي عهده محمد الأمين ولم تمض حقبة من الزمن قصيرة حتى نشب بينه وبين أخيه المؤمن خلافات حادة نكست فيها العهود ، وتنزقت الأرحام ، وتطورت الى حرب دامية قتل فيها الأمين عام ١٩٨ هـ بسيوف الأعاجم من جيش أخيه وبقيت امور البلاد مضطربة بين المؤمن الذي بويع بالخلافة في خراسان وبين عمه « ابراهيم بن المهدى » الذي بويع في بغداد

ثم اتهى الأمر أخيراً بانتصار المؤمن بعد تنازل عمه له عن الخلافة ؛ واستتببت الأمور ، واجتمع الشمل في بغداد من جديد . فاراد الخليفة الشاب ان يعيد عهد ابيه الرشيد في عنائه بالشؤون الفكرية واهتمامه في اختيار حاشيته ورجال بلاطه ؛ فجمع حوله من اراد من نوابع العلماء وفحول الشعرا ورواة الأدب ثم ارسل الى الأصمعي يطلبه للمجالسة ويشجعه على القدوم اليه ؛ ولكن الأصمعي ، الذي عزف عن بلاط الرشيد نفسه في اواخر عهده ، اعتذر للمؤمن متحججاً بشيخوخته وضعف صحته (١) . غير ان المؤمن - العالم الاديب - عز عليه ان لا يكون الأصمعي بجانبه ، فالج

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧

عليه بالطلب ، ووعلده ومناه ؟ فأصر الأصمعي على الاعتذار ، وكتب اليه يقول « اصبحت لا اصلاح لمنادمة الخلقاء » واخبره بأنه على استعداد للإجابة على المشاكل اللغوية والأدبية اذا ارسلت اليه وهو مقيم في بلده البصرة فقبل المأمون عذرها ، وصار اذا تعقدت مشكلة في مجلسه ارسلها اليه واستلم الجواب منه (١)

لقد كان للأصمعي في اعتذاره عن مجالسة المأمون اسباب اخرى غير التي ذكرها له منها أنه كان في عهد الرشيد - كما اوضحتنا مع الجانب المناوي بجعفر البرمكي واشياعه الذين آذروا المأمون بمحنة في ولاية العهد ضد أخيه الأمين ؛ والآن وقد انتصر ذلك العسكر الشعبي ، وبرز في جو البلات وجوه فارسية جديدة كانت في ذلك الصراع عوناً للبرامكة على العرب بما فيهم الأصمعي ؛ فكيف يأمن الأصمعي جانبها ويضمن صداقة المأمون زمناً طويلاً ؟

وهذا اسحاق الموصلي صاحب الوشایات عليه عند الرشيد بالامس عاد الآن نديماً للخليفة الجديد ، ومقرباً لدليه كما كان مقرباً عند ايه ، فكيف يعود الأصمعي الى تجديد الخصومات معه بعد ان اكتوى بنارها قبلأ ؟؟ واي شيء في بغداد يسره بعد ان تغير وجهها عن ذي قبل ، وجرحتها المأسى والاحزان ، ودمرت جوانبها الحروب الطويلة وقتلت الكثير من اعيانها ، وتركتها نهباً بأيدي اشرارها وعياريها زمناً غير قصير ؟؟ وain يكون موضع الأصمعي لو عاد اليها وقد اصبح كل شيء فيها يوحى لنفسه ذكريات قاتمة ثقيلة بعد موت الرشيد ، ومقتل الامين ، وانزواء زبيدة الامير الشكلي ، وموت الفضل بن الريبع ، واعتزال الامير سعيد بن سلم الباهلي في داره

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ .

بالبصره ؟؟ لم يكن امام الاصمعي - في الحقيقة - غير الاعتذار فاعتذر ، واقام في البصرة ، ولم يفارقها الا الى الحجارة مرة او مرتين في سبيل الحج وتجدد الذكريات مع صحبه ومعارفه من علماء مكة والمدينة والطائف

كان عمره عند مغادرته بلاط الرشيد خمساً وستين سنة ، وقد وخط الشيب جوانب لحيته ورأسه ^(١) ، ولكنه في نشاط الكهولة المماسكة ، ولم تكن ذاكرته النادرة قد اصابها شيء من الوهن او التعب بعد .. يقول « احمد بن بكير النحوي » لما قدم الحسن بن سهل « وزير المؤمن » العراق - وقصد البصرة - قال احب أن أجمع قوماً من أهل الأدب فيخرجون حضرتني في ذلك ؟ فحضر ابو عبيدة والأصمعي ونصر بن علي الجهمي وحضرت معهم فابتدا الحسن فنظر في رقاع كانت بين يديه للناس في حاجاتهم ، ووقع عليها ، فكانت خسین رقة ، ثم أمر فدعت الخازن ، ثم أقبل علينا فقال قد فعلنا خيراً ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرغبة ، فأخذ الآن فيما نحتاج اليه فأفضنا في ذكر الحفاظ فذكرنا جماعة منهم « قادة السدوسي ، والزهري » وغيرهما ؛ ومررت بالحديث ، فالتفت أبو عبيدة فقال ما الفرض أيها الأمير في ذكر من مضى وترك من هو حاضر ؟؟ ها هنا من يقول انه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج الى ان يعود فيه ، ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه !! فالتفت الأصمعي فقال انما يريديني بهذا القول أيها الأمير ، والأمر في ذلك على ما قال ، وأنا أقرب عليه قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع ، وأنا أعيد الآن ما فيها وما وقع به الأمير على كل رقة على توالي الرقاع . فأمر الحسن بن سهل ، فأحضر الخازن وأحضرت الرقاع ؟ و اذا الخازن قد

(١) يقول السيوطي في كتابه طبقات اللغويين : ٣١٣ : لم يبلغ الشيب لحيته الا بلوغ الستين .

شكها على توالي نظر الحسن فيها فقال الأصمعي سأله صاحب الرقة الأولى كذا واسمك كذا فوق له بكترا والرقعة الثانية والثالثة ، حتى مر في نيف واربعين رقعة ، فالتفت إليه نصر بن علي فقال إيهما الرجل ، ابق على نفسك من العين فكف الأصمعي (١)

ولم يكن الجو الفكري في مسجد البصرة قد تغير كثيراً ، في هذه الفترة ، عن ذي قبل بنشاطه ومرحه وطلابه ومرتاديه ، الا عدداً من كبار شيوخه كانوا قد اعتزلوا التدريس بسبب الشيخوخة او الموت كما ان جيلاً صاعداً من الشباب وطلاب العلم لم يعرفهم الأصمعي قد احتلوا أماكنهم في حلقات المسجد فلما عاد الأصمعي الى حلته عاد اليه طلابه السابقون والتفوا حوله ، وتضخم مجلسه اكثر من ذي قبل بفضل اتساع شهرته وارتفاع منزلته العلمية ومكانته الاجتماعية وقد صده طالبو الفوائد الفكرية من كل مكان ، وصارت تنہال عليه الأسئلة في المشاكل اللغوية والأدبية من أنحاء البلاد ، بما فيها المسائل التي يرسلها اليه امير المؤمنين المأمون بن الرشيد وببدأ الزمن يعيد دورته من جديد ، كأن لم يحدث من قبل شيئاً .

وطال استقرار الأصمعي الأخير في البصرة زهاء ثلاثين سنة أخرى ، استطاع خلالها ان يتم رسالته العلمية في حلته ، منصرفًا الساعات الطوال من يومه الى التأليف والتصنيف ، في بيته ، وجمع ما ادخر في ألواره ودفاتره من لغة ونحو وأدب وأخبار ، حتى تم له تأليف العشرات من الكتب التي ستحدث عنها في مكان آخر وكان يساعده في ذلك شباب من اسرته درسوا عليه وأفادوا من علمه ، منهم ابن أخيه « عبد الرحمن الأصمعي » وابن اخته « احمد بن حاتم الباهلي » اللذان كانا يكتبان بين يديه

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٥

ولم يترك الدرس والتحصيل رغم ما وصل اليه من العلم الغزير والأدب الجم يقول صاحب كتاب « مجلس ثعلب » قيل للأصمي « كيف حفظت ونبي اصحابك ؟ قال درست وتركوا »^(١) كما لم يترك التدريس في حلقاته والتأليف في بيته حتى أشلت الشيخوخة كاهله يقول « التوزي » احد طلابه خرجت الى بغداد فحضرت حلقة « الفراء » ، فلما انس بي قال ما فعل ابو زيد الاننصاري ؟ قلت ملازم لبيته وحلقته في المسجد وقد اسن ؟ قال ذاك أعلم الناس باللغة وأحفظهم لها ثم قال وما فعل ابو عبيدة ؟ قلت ملازم لبيته ومسجدده على سوء حلقه ، قال اما انه اكمل القوم وأعلمهم بأيام العرب ومذاهبها ثم قال وما فعل الأصمي ؟ قلت ملازم لبيته ومسجدده ، قال ذاك أعلمهم بالشعر وأتقنهم لغة وأحضرهم حفظاً^(٢)

هذا ما كان من اعر نشاطه في الناحية الفكرية خلال هذه الفترة الأخيرة من ايامه وأما الجانب الشخصي فيها فلم يختلف عن ذي قبل الا في امرتين او لهما ، انه بعد ان بلغت سمعته جوانب البلاد الاسلامية وأجواء العلم والأدب العربي فيها ، بفضل المكانة التي كان قد وصل اليها في قصر الرشيد ، لم يعد محتاجة الى منافسة احد من الناس في هذا المجال ، وخفت وطأة الحرص عنده في سبيل ان لا يغلب في مناظرة او مناقشة علمية او أدبية ؛ وصار ولاة البصرة وأمثالهم يخطبون وده وصحبته وينشدون ارضاه ، لبقاء صيته الأدبية بشخص الخليفة المؤمن ولم يأت البصرة وزير او أمير الا رغب في زيارته ومقابلته ، وتشوق الى سماع حديثه

(١) المزهر : ج ٢ ص ١٩٣

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١

وشيء من ذكرياته مع الرشيد ؟ وقلا ورد البصرة عالم او اديب الا قصد المسجد وجلس في حلقة الضخمة لأخذ شيء من الفائدة عنه ، وربما عد ذلك كسباً اديباً له ، ليقول غداً : سمعت الأصمعي ، وجلست الى الأصمعي (١) والأمر الثاني ، هو انه لم يعد فقيراً معدماً كما كان ، ولكنه اصبح في نعمة من الثراء يحسده عليها الكثير من علماء ذلك العهد وبات في غنى عن عطاء احد من الناس اذا جاء ذلك العطاء بمنة وفضل ؛ وفي منأى عن ارضاء سراة البصرة ووجوهاً ومداجنهم في سبيل الحصول على وسائل العيش التي توفرت لديه بزيارة وقد جاء في بعض الاخبار انه بات يتاجر بالفواكه والآثار في صفقات كبيرة ، وربما كانت تلك الآثار والفواكه من حاصلات مقاطعاته الزراعية (٢) وقيل انه صار يقتني الخيل والابل ويتجه بها بمساعدة نفر منبني أصم ، الذين مارسوا هذه المهنة منذ زمن بعيد ومهروا فيها (٣)

ولكنه ظل محلياً رغم سعة حاله ، فلم يترك الاستقصاء والمساومة في معاملاته ، وربما زاد مخله وامساكه بتقدمه في السن جريأاً مع الطبيعة « اذا شانح البخيل زاد جبه للمال » ولم يبدل منزله المتواضع في حيبني اصم ؛ وعاد الى سابق عهده في اهمال مظاهره وأثاثه اليتى وصار يركب الحمير في ارقة البصرة بعد برادين اخلفاء يوم كان في حاشية الخليفة هارون الرشيد قيل له يوماً وهو راكب على حمار رخيص ابعد برادين اخلفاء صرت تركب هذا الحمار ؟؟ فابتسم وانشد

(١) كان من دواعي الفخر ، عند العلماء من عاصروه وعاشوا بعده ، ان يقول احدهم حدثني الأصمعي ، او يروي عن لسانه فكرة او لغة او نادرة . وفي كتاب الله والأدب امثلة كثيرة على ذلك

(٢) كتاب البخلاف : ٨٧

(٣) نزهة الألباء ١٢٨

ولما ابت الا طرافقاً بوردها وتكديرها الشرب الذي كان صافيا
 شربت برنق من هواها مكدر وليس يعاف الرنق من كان صاديا
 ثم قال وهو يسوق حماره « هذا واملك ديني احب الي من ذاك
 مع قده (١) »

ولم يكن جوابه هذا من قبيل تلك الأجوبة التي اعتاد سابقاً ان يدرع بها لاختفاء محله واهماله ، ولكنها كان في الواقع قد تزهد عند عودته الى البصرة وازاد ورجه وتلاصت رغبته في حب الدنيا ، وصار يتتجنب حكل مکروه او منهي عنه من قبل الدين يقول ابو حاتم السجستاني : اتيت الأصمي بهدية - انا من فضة - قد اتقن صنعه وعنی بنقشه ، فاستحسن وصار يطيل النظر اليه ويعجب بصنعه ، فقلت له انه من الفضة ، فدفعه الي ، وقال اتفني من قوله ، لأنني سمعت النبي عليه السلام قد نهى عن الشرب بالفضة ! ولم يقبله (٢)

مرضه وموته

كان الأصمي سليم الصحة متماسك الجسم في كهولته وفي شيخوخته وما رأيناه يوماً شكا علة مزمنة في جسده ، إلا بعض العوارض المرضية الطارئة كالحمى التي اعتادها سكان البصرة منذ تأسيسها ؛ وربما كانت هي الحمى المنتشرة اليوم لوجود المستنقعات و (الأهوار) القرية من هذه المدينة.

وقد يكون السر في تماسكه الصحي ومتانته هو تكوينه الجسماني قبل كل شيء ، فقد كان نحيفاً غير بدين ولا مفرط في السمنة ، ولم يعرف بشره

(١) ابن خلسان : ج ٢ ص ٣٤٧ - الستان للشاعر المعروف بأبي حبه .

(٢) كتاب الصناعتين : ج ١ ص ٦٥

في الأكل ، ولم يكن ذوقاً للطعام محبًا لألوانه الطيبة ، وربما قلد الأعراب في إسفاره وتنقلاته مكتفيًا بشيء من التمر والسوق ثم انه كان نشيطاً دائم الحركة - كما رأينا - كثير التنقل بين موارد العلم والأدب ومصادرها ، في البصرة واطرافها وفي البوادي البعيدة ؟ وفي غدوه ورواحه واسفاره بين بغداد والرقة والكوفة والنجاشي على ظهور الابل وصهوات الخيل والخيول ؛ وتلك رياضة تكسب الجسم قوة وتأخر له الشابة والقاومة والأسفار في البوادي والنجد والسهول تريح النفس ، وتبدل الأجواء ، وتبعد الحيوية والنشاط ولا ننسى ايضاً بأن المرح الدائم ، ومجالسة الظرفاء ، وتبادل التوادر والطائف والملح هي من أمنع الأغذية للروح ، وأبعد للهم ، وأفني للقلق والاضطراب النفسي المحيط للأعصاب

مارس الأصمي كل هذا في شبابه وكهولته حتى المراحل الأولى منشيخوخته وقد رأيناه يحج حجته الأخيرة وهو قد ناهز السبعين ، ولا نعتقد بأنه حج بعد ذلك لأن السفر إلى الحجاز يحتاج إلى قطع الصحراء عرضًا من البصرة إلى مكة ، وفي ذلك ما فيه من متاعب ومشاق تحتاج إلى جهود مضنية في ذلك العهد ولكنها لم ينقطع عن المربد ومنازل الأعراب المجاورة للبصرة حتى تدعى عتبة الثمانيين ، وصار يحس بثقل الأعوام المتراكمة على كفيه

رأه أحد اصحابه يوماً وقد اتعبه السير في زيارته لصديق ، فقال له كيف حال الأصمي ؟؟ قال « حال من صحب الدنيا حتى اتعبته » وجلس يوماً بين طلابه ، فشكّا لهم مرضًا خفيفاً كان قد اعتراه ، فقالوا له طارىء زائل وعافية نرجوها لك ، فقال منشدًا

اذا الرجال ولدت اولادها

واضطررت من كبر اعضادها
وجعلت اسقامها تعتادها
فهي زروع قد دنا حصادها (١)

وكان يسير يوماً في ازقة البصرة ويجانبه احد طلابه ، يسير معه ،
وصار الناس يمرون به ويسلمون عليهما ، وبعضهم يقف ويسأله قائلاً
كيف الأصمعي ؟ فالتفت الى صاحبه الذي معه ، وانشد بيت ليبدأ
ابن ربيعة

ولقد سُئلت من الحياة وطولاها وسؤال هذا الناس كيف ليبدأ
ولما قارب التسعين ، تقلص نشاطه ، وقل了 زياراته لمجالس اصحابه ،
واقتصر على بيته ومسجده ، ومجلس صديقه القديم الأمير سعيد بن سلم الباهلي
في بعض الأحيان . وبدأ يذكر الموت ويتخوف منه ويكرر قوله « ربى ،
خفف حسابي بين يديك » ؟ ثم صار اذا تذكر امراً سينأ صنعه في
ماضيه استغفر ربه ، وحاول اصلاحه اذا كان مما يمكن تلافيه قيل ان
احدهم انشد امامه قصيدة الأعشى التي يقول في مطلعها
بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا واحتلت الفور والجدين فالفرعا
فقال حاضريه اعترف لكم باني كنت قد اضفت على هذه القصيدة بيتاً
من عندي ، وهو

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلع
فاحذفوه منها لأنه دخيل عليها (٢)

ويقول ابو حاتم السجستاني قات للأصمعي في اواخر ايامه في

(١) الأمالى : ج ٢ ص ١٨٧

(٢) الأغانى : ج ١٦ ص ١٩ - وفي رواية اخرى ان الذي اضاف هذا البيت على القصيدة هو ابو عمرو بن العلاء .

نفسي شيء اريد ان اسألك عنه ، قال سل ، قلت اريد ان تحدثني بما جرى بينك وبين سيبويه من الماناظرة التي اشتهر خبرها بين الناس ؟ فحدثني عنها بالتفصيل ، ثم اعترف بأن سيبويه كان على حق ، وقال « والله ، يا ابا حاتم ، لقد نزل بي في تلك الساعة شيء من سيبويه وددت ان لم اتكلم في شيء من العلم ، لأنه كان أصوب مني رأياً في المسألة وقد غلبته بلسانى (١) »

ونحن لا نعلم بالدققة متى ترك الأصمي حلقة في المسجد ولكن الذي يغلب على الظن انه تركها قبل وفاته بعده اعوام ، اي قبيل بلوغه التسعين ؛ وكان يومئذ قد توفي صاحبه ابو زيد الانصاري وأبو عبيدة وصار يشعر بالضعف يدب في ذاكرته شيئاً فشيئاً ، ويحس بوهن في عزيمته فلا يقدر على ادارة مجلس علمي كبر طلابه فيه ، ونبغ شبابه ونضجت ثقافتهم

وقيل انه عند بلوغه التسعين اقطع عن الناس ، فصار اصحابه ومحبوه وطلابه يزورونه في داره ثم طمست ذاكرته ، وأصبح لا يستطيع ان يتذكر ما يريد قوله في المناسبات الا بعد لأي وجهد ؛ ومن حق تلك الذاكرة ان تستريح بعد ذلك الاجهاد والانهاك وقيل ايضاً انه اصيب في اواخر اياته بنوع من المهديان ، فصار يتلفظ بكلمات لا يفهم معناها ، ولكنه شفي من ذلك بعد قليل (٢) وفي العام الرابع والتسعين من عمره انتابه مرض شديد أقصده في فراشه ؛ ثم ثقل عليه فانصرف عن عواده الى ذكر الله والاستغفار

(١) معجم الأدباء : ج ١٦ ص ١٢٥

(٢) عيون الأخبار : ج ٢ ص ٢١١

وفي ليلة من عام (٢١٧ هـ) الموافق لعام (٨٣٢ م) اغمض
ابو سعيد عبد الملك بن قریب الأصمعي جفنيه ، وصعدت روحه الى بارئها ،
فانطفأ بموته مشعل من اكبر مشاعل الحضارة الاسلامية ،ومات أحد « الأئمة الثلاثة
الذين أخذ عنهم جل ما في ايدي الناس من اللغة والشعر القديم بل
« كله »

وفي صباح تلك الليلة أشيع خبر وفاته ، فخرجت البصرة وراء نعشة
تودع نابغة من نوابغ أبنائها ، وعلمًا من أعلام نهضتها ، خدم اللغة
والأدب سبعين سنة بدون وهن ولا انقطاع ، وملاً جوها - مع من ملاً -
ظرفًا وملحًا ونوارد وطرائف بقيت حية خالدة بعده وقيل لم يبق في
البصرة عالم أو متعلم أو أديب إلا مشي - يومئذ - في جنازته ، حتى
خصومه الذين ابغضوه في حياته

والغريب في أمر جنازته أنها كانت اشبه بظاهرة علمية وأدبية بين
تلك الجماهير الراخدة من المشيعين من رجال الفكر والأغرب من ذلك
ان يختلف فيها أصدقاء الأصمعي وخصومه حول فضله وأدبه وآرائه كما كانوا
يختلفون حول ذلك ايام حياته ، رغم جلال الموقف ورهبة الموت وحزن
الأقربين فقد روى « ابو العيناء » قال كنت أسير وراء الجنازة ،
والناس بين حزين وآسف ومطرق خاشع ، وشاعر يتمتم برثائه له ، وتلميذ
يدرك فضله ، فربى الشاعر ابو العالية « الحسن بن مالك الدمشقي »
وهمس في أذني ابياتاً يقول فيها

لَا در در نبات الأرض اذ فجعت بالأشمعي قد أبقت لنا اسفاً
عش ما بدا لك في الدنيا فلست ترى في الناس منه ولا من علمه خلفاً
ثم مضى في سيره ؛ وجاءني بعده الشاعر ابو قلابة « حبيش بن

عبد الرحمن » - وكان شيعي المذهب - فأشدني همساً

لعن الله اعظمًا حملوها نحو دار البلى على خشبات
اعظمًا تكره النبي وآل البيت والطيبين والطيبات
فعجبت من اختلافها فيه بالرأي (١)

وفي رواية أخرى ان عددا من أقرباء الأصمي كانوا يتقدموه
الصفوف وراء جنازته ، وفيهم ابن أخيه « عبد الرحمن » - وكان يعتبر
من التقلاء - فسمعه بعضهم يقول « أنا الله وإنما إليه من الراجعين » ولم
يقل لها كما أنزلت « وإنما إليه راجعون » فقال أحد السامعين لأصحابه
« ما على هذا لو استرجع كما علمه الله ؟؟ » (٢)

ثم اجتاز الشيعة بالنش ارقة البصرة نحو « جبانة بني أصم »
حتى وصلوها وهناك وضع الجثمان بجانب القبر ، وصلى عليه الناس وراء
امامهم « الفضل بن اسحاق العباسى » ، ثم انزل إلى مثواه الأخير ،
وروي فوقه التراب ، وابنه عدد من كبار طلابه ومحبيه ، ورثاه الشعراء
من منصفيه ، فقال محمد بن أبي العناية

اسفت لقد الأصمي لقد مضى حميداً له في كل صالة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا اذ ودع الأنس والعلم

(١) ابن خلkan ج ٢ ص ٣٤٨ . في رأينا - اذا صحت رواية أبي العيناء هذه - ان
الشاعر حبيش بن عبد الرحمن هنا لم ينصف الأصمي في ذلك الموقف ، ولم يقل الحق فيه ، لأن
بعض التي خروج عن الاسلام ، ورجل كالأصمي يعرف ذلك وهو على ما هو عليه من
التدبر والتقوى !! تم اذا كان حبيش هذا يعتقد بأن الميت كان يبغض النبي فلماذا خرج في
تغبير جنازته ، ان لم يكن منافقا ؟؟ الحق ان هذا الشاعر اعطانا مثلا من اوائل الحصوم
الذين كانوا يفترون على الأصمي ولا يتورعون في اكاذبهم عليه .

(٢) الدميري : ٥٥

وقد كان نجم العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أفل النجم (١)

ذرتہ

تواتر الأخبار والروايات على اـ الأصمعي كان قد تزوج وأنجب ، ولكننا لم نعثر على اثر لأولاده ، هل كانوا بناتاً وبنين ام من البنات فقط وقد علمنا بأنه كان يكـنـى بـأبـي سـعـيدـ ، فهل كان له ولد بهذا الاسم ، ام هي كنية مجردة اطلقها على نفسه او اطلقها الناس عليه بدون وجود المـكـنـى به كـاـهـي العـادـة عند العـربـ في كل زـمانـ ؟؟ ولم يخبرـنا احد عن اسم زـوـجـه او عن نـسـبـهـ ، والأغلـبـ انـهاـ كانت باـهـلـيـةـ انـ لمـ تـكـنـ اـصـمـعـيـةـ فيـ الصـمـيمـ وهـلـ تـزـوـجـ وـاحـدـةـ اـمـ اـكـثـرـ مـنـ وـاحـدـةـ ؟؟

اما انه قد تزوج وأنجب اولاداً ، فقد روى ابو حاتم السجستاني قال
قال لي الأصمي في كبره «كنت شاباً مقتبلاً ، فتزوجت ، فولد لي
وولد لأولادي وأنا حي »^(٢) وفي كتاب الفهرست «انه ترك عقباً
بعد «^(٣) . والظاهر ان عقبه هذا كان من البنات وليس فيهم بنون ،
فأهل التاريخ ذكرهن كعادته في اهمال ذكر النساء غير الشهيرات

ولو كان للأصمي اولاد من البنين لشاد بذكراهم في روایاته او تحدث عنهم ونوه بأسمائهم ، ولعني بتربيتهم وتشقيفهم فكان لهم شأن بذكره كما كان لابن أخيه « عبد الرحمن الأصمي » وابن اخته « احمد بن حاتم الباهلي » وأكثر من ذلك ما رواه صاحب كتاب معجم الأدباء ،

١٨٧ ج ٢ ص (٢) الأُمالي:

(٣) الفهرست : ٥٥ = المعارف : ١٨٤

قال بأن آثار الأصمعي من كتب ومؤلفات انتقلت بعد موته الى يد ابن اخته أبي نصر «أحمد بن حاتم» الذي صار يتكسب بها - على الشكل الذي سندكره فيما بعد - فلو كان للأصمعي ابن ذو شأن لما ترك ثروة ابيه الضخمة بيد غيره

ودليل آخر لا يخلو من قيمة ، هو أن الأصمعي كان من كبار العلماء الخالدين الذين تركوا وراءهم ذكراً حسناً ومجداً يصلح للمباهاة والتفخر بين الناس ومع ذلك لم نجد ، في العصور التي اعقبت عصره ، احداً من العلماء أو الأدباء أو غيرهم ادعى بأن نسبة يتصل بشخص الأصمعي عن طريق ابنته ، ولم يقدم أحد على ذلك لاته - على ما يظهر - لم ينجذب ولذاً ذكرنا

والذي يقرب إلى الواقع انه كان قد تزوج بأمرأة واحدة لا أكثر ،
وذلك قوله

يا امة الله الا تسمعي ما قال عبد الملك الأصمعي
واحدة اعضلني امرها فكيف لو قت على اربع

ويبدو لنا ان هذه الزوجة قد توفيت في سن مبكرة بعد ان تركت منه عدة بنات ، فلم يتزوج بعدها ، واهتم بتربية صغيراتها حتى كبرن وتزوجن وأنجبن والدليل على ذلك تلك القصة التي مر ذكرها وتواردت فيها الروايات وهي انه «دخل ذات يوم على جعفر بن يحيى البرمكي ، فقال له هل لك زوجة يا أصمعي؟؟ قال لا ، قال فجارية؟؟ قال جارية للخدمة - اي للخدمة - ، فقال جعفر : هل تحب ان اهديك جارية نظيفة؟؟ » الى آخر القصة ، وتنتهي بعدم اهداه الجارية له ، وتعويضه منها بآلف دينار وقد علمنا بأن الأصمعي لم يتصل بالبرامكة

إلا بعد مجئه إلى بغداد واتصاله بيلات الرشيد ، وعمره - يوم ذاك -
خمسون سنة ؛ كما علمنا أيضاً بأن نشاطه الجبلي انتقطع في كبره (١) ؛
فلا يستبعد أن يكون قد بقي على ترمله حتى النهاية

طلابه

ليس في الامكان احصاء عدد طلابه ، لكثره من لازم حلقته في
مسجد البصرة خلال ستين سنة ؛ ولكثره ما تنقل هو في البلاد والقىافي ،
فعلم وتعلم ، وأفاد واستفاد ؛ ولم يترك موضعًا طرقه ومكث فيه طويلاً أو
قليلاً الا ترك وراءه فيه استاذًا أو تلميذاً في وقت واحد وليس من
الصواب ان نعتبر كل قائل في كتب اللغة والأدب « حدثني الأصمي »
او « سمعت الأصمي » تلميذاً له ؛ ولكننا عرفنا بعض هؤلاء الذين لازموا
مجلسه في مسجد البصرة ، او درسوا عليه حقاً في اماكن أخرى ، فأصبحوا
فيها بعد من مشاهير علماء اللغة او النحو او الأدب او الأخبار .. نذكر منهم :
ابو حاتم السجستاني (٢) « سهل بن محمد » ، وهو عربي من جشم ؛
وكان اماماً في اللغة والأدب والأخبار ، يتقن العروض واخراج المعنى منه !
وله شعر رصين جيد وقد ذكر ابن خلكان عدداً يبلغ الثلاثين من
مؤلفاته ، وجلها في اللغة من باب (المعاني المختومة في أصل مشترك) مثل
كتاب الوحوش والسيوف والجراد وغيرها ؛ ومنها ما يبحث في التاريخ
والسير مثل كتاب « المعرين » ويشتمل على اخبار مائة وعشرة من
مشاهير المعرين في الجاهلية والاسلام (٣)

(١) البصائر والذخائر : ٥٦ .

(٢) توفي ابو حاتم عام ٢٤٨ هـ

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٣٧

لازم ابو حاتم حلقة الاصمعي زمناً طويلاً وأخذ عنه معظم علومه .
وكان أطول من لازمه وعاشره من بين طلابه ، وأكثر من روى
عنه ، ولم يفارقه حتى توفي ؟ فكان بالنسبة الى الاصمعي وقرب منزلته منه
اشبه بالاصمعي من استاذه ابي عمرو بن العلاء . وله أخبار وروايات تم على
صحبة وصداقة متينة لم تنفص عراها قط حتى فرق الموت بينها وقد
خبرنا بأنه كان يجلس بجانب سرير مرضه في أيامه الأخيرة ، فيحادثه
ويسأله عن كل شيء فيجيئه الاصمعي على كل ما يسأل ولم يستقله حتى في
مرض موته

ولم يشد ابو حاتم حلقاته في مسجد البصرة الا بعد وفاة استاذه
وهو من أصح وأوثق من روى وتحدث عن الاصمعي وآرائه ؛ وقد ألف كتباً
كثيرة جمعها من محاضراته وما أخذ عنه فكانت صحبته الطويلة هذه
للأصمعي سبباً من اسباب شهرته وتضخم حلقاته والتفاف طلاب العلم حوله
لاعتبارهم اياده اشبه بكتابه لرسالة ذلك الأصمعي العظيم وقد نبغ على يد
ابي حاتم عدد من اجلة علماء عصرهم في اللغة والأدب امثال « محمد بن
يزيد المبرد » و « ابن دريد » وغيرها

والرياشي « العباس بن الفرج » (١) وكان من علماء اللغة والنحو ،
كثير الاطلاع في اخبار العرب وتاريخهم لازم الأصمعي طويلاً وأخذ
عنه سائر العلوم ، وروى الأدب والأخبار وكان اختصاصه اكثراً ما
يكون في اللغة ثم النحو والأخبار وتخرج على يده عدد من شخصيات
ذلك العهد مثل « ابراهيم الحراني » المعروف في بلاط الخليفة المادي ،
« وابن ابي الدنيا » وغيرها

(١) توفي الرياشي عام ٢٥٧ - قتل في معركة الزنج

وأبو عمرو المروي « شمر بن حدویه » (١) . وكان لغويًا أيضًا ، حافظًا للغريب من الشعر . درس على الأصمعي وأخذ عنه اللغة التي اختص بها فيما بعد ، وأخذ النحو والادب وله مصنفات كثيرة في اللغة ، اهمها معجم في اللغة بدأ به بحْرُ الجِمِّ ، على ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد ولم يسبته أحد إلى مثل هذا المعجم ، ولكنَّه ضاع وبقي خبره فقط . أبو هفان « عبد الله بن احمد بن حرب » (٢) وكان لغويًا شاعرًا ، ومقتراً ضيق الحال أخذ اللغة عن الأصمعي ودرس الأدب عليه وله كتاب « أخبار الشعراء » وكتاب « صناعة الشعر » وشعار كثيرة نجدها في كتاب معجم الادباء (٣) وأخذ عنه « يوت بن المزعز » و « احمد بن أبي طاهر » وغيرهما و « علي بن المغيرة » المعروف بالاثرم (٤) وكان لغويًا ونحوياً . يشتغل ورافقًا ينسخ كتب العلماء وهي مصححة . عينه اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد لنسخ الكتب العلمية المصنفة من قبل علماء ذلك العصر والتي كانت تحفظ في قصر الخلافة ولعلي هذا اشعار كثيرة بقى بعضها حتى يومنا هذا (٥)

وأبو عمرو الجرمي « صالح بن اسحاق » (٦) وكان فقيهًا عالماً بال نحو وباللغة وهو من اهل البصرة ، أخذ النحو عن يونس النحوي واللغة والأدب عن الأصمعي ؛ ثم قدم بغداد فدرس النحو أيضًا على الأخفش

(١) توفي أبو عمرو المروي عام ٢٥٥ هـ .

(٢) توفي أبو هفان عام ١٩٠ هـ .

(٣) معجم الادباء : ج ١٢ ص ٥٤ .

(٤) توفي الأئمَّةُ عام ٢٢٣ هـ .

(٥) معجم الادباء : ج ١٦ ص ٧٧ .

(٦) توفي أبو عمرو الجرمي عام ٢٢٥ هـ .

ومن مؤلفاته في النحو كتاب جيد يدعى « الفرخ » ومعناه فرخ كتاب سيبويه المعروف باسمه وله أيضاً كتاب مختصر في النحو وكتاب « الأبنية » في اللغة وكتاب « العروض » ^(١) وكان متديناً ورعاً حسن المذهب وقيل أنه درس ديوان المذلين على الأصمعي وروى عنه الشيء الكثير وخرج على يده عدد من علماء ذلك الزمان

وابو عثمان المازني « بكر بن محمد بن عثمان » ^(٢) وهو من أشهر النحاة في عصره واليه انتهى علم النحو وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « الألف واللام » وكتاب « التصريف » وكتاب « العروض » وغيرها، ولكن لم يصلنا منها شيء . درس على الأصمعي اللغة والنحو والأدب والأخبار، ولازمه طويلاً وروى عنه الكثير وعاصر المازني الخليفة العباسي « الوائق » و « المتوكل » وجالسهما وعنه أخذ الكثير من نحاة ذلك العصر ^(٣)
وابن السكينة « يعقوب بن اسحاق » ^(٤) وهو من نحاة الكوفة، لقي الأصمعي وأخذ عنه اللغة والأدب وله تأليف كثيرة أشهرها كتاب « اصلاح المنطق » وكتاب « تهذيب الألفاظ » وقد تخرج على يده علماء كثيرون في النحو واللغة والأدب والأخبار ^(٥)
وابو عمران « موسى بن عبد الملك » ^(٦) وكان من جملة الرؤساء وأفضل الكتاب وأعيانهم خدم جماعة من الخلفاء وكتب لهم وكان اليه (ديوان السود) في عهد المتوكل وله ديوان رسائل وأشعار

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٧٨

(٢) توفي المازني عام ٢٤٩ هـ

(٣) ابن خلكان : ج ١ ص ٢٥٤ هـ

(٤) توفي ابن السكينة عام ٢٤٤ هـ

(٥) السيرافي : ٨٥

(٦) توفي ابو عمران عام ٢٤٦

كثيرة لا تزال آثارها باقية في بعض كتب الأدب أخذ عن الأصمعي ،
وصاحبه في بغداد أيام كان هذا في بلاط الرشيد (١)

والتوزي « عبد الله بن محمد » (٢) وكان من كبار علماء النحو
واللغة والأدب . ومن أعرفهم بأخبار العرب . أخذ اللغة وغيرها عن الأصمعي ،
وقد لازمه طويلاً وتحدث عن أخباره (٣)

« يحيى بن واقد الطائي ولد ببغداد وانتقل إلى البصرة فتوطنها ،
وأخذ عن الأصمعي النحو واللغة وكان ثقة صدوقاً أخذ عنه الشيوخ
وتحرج عليه عدد كبير من الناس وله مؤلفات لم نعثر عليها (٤)

« إبراهيم بن سفيان » المعروف بالزيادي نسبة إلى جده الأعلى زياد
ابن أبيه وكان نحوياً لغويّاً راوية ،قرأ النحو على سيبويه ، وأخذ
اللغة عن الأصمعي وكان شاعراً ولا تزال آثاره الشعرية في بعض كتب
الأدب ومن تصانيفه كتاب « النقط والشكل » و « تنميق الأخبار »
و « أسماء السحاب والرياح والأمطار » وغيرها (٥)

وربما كان عدد من أخذ الأدب والشعر عن الأصمعي من الطلاب
أكثر من أخذ عنه اللغة والعلم لما اشتهر به الأصمعي في ذلك الوقت من
رواية غريب الشعر وتفسيره ونقده ، ومنهم

« القاسم بن سلام » المكنى بأبي عبيد كان أبوه عبداً رومياً من
أهل (هرات) اشتغل أبو عبيد بالحديث والأدب والفقه وكان ديناً

(١) ابن خلkan : ج ٤ ص ٤١٩

(٢) ترفة الابباء : ٢٣٢

(٣) معجم الأدباء : ج ٢٠ ص ٣٨

(٤) معجم الأدباء : ج ١ ص ١٥٩

ورعاً متفنناً في اصناف علوم الاسلام والقراءات والفقه والعربيه والأخبار وهو يصح ان يعد من رجال الحديث لولا ان كتبه كان لها شأن لغوي روی عن الأصمعي ، وألف بضعة وعشرين كتاباً ، وهو أول من ألف في غريب الحديث ولم يصلنا من كتبه غير كتاب « غريب الحديث » و « غريب المصنف » و « الأمثال » و « فضائل القرآن وأدبه » و « الموعظ » (١)

« عمر بن شبه » ويكنى بأبي زيد ، ويدعى « ابن ربيطة التميري ». نشأ بالبصرة شاعراً اخبارياً راوية صادق اللهجة ، وقد ألف ما يزيد على اثنين وعشرين كتاباً في وصف البصرة والكوفة ومكة وأمرائها وغير ذلك ، ضاعت كلها إلّا كتاب « الجهرة » وهو يشتمل على اخبار العرب العرباء وشيء من اياتهم وأشعارهم وحروفهم قبل الاسلام مع الفرس والروم واليمن وهو من قبيل القصص التاريخية (٢)

« محمد بن سلام الجمي » من اهل البصرة كان عالماً بالشعر والأخبار ألف كتاباً في طبقات الشعراء الجاهلين وطبقات الشعراء في الاسلام وهذا الكتاب اقدم ما وصل اليانا من كتب الطبقات ، وظل مرجع طلاب الشعر الى عهد غير بعيد وقد اخذ منه صاحب كتاب الأغاني وأبو علي القالي في كتابه « الأمالي » والزجاج والسيوطى وله كتب أخرى مفقودة ، منها كتاب « بيوتات العرب » و « ملح الأشعار » (٣)

« هشام بن ابراهيم » المعروف بالكرنبي جالس الاصمعي ، وكان

(١) ابن خلكان : ج ٣ ص ٢٤ - توفي القاسم بن سلام عام ٥٢٢هـ.

(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ١٢٧ - توفي ابن شبه عام ٢٦٢هـ.

(٣) جرجي زيدان : ج ٢ ص ١٠٨ - توفي ابن سلام عام ٥٢٣هـ.

عالماً باللغة وأيام العرب وأشعارها روى عنه خلق كثير منهم « الفضل بن الحباب » وله تصنيف عديدة أشهرها كتاب « الوحوش » و « النبات » و « الحشرات » ، « خلق الخيل » وله مجالس مع الشعراء والأدباء اتّجت أشعاراً كثيرة (١)

« احمد بن حاتم الباهلي » المعروف بأبي نصر ابن أخ الأصمعي وأقرب الناس اليه ، وفيه يقول « ما يصدق على الا أبو نصر » وكان أبو نصر يروي عن خاله كتبه كلها اقام ببغداد ثم انتقل الى سامراء يقول « ابو العباس ثعلب » دخلت على يعقوب بن السكينة وهو يعمل كتابه « اصلاح النطق » فقال يا أبا العباس رغبت عن كتابي ؟ قلت له كتابك كبير ، وأنا عملت الفصيح للصبيان ، فقال سر معي الى أبي نصر صاحب الأصمعي ، فمضيت معه ؛ فلما كنا في الطريق ، قال قد سألت أبا نصر عن بيت شعر فأجابني جواباً لم أرضه ، فهل أعيده عليه ؟ قلت لا تفعل ، فار عنده أجوبة ، وقد أجابك ببعضها فلما دخلنا عليه سأله عن البيت ، فقال له يا مؤاجر ، انت وهذا وأنا قريبك حتى رموني بك ، عندي عشرون جواباً في هذا فخجل من ذلك وخرجنا ، فقلت له لا مقام لك هنا ، اخرج من « سر من رأى » واكتب الى بما تحتاج الي لأسل عنده وأعرفك اياه ولأبي نصر من التأليف كتاب « الشجر والنبات » و « البناء والابن » و « الابل » و « ابيات المعاني » و « اشتقاد الأسماء » و « الزرع والنخل » و « كتاب الخيل » و « الطير »

(١) معجم الأدباء : ج ١٩ ص ٢٨٥ .

و « ما يلحن فيه العامة » و « الجراء » ^(١)

(عبد الرحمن بن عبد الله الأصمعي) ابن اخي الأصمعي كان من اللغويين الأدباء وقد اشتهر في روایاته المأخوذة عن عمه وكان يلازمه في حلقة ، ويصاحبه في بعض أسفاره حتى قيل أنه كان راويته الخالص به ويکاد لا يروي الا له بينما كان ابن عمته ابو نصر يروي الآخرين من العلماء عدا حاله وعن عبد الرحمن أخذ عدد من العلماء كانوا يقصدونه لأخذ روایة عمه عنه ، لأنّه كان ثقة وقيل انه كان من الثلاة وله كتاب (معانى الشعر) ومن طلاب الأصمعي الذين اشتهروا أخيراً بالحديث والفقه

« محمد بن عيسى » المعروف بالترمذى وكان أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث صنف كتاب (الجامع والعلل) تصنیف رجل متقن . وبه كان يضرب المثل بالصدق ؛ وهو ضرير اعمى . يقول السيوطي انه درس على الأصمعي وأخذ عنه اللغة ^(٢)

« سليمان بن معد » ^(٣) المعروف بأبي داود السنجى المروزى وكان محدثاً نحوياً دخل بغداد وأخذ عن الأصمعي وغيره ، ورحل في طلب العلم وجاب بلاداً كثيرة ؛ وكان ثقة وله معرفة تامة باللغة وقد سبق لنا اذكرنا في كتابنا هذا أسماء بعض من أخذوا عن الأصمعي كثيراً او قليلاً امثال الامام مالك والامام محمد بن ادريس الشافى ، وعمرو بن حمر الجاحظ ، ومحمد بن القاسم المعروف بأبي العيناء

(١) معجم الأدباء : ج ٢ ص ٢٨٣ - توفي ابو نصر عام ٢٣١ هـ

(٢) طبقات اللغويين للسيوطى : ٣١٣ - توفي الترمذى عام ٢٧٥ هـ

(٣) توفي سليمان عام ٢٥٧ هـ

واسحاق الموصلي ، والعباس بن الأحنف ، وأبي نواس وغيرهم
وإذا تفحصنا كتب السير وجدنا عدداً آخر كبيراً من درسوا عليه وأخذوا
عنه أمثال عمرو بن مسعدة وزير المأمون ، ونصر بن علي الجهمي ،
وأبي جعفر بن ناصح ، ورجاء بن الجارود ، ومحمد بن عبد الملك بن
زنجويه ، ومحمد بن اسحاق الصاغاني ، ويعقوب بن سفيان القسوبي ، وبشر
ابن موسى الأستدي ، وأبي العباس الكديني ، وأبي عثمان بن نقية ،
وأحمد بن محمد اليزيدي ، والعباس بن رسم ولكل من هؤلاء

تاریخ معروف

القسم السادس

دراسة آثاره

١ - انتاجه

تصانيفه ومؤلفاته
نقده وآراؤه في الأدب ، واقواله
شعره
نوادره عن الأعراب ، ومدرسة القصبة
الوان نوادره

٢ - منقولاته ورواياته

روايته للشعر
روايته للأمثال والحكم
روايته للطرائف والملح
روايته للأخبار التاريخية .
روايته لسير الشعراء

٣ - الأصمعي بعد موته

قصة عنتر ، وغيرها

دراسة آثاره

مات الأصمعي ، وترك ورائه تراثاً ضخماً في العلوم التي اختص بها ؛ فكان ذلك عاملاً رئيسياً من عوامل خلوذه وهذا التراث على قسمين منه ما كان من انتاجه مؤلفاته ، وأراءه القيمة في الأدب والاجتماع ، وأشعاره التي نظمها في المناسبات ومنها ما كان روایة عن الغير في اللغة والأدب والشعر والأخبار وغير ذلك مما كان من اختصاصه وليس بالمستطاع احصاء الكتب القدمة والحديثة - على اختلاف ابجائها - التي نقلت واقتبست من تراثه هذا ولا تخلو في القول اذا زعمنا بأنه يكاد لا يخلو مؤلف قديم - في اللغة او الأدب - من شيء من انتاجه او روایاته ، سواء ذكر اسمه عليها أم لم يذكر يقول بعض العلماء « لا عربية لم يدرس الكتب الأربعية البيان والتبيين للباحث ، والأغاني لابي الفرج الأصفهاني ، والأمالى لأبى علي القالى ، والعقد الفريد لابن عبد ربہ » وقد بحثنا في هذه الأسفار الأربعية متحثاً دقيقاً فوجدنا المحافظ قد نقل عن الأصمعي في كتابه هذا نحواً من ستين روایة أو رأياً أو خبراً ، ووجدنا في الأغاني ما يقرب من مائة وخمسين مرة ذكر فيها اسم الأصمعي ؛ وأما كتاب الأمالى وكتاب العقد الفريد فيكاد لا يخلو فصل فيها من رأى له أو روایة عنه ، حتى ليظن الباحث فيها ان كلاماً من مؤلفيهما اعتمد أكثر ما اعتمد على تراث صاحبنا هذا

وقل كذلك عن امهات كتب الأدب العربي الأخرى امثال « عيون الأخبار » و « أدب الكاتب » لابن قتيبة المتوفى في القرن الثالث المجري ، و « ديوان المعاني » و « كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري في

القرن الرابع ، و « العدة » لابن رشيق القيرواني في القرن الخامس ، و « نزهة الأباء » للأنباري في القرن السادس ؟ وغير هؤلاء في القرن السابع والثامن والتاسع ، وحتى علماء القرن العاشر أمثال السيوطي وغيره من أصحاب المؤلفات الكثيرة ، وكلهم قد ورد منها الأمامي وغرف منه هذا عدا المعاجم اللغوية التقديمة الطافحة برواياته وأرائه ومذاهبه ، أو بأئمأ طلابه الذين لازموه طويلاً وأخذوا جل ما في مؤلفاته عنه من هذا كله نصل الى القول بأن الاحاطة بأئمأ الأمامي الكثيرة ودراستها دراسة علمية ليس بالأمر الممكن ؛ لذا نكتفي هنا بالالمام ببعضها ، واعطاء صور متنوعة منها تربينا ما بذلك هذا التابع العبقري من الجهد الجبار في خدمة العلم والأدب ، في الناحيتين « : الاتاج » و « النقل والرواية » .

تصانيفه ومؤلفاته

بلغ عدد ما وصلنا حتى الآن من أسماء كتبه عن طريق المعاجم ومؤرخي سير العلماء والأدباء ، نيفاً وخمسين كتاباً ؛ وقد يكشف لنا المستقبل عن أسماء أخرى ما تزال مجهرة والمؤسف أن جل هذه المصنفات التي عرفنا أسماءها ضائع ، ولم يصل الى ايدينا منها غير الترجمة السير ، طبع البعض منها ، وبقي البعض الآخر في نسخ خطيبة تنتظر من يطبعها

ذكر لنا (ابن خلكان) في كتابه (وفيات الأعيان) ما يأتي من هذه الأسماء (١) :

١ - كتاب خلق الانساد ٢ - كتاب الأجناس

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٩ .

٢٠ - كتاب السلاح	٣ - كتاب الأنواء
٢١ - « اللغات	٤ - « الهمز
٢٢ - « مياه العرب	٥ - « المقصور والممدود
٢٣ - « التوادر	٦ - « الفرق
٢٤ - « اصول الكلام	٧ - « الصفات
٢٥ - « القلب والابدال	٨ - « الأثواب
٢٦ - « جزيرة العرب	٩ - « الميسر والقداح
٢٧ - « الاشتقاد	١٠ - « خلق الفرس
٢٨ - « معاني الشعر	١١ - « الخليل
٢٩ - « المصادر	١٢ - « الابل
٣٠ - « الأراجيز	١٣ - « الشاء
٣١ - « النحلة	١٤ - « الأخبية والبيوت
٣٢ - « النبات والشجر	١٥ - « الوحش
٣٣ - « ما اتفق لفظه واختلف معناه	١٦ - « فعل وافعل
٣٤ - « غريب الحديث	١٧ - « الأمثال
٣٥ - « نوادر الأعراب	١٨ - « الأضداد

وبعد أن ذكر ابن خلkan هذه الأسماء قال : « ... وغير ذلك « اعتقاداً منه بوجود غير هذه الكتب للأصمعي ولكن لم تصله اسماؤها ، أو انه أكفى بذكر هذا العدد خوف الاطالة وقد جاء في كتاب « الفهرست » لابن النديم ما يؤيد هذه الأسماء ، ويضيف إليها ما يأتي :

(١) الفهرست : ٥٦ .

٣٦ - كتاب الأوقات

- ٣٧ - « الدلو »
- ٣٨ - « الرحيل »
- ٣٩ - « القصائد الست »
- ٤٠ - « الخراج »
- ٤١ - « السرج واللجام والشوي والعنال »
- ٤٢ - « النسب »
- ٤٣ - « الأصوات »
- ٤٤ - « المؤنث والمذكر »
- ٤٥ - « اسماء الخمر »
- ٤٦ - « ما تكلم به العرب فكثير في افواه الناس »
- ٤٧ - « الأصنعيات »

والظاهر ان ابن النديم ايضاً لم يحص اسماء كل مؤلفاته فقد وجدنا
في بعض كتب الأدب واللغة اسماء اخرى تنسب الى الأصنعي ، مثلاً :

٤٨ - كتاب رجز العجاج - رواية الأصنعي - (١)

٤٩ - كتاب شرح ديوان رؤبة بن العجاج (٢)

٥٠ - كتاب شرح ديوان ذي الرمة

٥١ - كتاب الأبواب (٣)

وقد طبع اخيراً كتابان من رواية ابي حاتم السجستاني عن استاذه

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٨٤

(٢) جرجي زيدان : ج ٢ ص ١٠٢

(٣) الأملاني : ج ١ ص ٢٤٦

الأصمعي ، هما

٥٢ - كتاب النخل

٥٣ - كتاب الكرم

وفي المكتبة الوطنية الفرنسية في « باريس » كتاب في نسخة خطية نقلت عن أبي حاتم السجستاني أيضاً ، وقد أخذه عن محاضرات القاهما الأصمعي في بغداد ، وعنوانه

٥٤ - العرب من ابناء هود

وقد عثرنا أيضاً في بعض كتب اللغة والادب على مجموعات من الكلمات اللغوية ، مقتبسة من آثار الأصمعي ، منسقة متقاربة في المعنى ، فكأنها أخذت عن كتاب واحد عني بتصنيفه ففي كتاب « المزهر » لسيوطى مثلاً جمدة مجموعة من هذه الكلمات ، حول مادة (اللبن) واسمائه واوصافه منذ نزوله من الضرع حتى آخر ما يمكن ان يحصل فيه من تخرم وفساد ، تدل على احتمال وجود كتاب للأصمعي بعنوان « اللبن » ولكن لم يذكر بين الاسماء التي عثرنا عليها (١)

ومهما يكن الامر ، فان معظم كتب الأصمعي قد فقد واحتفى ، وبقيت اسماء بعضها في ايدينا وجل هذا الباقي الذي عثرنا على اسمائه لا نعرف طراز تصنيفه وما هي ابجاثه بالدقه ، اللهم الا ما كان قد اقتبس منه في مؤلفات بعض المتأخرین عن عهد الأصمعي فكتاب « الاجناس » مثلاً ، ضائع مفقود ، ولكن السيوطي اقتبس فصلاً صغيراً منه في كتابه المزهر ، فوجدنا فيه اربعة عشر معنى لكلمة « عين » وحدتها ، فدللنا هذا على ان الكتاب

(١) المزهر : ج ١ ص ٢٦١

قد صنف على قاعدة « تعدد المعاني للكلمة الواحدة » (١) ؛ وهو اسلوب قريب جداً من أساليب الماجم اللغوية الحالية عندنا ويقول السيوطي ان الأصمعي اول من اطلق كلمة « الاجناس » على هذا النوع من التصنيف اللغوی . (٢)

ويقول الدميري في كتابه حياة الحيوان « رأيت كتاب - غريب الحديث - للأصمعي في نحو مائتي ورقة ، مكتوباً بخط الحسن السكري » (٣) ولم يتحدث أكثر من ذلك عن هذا الكتاب وجاء في نزهة الآباء ان كتاب « النوادر » صنعه الأصمعي واهداه الى جعفر بن يحيى البرمكي . ويجب ان لا يخلط بين كتاب « النوادر » هذا وكتاب « نوادر الأعراب » ، لأن الأول في اللغة ، والثاني مجموعة قصص صغيرة ذات معان اجتماعية مفيدة رواها الأصمعي عن الأعراب (٤) .

والمظاهر ان كتاب « الخراج » مصنف في اللغة ، يبحث في اسماء الخراج وتواتره ، ولا يبحث في الخراج من الناحية الفقهية التي عني بها ابو يوسف القاضي في كتابه المعروف وللأصمعي كتاب « شرح ديوان ذي الرمة » وهو كتاب ادب كما يدل عليه عنوانه ، ولا يستبعد ار يكون الأصمعي قد صنف هذا الكتاب وعني به ، وقدمه للخليفة هارون الرشيد الذي كان يتذوق اشعار هذا الشاعر ويحفظ معظمها - كما ذكرنا سابقاً -

(١) المزهر ج ٢ ص ٢١٩

(٢) المزهر : ج ٢ ص ١٨٩

(٣) حياة الحيوان : ٧٣

(٤) نزهة الآباء ١٠٥ - يقول الأنباري ان ابا محمد البريدى الف كتاباً باسم النوادر في اللهجة على مثال نوادر الأصمعي الذي عمله لجعفر البرمكي .

وفيما يأتي أسماء كتب الأصمسي التي وصلت ايدينا اليوم

١ - دجز العجاج : رواية الأصمسي ولا يزال الكتاب في نسخة خطية لم تطبع ، محفوظة بالمكتبة الخديوية بمصر ^(١)

٢ - كتاب الغويب او « غريب الحديث » ونسخته الخطية لم تطبع ايضاً ، مودعة في مكتبة الأسكندرية في اسبانيا ^(٢)

٣ - كتاب الخيل ^(٣) ويتحدث فيه الأصمسي عن أسماء اعضاء الخيل وأعماრها مع ذكر ما قيل في ذلك من اشعار . ثم يبحث عما يستحب من خلقة الفرس ، وما يكره منه ؟ وفي صفة مشي الخيل وعدوها وألوانها وشياتها - اي علاماتها من غرر وحجول - ؛ وفي أنساب الخيل العربية المعتقة المعروفة بالعدو والطرد ويذكر بعض الحكايات عن ذلك

٤ - كتاب الشاة ^(٤) : ويبدأ به عن حمل الشاة ، وتعدد اسمائها اثناء الحمل وبعد الولادة ، وعن عمر الشاة وتدرجها في السن ، ثم عن اسمائها عند الحلب ، وأنواع الحلب ، وخلقة الشاة وعيوبها ، وما يستحب منها ، وتركيب قرونها ، وأسماء قطعاتها حسب العدد والكتاب صغير جداً

٥ - كتاب الفرق ^(٥) بفتح القاء وتسكين القاف وقد جاء فيه ما خالف الانسان فيه من البهائم ويبدأ بالقنم ، ثم الشفة ، ثم الأنف ، فالظفر ، فالرجل ، فالصدر ، فالندي ، فالفرج ، ثم المخاط ، والبصاق ،

(١) جرجي زيدان : ج ٢ ص ٢٧٦

(٢) انظر جرجي زيدان : ج ٢ ص ٢١٩

(٣) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ ميلادي من قبل الدكتور « او جوست هافنر » .

(٤) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ ميلادي من قبل الدكتور « او جوست هافنر »

(٥) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ ميلادي من قبل الدكتور « دايفيد هرنخ »

والعرق ، والجلوس ، والتغوط ، ثم النملة - اي البلوغ - والنكاح والحمل والولادة ، وأسماء الأولاد ، ثم اسماء جماعات الأشياء ، وأنواع اصوات الطير والبهائم والوحش

٦ - **كتاب الدارات**^(١) وهو كتاب صغير نقله عن الأصمعي تلميذه ابو حاتم السجستاني يذكر فيه اسماء خمس عشرة دارة مع انشاد بيت او بيتين لكل دارة ولم يذكر هذا الكتاب في الأسماء التي عثرنا عليها بين كتب الأصمعي

٧ - **كتاب الوحوش**^(٢) وفيه اسماء الوحوش وصفاتها ويبدأ بأسماء الحمار الوحشي وصفاته وأعضائه وأسماء البقر وصفاتها وأسماء اولادها مع ذكر ما قيل فيها من شعر او رجز ، وذكر اعضائهما ولبنها وأسماء قطعانها ؛ ثم اسماء الظباء وصفاتها وأسماء اولادها ؛ وأسماء الوعول وصفاتها ، وأسماء النعـام وصفاتها وصفارها ؛ والأسود وأسمائهما وصفاتها ، والذئب وصفاته ، والضبع وأوصافها ، والثعلب وأسمائه ؛ والأرانب وصفاتها

٨ - **كتاب النبات والشجر**^(٣) يتحدث في اول فصل عن النبات عموماً ، وأسماء بعض النبات الذي ينبت في جزيرة العرب وكذلك عن النبت من الأحرار وغير الأحرار من بقول وأعشاب ، وفصل آخر في اسماء الذكور من النبات ، وآخر من غير الذكور ، وفصل في اسماء الحمض ، وفصل فيما ينبت في السهل ، وفصل فيما ينبت في الرمل من الشجر وغيرها

(١) طبع في بيروت عام ١٨٩٨ ميلادي باعتماد اباب لويس شيخو اليسوعي .

(٢) طبع في « فيينا » عام ١٨٨٨ بواسطة الدكتور « رودولف جبير »

(٣) طبع في بيروت عام ١٨٩٨ بواسطة الدكتور « اوستهافنر »

٩- **كتاب النخل**^(١) ويبدأ بصفار النخل وسعفه ، وحمل النخل وسقوطه وطلعه وادراك ثمره ، وتغير ثمره وفساده ، وصراحه اذا ألقح ، وطول النخيل ، وأجناسها ، وعدوتها ، واعرائها ورفع ثمارها

١٠ - **كتاب الكروم** (٢) وهو رواية أبي حاتم السجستاني . وينبدأ فيه بأسماء شجر العنب وضروب العنب ، وحوائطه ، وسقيه ، وجنيه ، ومراحل نضوجه ، وزرعه ، وغرسه ، ونحوه ، وأنواع خدمته والاعتناء به في شجره ، وأسماء نوى العنب ، وعصره وأسماء حموره وألوانها ، وأسماء الخل الذي يعمل منه

١١ - **كتاب الأبل** (٣) ويتحدث فيه عن حمل الناقة وتعدد أسمائها أثناء الحمل ، واسماء الحوار في مراحل نموه ، والمذوحة من صفات الأبل والمذموم .

١٢ - كتاب خلق الانسان (٤) وفيه اسماء اعضاء الانسان واعماره
وزواجيه وولادته

١٣ - كتاب «الأصمعيات» :^(٥) وهو مجموعة قصائد تنسب روایتها الى الأصمعي ، وهي سبع وسبعين قصيدة وقد روى بعضهم ان الأصمعي اراد ان يكمل «المفضليات» التي جمعها المفضل الضبي ، ويزيد عليها . كما ان بعضهم يروي بأن المفضليات هذه التي بين أيدينا لم تبلغ هذا المبلغ

(١) نسب هذا الكتاب الى الأصمعي الدكتور هانز على وجه التغلب ، وربما كان لميـــذه
ابي حاتم : اظر كتاب اللغة للأب شيخو اليسوعي

(٢) طبع في بيروت عام ١٩١٤ بعنابة الأب شيخو اليسوعي . وقد طبع قبلها عام ١٩٠٢

٣) طبع في بيروت عام ١٣٢٢ هجري .

(٤) طبع في بيروت عام ١٣٢٢ هجري .

(٥) طبع في « ليبرك » عام ١٩٠٢ م بواسطة الاستاذ « ايولوت »

من الكبر الا بزيادة الأصمعي فيها و يقول محمد بن الليث الاصبهاني « املي علينا ابو عكرمة الضبي الفضليات ، و ذكر انها كانت ثلاثة قصيدة فقط ، وكان جمعها لامير المؤمنين - المهدى - فقرئت بعد ذلك على الأصمعي فيبلغ بها مائة وعشرين قصيدة »^(١) . ويقول الدميري انها ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غرائبها و اختصار روایتها .^(٢)

١٤ - كتاب « ما اختلفت الفاظه وانفقت معانيه » وهو كتاب لغة يدل عليه عنوانه ؛ اخذه الرواية عن ابن أخيه عبد الرحمن ، ونقل عن نسخة مخطوطة في القرن التاسع المجري ، ويشتمل على ثلاثة واربعين صفحة طبع في دمشق عام ١٣٧٠ هـ

نلاحظ في هذه الكتب المطبوعة ان بعضها اخذ عن تلميذه ابي حاتم السجستاني الذي كان من اقرب طلابه اليه و اكثراهم ملازمته له ، وأخذ بعضها الآخر عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ، نقاً عن حاله ؟ مما يدل على ان معظم تصانيفه التي عني بتأليفها بنفسه قد قدر بعد موته بقليل وقد أخبرنا صاحب « معجم الأدباء » قال انتقلت مؤلفات الأصمعي بعد وفاته الى ابن اخته « احمد بن حاتم الباهلي » المعروف بأبي نصر ؛ فكان ينقلها معه و يتکسب بها وفي ذات يوم دعا « الخصيبي بن اسلم » ابا نصر الباهلي هذا الى مدينة « اصبهان » ليجالسه ويفيد من علمه ، فنقل ابو نصر معه مصنفات الأصمعي هذه التي كان يحتفظ بها ؛ وقام عند الخصيبي في اصبهان مدة قصيرة من الزمن ثم عزم على الحج ، وتأهب لذلك ؛ ولكنه احتار عند من يودع هذه المصنفات حتى يعود ؟ فجاء الى عبدالله بن

(١) ضعي الاسلام : ج ٢ ص ٢٧٦

(٢) الفهرست : ٥٥

الحسن وطلب منه ان يدخله على رجل امين يودعها عنده ، فقال له عبدالله او دعها عند « محمد بن العباس » مؤدب اولادي ، فهو رجل مؤمن لا يعرف بسوء ، فسلم ابو نصر الدفاتر اليه وخرج ولكن محمد بن عبدالله ابن الحسن اعطتها لمن نسخها من الناس بدون علم استاذه ولا ابيه ؟ فلما قدم ابو نصر الباهلي من حجه وعرف الأمر قامت قيامته ؛ ودخل عليه عبدالله بن الحسن وذكر له ما فعل ابنته ، وما كان يأمل في دفاترة من التكسب بها - وكان ابو نصر هذا سليم اللسان - فجمع له عبدالله من اهل البلد عشرة آلاف درهم ، ووصله الخصيب بن أسلم بعشرين الفاً ، فتناولها ورجع الى البصرة ^(١)

يبدو لنا ، من هذه الرواية وما نعرفه عن مخال الأصمعي ومن حوله من اسرته ، بأن عوامل كثيرة تضافرت على اضاعة آثاره وتاليفه منها أنه هو نفسه كان يضن بكتبه على الناس ، فلم يكن من يسمح للوراقين نسخها وتوزيعها على طلبة العلم حرضاً منه على الاحتفاظ بثروته العلمية التي كانت سر شهرته وثرائه ، وإن كان يسمح لطلابه تدوين ما يلقىءه من نفائس محاضراته .. ومنها انتقال مؤلفاته بعد موته الى رجل تحتاج الى التكسب بها من اجل العيش ، ومثل هذا يضن عادة بما لديه على الناس خوفاً من انقطاع المورد فكان من جراء ذلك ان بقيت هذه المؤلفات نادرة بين طلاب العلم فلما تماست السنون ونشبت الفتن وتمزقت دولة بني العباس وحدث ما حدث من المحووب والغاريات والتخريب على ايدي المغول ضاع أكثر تراث الحضارة الفكرية عند المسلمين ، ومن بينها آثار الأصمعي غير ان الذي عوض لنا بعض الشيء عن هذه الخسارة ، هو ان ذلك

(١) معجم الأدباء : ج ٢ ص ٢٨٥

العدد الكبير من الطلاب ، الذين لازموا الأصمعي اعواماً طويلاً ، نقلوا عنه الشيء الكثير مما كان يليق به في حلقته ويحاضر به في مجالسه ، من آراء وروايات ونورادرواشعار ، ودونوا قسماً من كتبه أثناء اطلاعهم عليها ، ونقلوها في في الواحهم ودفاترهم وادخلوها في تصانيفهم ، فانتقلت بوساطتهم الى طلابهم ومن آن بعدهم من العلماء ، فسبلوا هم ايضاً في آثارهم اللغوية والأدبية فاندمجت بعدهم وتوزعت بين معاجم اللغة وكتب الأدب والشعر يقال «**السيوطى مثلاً** » واما القاسم بن سلام المكنى بأبي عبيد فإنه مصنف حسن التأليف ، الا انه قليل الرواية ، وقد اعتمد في كتابه - الغريب المصنف - على كتاب عمله رجل من بنى هاشم جمعه لنفسه ، واخذ كتب الاصمعي فبوب ما فيها ، واضاف اليها شيئاً من علم أبي زيد وروايات عن الكوفيين وكان القاسم هذا من اخذ عن الأصمعي ^(١) وهذه الرواية المقتضبة تعطينا صورة عن مصير آثار الأصمعي وكيف ذابت في حظيرة المجموعات اللغوية والأدبية التي بين ايدينا اليوم

ومهما يكن ، فان نظرة فاحصة على اسماء كتبه التي دونها هنا تدل على ان القسم الكبير منها كان في اللغة ، وقد صفت على طريقة « جمع الكلمات المتقاربة في المعنى » وهي الخطاوة الثانية التي خطتها العرب حتى صنفوا المعاجم اللغوية على الشكل الذي بين ايدينا فقد بدأ علماء اللغة في جمعها اول ما بدأوا على طريقة « جمع مفرداتها كيما اتفق » ثم صاروا يجمعونها « متقاربة في المعنى » كما فعل معاصر و الأصمعي ، ثم تطورت بعد ذلك الى أسلوب المعاجم الحديثة في « جمع الكلمات حسب أحرفها الاولى ، واعطاء المعانى المختلفة لها » على ان الأصمعي وبعض معاصريه

(٢) المزهر ج ٢ ص ٢٥٧

امثال الخليل بن احمد وغيره بدأوا بالخطوة الثالثة هذه كما جاء في كتاب « العين » للخليل ، وكتاب « الاجناس » للأصمي ، ولكن هذه الطريقة لم تكتمل الا في العصور التي تلت

ولم يؤلف الأصمي في النحو كما فعل غيره مثل « عيسى بن عمر الشقفي » و « سيبويه » وامثالهما ، ولكنه كان يتطرق الى القواعد التحوية اثناء تفسيره للشعر الغريب وتوجله في فقه اللغة وفي اسماء كتبه الضائعة ما يدل على انه ألف في بعض جوانب النحو كتباً خاصة ، ولكنه لم يعمد الى التأليف فيه بوجه عام

واما تأليفه في الادب فعددها أقل منها في اللغة ، وقد جاء في أسماء كتبه التي عرف ، عدد منها ، ككتاب « معانى الشعر » و « شرح ديوان ذي الرمة » و « شرح ديوان رؤية بن العجاج » و « الأصنعيات » و « القصائد الست » و « رجز العجاج » وغيرها وربما ألف في الادب اكثر مما ذكرنا ، ولكن اسماء كتبه هذه ضاعت مع الاسماء الأخرى وقد رأيناها يؤلف في سائر الفروع العلمية الأخرى التي اختص بها او ألم بها ^{إماماً} واسعاً

نقده وآراؤه واقواله

وللأصمي آراء خاصة كان يديها اثناء تفقهه باللغة وبالادب والشعر والمقارنة بين الشعراء ، واقوال خــالدة تشبه الحكم او الموعظ او غيرها اثناء محاضراته في حلقاته او احتــاراته بالناس في مجتمعه و المجالس اصحابه وهي لقيمتها تستحق العناية والتسجيل لانها الواן من الاتساح الفكرى غير انها كثيرة لا يمكن حصرها بعد ان تبعثرت في بطون الكتب

وتناولها العلماء والادباء في مؤلفاتهم وفيما يأتي صور من هذا الاتجاح
نقتبه من بعض كتب الأدب القديمة

يقول « التوزي » سألت الأصمي من اشعر الناس ؟ قال
« من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، او الكبير فيجعله
بلفظه خسيساً وأشارهم ايضاً من ينفعي كلامه قبل القافية ، فاذا احتاج
إلى القافية أفاد بها معنى » قلت نحو من ؟؟ قال قول ذي الرمة
قف العيس في اطلال مية فسائل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل
فتم كلامه بالرداء ، فلما احتاج إلى القافية جاء بكلمة المسلسل ، فزاد
 شيئاً و قوله ايضاً منها

اذن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل
فتم كلامه بالجمان ، ثم قال المفصل ، فزاد شيئاً
قلت ثم من غير هذا ؟؟ قال : الاعشى حيث يقول
كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
فتم كلامه بلفظة « يضرها » ، فلما احتاج إلى القافية قال واوهى
قرنه الوعل « فزاد معنى قلت وكيف صار الوعل مفضلاً على كل ما
ينطح ؟؟ قال لانه ينحط من قلة الجبال على قرينه فلا يضيره .(١)
- وسئل مرة اي بيت تقوله العرب اشعر ؟ قال : « الذي يسابق
لفظه معناه » (٢)

- ويقول « ابن جني » : كان الأصمي يعيّب الخطيئة ويقول
ووجدت شعره كله جيداً فدل على انه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر

(١) كتاب الصناعتين : ٣٠١ .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٢

المطبع الذي يرمي الكلام على عواهنه ، جيده على رديئه ^(١)
 وكان يدح النابغة الذهبياني ويقول « هو قليل التكلف ، عنده
 ثوب بواف - اي بدرهم - ، ومطرف بالآلاف » ^(٢)
 وكان يقول اربع بيت قالته العرب قول ابي ذؤيب
 والنفس راغبة اذا رغبتها و اذا ترد الى قليل تقنع
 واحسن ما قيل في الكبر قول حميد بن ثور الملاوي
 اوري بصرى قد نابني بعد صحة وحسبك داء ان تصح وتسلا
 واحسن من ابتدأ مرثية هو أوس بن حجر في قوله
 ايتها النفس أجيلى جرعا ان الذي تحذرين قد وقعا
 واغرب من ابتدأ النابغة الذهبياني بقوله
 كليني لهم يا اميّمة ناصب وليل اقساه بطيء الكواكب
 واحسن ما قيل في اللون قول عمر بن ابي ربيعة
 وهي مكنونه تغير منها في اديم الخدين ماء الشباب
 وما اعرف احداً اخذه فاحسن فيه مثل « احمد بن ابراهيم » حين قال :
 اغيد ماء الشباب يرغد في خديه ، لولا اديه قطراء ^(٣)
 واحسن ما قيل في صفة الرمح قول ابي زيد : ^(٤)
 واسمر مربوع يرى مارأيته بصير اذا صوبته للمقاتل
 وارثي بيت للعرب قول احدهم ^(٥)

(١) المزهر : ج ٢ ص ٣١٠

(٢) عيون الأخبار : ج ١ ص ١٩٢

(٣) ديوان المعاني : ج ١ ص ٢٣٢

(٤) ديوان المعاني : ج ٢ ص ٨٠

(٥) ديوان المعاني : ج ٢ ص ١٧٥

ومن عجب ان بت مستشرر الثرى وردن بما رودتني ممتعما
 ولو اتي انصفتك الود لم ابت خلافك حتى تنضوي في الثرى معا
 سئل مرة ماذا اراد امرؤ القيس بكلمة « جوف العير » في بيته :
 وواد كجوف العير قفر قطعه به الذئب يعوي كان كللبع المعيل
 قال العير ، هو الحمار ، وقصد بهذا التشبيه ان الوادي كان قفراً كما
 ليس في جوف الحمار ما يؤكل اذا صيد ثم قال ان كلمة « جوف
 العير » تتصل بقصة يذكرها العرب وذلك ان رجلاً من العائلة كان له
 بنون وواد خصب وكان حسن الطريقة ، فخرج بنوه يتتصيدون فاصابتهم
 صاعقة احرقتهم ، فكفر ابوهم بالله وقال لا اعبد رباً احرقبني ؟
 واخذ بعبادة الاصنام ، ودعا قومه اليها فلن ابى قتلها ، فسلط الله على
 واديه ناراً فأهلكه وخرب واديه ؛ والوادي بلغة اليمن الجوف ؛ وكان
 اسم الرجل المذكور « حمار بن موبلع » فعدلت العرب عن ذكر كلمة
 حمار الى ذكر العير ، لأنه في الشعر اخف واسهل مخرجاً ، فقيل جوف
 العير ، اي وادي ذلك الرجل المسى حمار بن موبلع ^(١)
 وقرىء عليه قول النابغة الدياني في وصف ثور وحشى
 يحيد عن أستُن سود اسفله مثل الأماء الغواطي تحمل الحرزا
 فقال انما توصف الأماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالندو ،
 لأنهن يجئن بالخطب اذا رحن ، وقد قال الأخفش التلبي
 يظل بها ربد النعام كأنها اماء يرحن بالعشى حواطب ^(٢)
 وقرىء عليه شعر النابغة في وصف عيون جحيلة

(١) خزانة الأدب : ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) المقد الفريد : ج ٣ ص ١٥٦

نظرت اليك مجاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العود
 قال هذا قبيح ، ولا ينطبق على الذوق السليم ، لأنّه جسم منظر هذا
 السقيم بوجود عائديه حوله وافضل منه قول عدي بن الرقان
 وكأنّها وسط النساء اغارها عينيه احور من جاذر جاسم
 وسنان أقصده النعاس فرقفت في عينه سنة وليس بنائم (١)
 وقرىء عليه ايضاً ارجوزة أبي النجم في وصف الفرس ، فلما وصل
 الى قوله

يسبح أخراه ويقطفو اوله

قال هذا خطأ ، لأنّه اذا سبح اخراه كان حمار السباح اسرع
 منه ، وانما يوصف الجمادات بأنه يسبح اولاً وتلحق رجلاته ، ثم قال
 وخير عدو الذكور من الخيل ان تشرف ، وخير عدو الاناث ان تتبسط
 وتتصغي ، كعدو الذئب (٢)

ويقول الطرماح اشعر الناس في قوله يصف ثوراً وحشياً يعدو
 بمحتاب حلة برجد لسراته قدداً واخلف ما سواه البرجد
 ييدو وتضرره البلاد كأنّه سيف على شرف يسل ويغمد (٣)
 ويقول كان ذو الرمة اشعر الناس اذا شبه ، ولم يفلق (٤)
 ومن قوله ختم الشعر بابن هرمة ، وحكم الحضرمي ، وابن ميادة ،
 وطفيل الكناني ، ودكين العذري (٥)

(١) العمدة : ج ١ ص ٢٢٧

(٢) الأغاني : ج ٩ ص ٧٨

(٣) الأغاني : ج ٥ ص ١٦٦

(٤) الأغاني : ج ١٦ ص ١٠٩

(٥) الأغاني : ج ٤ ص ١٠٤

ان شعر ابي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب والتربا
والخزف والنوى (١)

وقد ذهب امية بن ابي الصلت في شعره بعامة ذكر الآخرة ، وذهب
عنترة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن ابي ربيعة بعامة ذكر
الشباب (٢)

ويقول

(الزحاف) في الشعر كالرخصة في الفقه لا يقدم عليها الا فقيه .

(البليغ) من طبق المفصل واغناك عن المفسر

(المطابقة) مساواة معنى لمعنى

(الایغال) سرعة الدخول في الشيء

(التشبيه) هو المقاربة في المعنى ، فالمحور مثلاً ان تكون العين
سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ، ولا حور في الانسان
(الانفات) هو ان يكون الانسان مقبلًا على شيء ثم يلتفت الى شيء آخر ، كقول جرير الخطفي

اذذكر اذ تودعنـا سليمـي بـعود بشـامـة؟؟ سـقـيـ البـشـام

فـكلـمة « سـقـيـ البـشـامـ » التـفـاتـ جـمـيلـ (٣)

وسائل مرة عن الشاعرين يتفقان في المعنى الواحد ولم يسمع احدهما
قول الآخر ، فقال « تلك عقول الرجال توالـتـ على ألسـنـتهاـ » (٤)
ويقول « ثلاثة تحـكمـ لهمـ بالـمـروـءـةـ حتـىـ يـعـرـفـواـ رـجـلـ رـأـيـتـهـ رـاكـباـ»

(١) الأغانى : ج ٣ ص ١٤٠

(٢) الأغانى : ج ٣ ص ١٨١

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٢

(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٢

او سمعته يعرب او شمت منه رائحة الطيب وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة
حتى يعرفوا رجل شمت منه رائحة النبيذ في محفل ، او سمعته يتكلم
بالفارسية في بلد عربي ، او رأيته على ظهر الطريق ينazu بالقدر » (١)
« خير العلم ما اطافت به الحريق واخرجت به الغريق » (٢)
« لو قسمتُ في الناس مائة ألف درهم كان اكثر للامتي من لو اخذتها
منهم »

« اذا تظرف العربي كثر كلامه ، واذا تظرف الفارسي كثر سكته » (٣)
« اشد الناس الاعجف الضخم ، وأاختت الأفاعي أفاعي الجدب ،
واختت الحيات حيات الرث ، واشد المواطن الحصى على الصفا ، واختت
الذئاب ذئاب الغضى » (٤)

« من أمل رجالاً هابه ، ومن قصر عن شيء اعابه ، وانتا يعيي الشيء
الذي يقصر عنه حسداً » (٥)

يقول الدينوري كان الأصمي لا يقول « بغداد » وينهى عن ذلك
ويقول « مدينة السلام » لأنه سمع بأن (بغ) معناه الصم و (داد)
عطية ، بالفارسية ، فعنده عطية الصم (٦)

ان زهير بن ابي سلمى والخطيئة وامثالها من الشعراء عبيد الشعر
لأنهم نفحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . (٧)

(١) عيون الاخبار : ج ١ ص ٢٩٢

(٢) الدميري : ج ٢ ص ٢٨٨

(٣) عيون الاخبار : ج ٢ ص ٤

(٤) الأمالى : ج ٢ ص ٧١

(٥) الأمالى : ج ٢ ص ٩٦

(٦) ادب الكاتب : ج ١٤٩

(٧) الشعر والشعراء : ٨

- ابو دؤاد الأيادي - في الجاهلية - وطفيل والجعدي هم نعمات الخليل
الثلاثة .. والعرب لا تروي شعر اي دؤاد وعدى بن زيد ، وذلك لأن
ألفاظهما ليست بتجدية (١)

ويقول وجدت اهل مدينة السلام قد ختموا الشعراء بمروان بن ابي
حفصة ، وانا ارى بشار بن برد احق بأن يختتمون به ؟ فقيل له ولم ؟؟
قال وكيف لا يكون كذلك وما كان مروان في حياة بشار يقول شعراً حتى
يصلحه بشار ويقومه .. وبشار مطبوع لا يكلف طبعته شيئاً متذرراً ، لا
كن يقول البيت فيحکكه اياماً وهو يصلح للجد والمزل ، ومروان لا
يصلح الا لأحدتها . (٢)

كان « الحكم الحضرمي » ، ورؤبة ، وابن هرمة ، وطفيل الكناني ،
ومكين العذري « على ساقة الشعراء » ، وتقديمهم ابن هرمة بقوله
لا امتع العوذ بالعضال ولا اتابع الا قربة الأجل
والله لو قال هذا حاتم لما زاد ، ولكان كثيراً (٣)

شعره

للأصمي رأى مشهور في كيف يصير الشاعر فحلاً في قرض الشعر ،
فيقول « لا يصير الشاعر فحلاً حتى يروي اشعار العرب » ، ويسمع
الأخبار ، ويعرف المعاني ، وتدور في مسامعه ألفاظه وائل ذلك ان
يعلم العروض ليكون ميزاناً له على قوله ، والنحو ليصلح به لسانه وليقوم
به اعرابه ، والنسب ، وآيات الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب

(١) الشعر والشعراء : ٣٨

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٥

(٣) الأغاني : ج ٥ ص ٠٠٠

والمثالب ، وذكرها بمحض او ذم «^(١)
 وهذا رأي صائب ، ولكن ينقصه شرط آخر رئيسي ، لا يستطيع
 الشاعر بدونه ان يجيد قول الشعر ، هو « الاصحاح والسهولة ، وجودة
 الطبع » وهو حياة الشعر بل روحه وباعت المزنة في نفس سامعه
 اذا الشعر لم يهزوك عند سماعه فليس خليقاً ان يقال له شعر
 وخير مثل على ذلك الأصمعي نفسه ، وهو من اكثـر الناس رواية
 للشعر ، ومعرفة بمعانـيه ، واتقـاناً لـللغـة وادخـاراً لألفاظـها ، وهو ايـضاً اـحد
 كبار رواة الأخـبار ، واساتـذـة النـحو ، واساطـين النـسب ، وـالعلم بأـخـبار
 الناس ومناقـبـهم ومـثالـبـهم ؟ ولكـنه ليس فـحـلاً فيـلـلـشـعـر ، وـلم يـفـلـقـ فـيـه
 - عـلـى حد تـعبـيرـه - لأنـه لا يـمـلـكـ الـاصـحـاحـ والـسـهـولـةـ فيـ نـظـمـهـ يقولـ
 ابن قـتـيبةـ فيـ كـتـابـهـ « الشـعـرـ وـالـشـعـراءـ » « انـ اـشـعـارـ العـلـمـاءـ ليسـ فـيـهـ
 شيءـ جاءـ عنـ اـسـاحـ وـسـهـولـةـ ، كـشـعـرـ الـاصـمـعـيـ وـابـنـ المـقـعـ وـالـخـليلـ بنـ اـحـدـ ،
 خـلاـ خـلـفـ الـاحـرـ فـاـنـهـ كانـ اـجـوـدـهـ طـبـعـاًـ وـاـكـثـرـهـ شـعـراًـ »^(٢)
 وكانـ الـاصـمـعـيـ يـعـرـفـ تـقـصـيرـهـ وـضـعـفـهـ فيـ هـذـاـ الـجـالـ ، لـذـكـ لمـ يـكـثـرـ
 مـنـ نـظـمـ الشـعـرـ ، وـلـمـ يـقـرـضـهـ الاـ فيـ النـاسـبـاتـ ، وـقـلـماـ اـذـاعـ بـيـنـ النـاسـ ماـ
 تـجـودـ بـهـ قـرـيـختـهـ وـلـماـ سـئـلـ عـنـ سـبـبـ ذـلـكـ قـالـ « يـمـنـعـيـ عـنـ نـظـمـ
 الشـعـرـ نـظـريـ إـلـىـ جـيـدـهـ »^(٣) وـهـذـاـ صـحـيـحـ اـيـضاًـ ، لأنـ مـنـ كـانـ مـثـلـهـ فـيـ فـهـمـ
 الشـعـرـ وـنـقـدـهـ ، وـمـعـرـفـةـ غـثـهـ مـنـ سـمـيـنـهـ ، وـالـاطـلـاعـ عـلـىـ خـفـايـاهـ وـدـقـتـهـ ،
 وـرـوـعـتـهـ وـاـخـطـائـهـ ، لـاـ يـفـوتـهـ اـنـ يـعـرـفـ نـسـهـ فـيـهـ اـذـاـ كـارـ مـقـصـراًـ اـمـ
 مـجـيـداًـ قـيلـ اـنـ جـلـسـ يـوـمـاًـ يـقـلـبـ شـعـرهـ بـيـنـ يـدـيـهـ ، فـلـمـ يـرـقـهـ ، وـصارـ

(١) العمدة : ج ١ ص ١٣٣

(٢) الشـعـرـ وـالـشـعـراءـ : ٥

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥

يهز رأسه ساخراً ، ويقول
 أبى الشعر الا اب ي匪ء رديئه على ويابني منه ما كاپ محکما
 فيا ليتني اذ لم اجد حوك وشيه ولم أك من فرسانه كنت معدما (١)
 وقد ذكرنا له في انحاثنا السابقة قطعاً صغيرة من نظمه ، قالها في
 المناسبات الكثيرة ، كرده على هجاء اسحاق الموصلي له ، وكجوابه شرعاً
 للعباس بن الأحنف في مجلس الفضل بن الربع ، ومدحه لجعفر البرمكي ،
 ثم هجائه لآل برمك واتهامه لهم بالزنقة ، وايات أخرى قالها على أثر
 نكبة هؤلاء بعد أن رأى مصرع جعفر بن يحيى ، وغيرها ، وكلها من
 الشعر الركيك وإن كان صحيحاً من حيث اللغة والنحو والعروض
 وفي كتب الأدب قطع أخرى قالها في المناسبات أيضاً لا تزيد
 قيمتها على ما أوردنا ؛ كقوله في رثاء صديقه المحدث المكي « سفيان
 ابن عيينة »

فليك سفيان باغي سنة درست
 ومستبيت أثارات وآثار
 وبمتنبي قرب اسناد وموعظة
 امست مجالسه وحشاً معطلة
 من للحديث عن الزهري حين ثوى
 لن يسمعوا بعده من قال : حدثنا
 لا يهنا الشامت المسror مصرعه
 ومن زنادقة ، جهنم يقودهم
 وملحدين ومرتابين قد خلطوا
 بسنة الله اهتاراً بأهتار (٢)

(١) العدة : ج ١ ص ٥٧

(٢) عيون الاخبار : ج ٢ ص ١٣٥

وقوله يصف شعوره حين وقف في قصر الخلد ينتظر دخوله لأول مرة
على هارون الرشيد ، وقد طال به الانتظار

وأي فتى اعير ثبات قلب وساع ما تضيق به المعاني
تجاذبه المواهب عن أباء إلا ، بل تؤلفه الأماني
فرب مُعرَّس لليأس أمل عن الدرك الجهير لدى الزمان (١)

وقوله حين دخل يوماً على الرشيد في مجلسه وكان يتحدث عن جارية
له اسمها « دنيا »

ان « دنيا » هي التي تملك القلب قاهره
ظلموها نصف اسمها فهي دنيا وآخره (٢)

والذى نعتقد ان الاصماعي كان يتأثر احياناً ببعض الحوادث التي تمر
به ، فتدور في صدره المعاني ، وتحتلخ في رأسه الفكر والأخيلة ، وتتدافع
على لسانه الافاظ ، فينظم البيتين والثلاثة والعشرة ، ثم يعود الى قراءتها
بعد ذلك فيجدها ركيكة لا تستحق الرواية والنشر باسمه على الناس ؟ فلا
يتركها مهملة تؤول الى الضياع ، ولكنه يصوغ حولها نادرة من نوادره
المعروفه عن الاعراب مما تعود ان يصنع ، ويدسها فيها على لسان بدوي
مجهول فتظهر جميلة بفضل الاطار الذي يحيطها به من حياة الاعراب
ومشاكلهم ، وتلذ للناس ، وتناقلها الألسن ، وتدون في المؤلفات
والذى يعن النظر في بعض نوادره هذه المحتوية على شيء من الشعر يجد
بعض ابياتها تتقارب في الاسلوب والديباجة والنسج مع تلك التي نظمها
وعرفت بأنها له

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ٤٢٩

والغريب انه رغم تقصيره عن ادراك مزلاة الفحول من الشعراء ، كان ينظم الشعر بسهولة ويرجحه احياناً ، وكأنه لا يرى صعوبة في ذلك كما لا يرى الصعوبة في الحديث ، وربما كان هذا ناتجاً عن كثرة محفوظاته وانشاده .. يقول ابو العباس بن الفرج سمع الاصمبي رجلاً يدعوه ربـه ويقول في دعائه « يا ذـو الجـلال والـاكرـام ». فقال له الاصمـبي ما اسمـك ؟ قال « ليـث » ، فقال الاصـمي :

يـنـادـي رـبـه بـالـلـحـنـ ليـثـ لـذـاكـ اـذـاـ دـعـاهـ لـاـ يـحـابـ (١)
وـاـمـثـالـ هـذـاـ كـثـيرـةـ لـاـ تـحـصـيـ

نوادر الأعراب ، ومدرسة الفضة

لم يكن الاصمـبي اول من روـىـ النـوـادـرـ عنـ الـأـعـرـابـ ، فقد سبقـهـ الىـ ذلكـ جـمـاعـةـ منـ عـلـمـاءـ عـصـرـهـ وـمـنـ جاءـ مـنـهـمـ قـبـلـهـ اـذـ لاـ يـوـجـدـ -ـ فـيـ ذلكـ الزـمـنـ -ـ عـلـمـ فـيـ اللـغـةـ اوـ رـاوـيـةـ لـلـأـدـبـ وـالـأـخـبـارـ الاـ روـىـ منـ هـذـهـ النـوـادـرـ شـيـئـاـ ؟ـ لأنـ الفـوـائـدـ كـانـتـ تـجـمـعـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـبـدوـسـكـابـ الصـحـارـىـ ،ـ وـتـرـوـىـ عـنـهـمـ ،ـ وـتـدـرـسـ عـلـيـهـمـ ،ـ وـتـصـحـحـ بـوـسـاطـهـمـ ؟ـ فـلـاـ بـدـ لـمـ كـانـ يـجـمـعـ تـلـكـ الفـوـائـدـ اـنـ يـحـتـكـ بـهـمـ ،ـ وـيـتـعـرـفـ عـلـىـ بـعـضـهـمـ ،ـ وـفـيـهـمـ الخـطـيـبـ الـفـصـيـحـ ،ـ وـالـشـاعـرـ الـلـهـمـ ،ـ وـالـأـدـيـبـ الـبـارـعـ وـالـذـكـيـ الـمـسـدـرـ وـمـنـ الطـبـيـعـيـ اـنـ يـحـدـثـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ وـأـوـلـئـكـ نـوـادـرـ وـمـلـحـ فـيـ الـجـدـ وـالـهـزـلـ مـاـ يـعـتـبرـ مـتـعـةـ لـلـسـمـعـ ،ـ وـغـذـاءـ لـلـرـوـحـ وـالـفـكـرـ ،ـ كـاـيـقـوـلـ الـجـاحـظـ «ـ لـيـسـ فـيـ الـأـرـضـ كـلـامـ هـوـ اـمـتـعـ وـلـاـ أـنـفـعـ وـلـاـ أـلـذـ فـيـ الـاسـمـاعـ ،ـ وـلـاـ أـشـدـ اـنـصـالـاـ بـالـعـقـولـ السـلـيـمـةـ ،ـ وـلـاـ اـفـتـقـ لـلـسـانـ ،ـ وـلـاـ اـجـودـ تـقـويـاـ لـلـبـيـانـ مـنـ طـوـلـ اـسـمـاعـ

(٤) الامالي : ج ٣ ص ٣٠

حديث الأعراب العقلاء الفصحاء » (١)

ولكن الأصمعي امتاز عن كل من سبقه بكثرة روایاته لهذه النوادر ، وبتنوعها واختلاف ألوانها وصورها وانطباقها على الكثير جداً من مشاكل الحياة ، مما يجعلنا نعتقد يقيناً بأن بعضها كان من صنعه ونسج خياله . وهو لون من ألوان الاتجاج الأدبي الذي لا يمس الدين ولا يتصل بالكذب ما دامت النادرة سليمة بريئة لا تعني أحداً معيناً من الناس ولا جماعة منهم يقول الاستاذ احمد امين في كتابه - ضحى الاسلام -

« أما في النوادر والملح ، وما يحكي عن الأعراب فيرخي - اي الأصمعي - في ذلك لنفسه العنان وإذا وجد الحال يستدعي قولهً ظريفاً تزيّد فيها او اخترعها ولا يرى في ذلك ما يمس دينه او يخرج به عن التقوى » (٢)

والذي نراه هو انه بدأ ، في أول أمره ، يروي النوادر التي كار يسمعها فيجمعها خلال محنته وتجواله في القبائل وبين الأعراب في كل مكان ؛ وكان يرويها في مجالسه بأسلوب طريف جذاب تألفه الأسماع وتطرد له النفوس فلما شعر بصدق نجاحه في هذا ، ولم يحسن الناس ذلك منه ، امعن في البحث عن النوادر كأمعانه في البحث عن اللغة والأدب ؛ ثم صار يحتك بظرفاء الأعراب وكل ذي نكتة وملحة منهم ، فيجرهم الى الدعاية وقول كل طريف ، ويدون ذلك عنده وعلى مر الأيام ، تضخم ثروته في النادرة كتضخمها في اللغة والأدب والشعر ؛ حتى اذا كثر اتصاله بالقبائل المختلفة ، وأتقن لهجاتها ، ودرس

(١) زهر الآداب : ج ٢ من ٢

(٢) ضحى الاسلام : ج ٢ من ٢٩٨ .

عاداتها ومشاكلها ، وعرف منازلها وأسماء داراتها ، وامتدت به الأعوام ففهم أسرار الحياة ، وتوسعت اخيته ، وقويت مداركه ، وتواردت المعاني الى افكاره ؛ تولدت عنده ملكة صنع النادرة على شكل قصة صغيرة ، ينسبها الى الاعراب ، ويودع فيها شيئاً ما حفلت به ذاكرته من روائع اللغة والأدب والشعر

ومتي تذكرنا حافظته القوية وما اكتنزته من عشرات الآلاف من الأراجيز والقطع الشعرية والحكم والامثال والأخبار ، وتذكرنا قوله ايضاً « ما قرأت كتاباً واحتاجت الى العودة فيه ، ولا دخل قلبي شيء فخرج منه » ادركنا مقدار كفاءته في صنع النادرة ونسجها متى شاء وفي اي معنى اراد ، كما يرتجل الشعرا الاخذاذ اياتهم الشعرية في المناسبات فتأتي رقيقة جزلة لا نقص فيها ولا تكلف وقد قال غير واحد من الشعراء : « لو اردت لجعلت كلامي كله شعراً »

وكان العرب في عصر الأصمعي قد بدأوا يترجمون الكتب عن اللغات الأجنبية ، فينسخونها ويتداولونها للقراءة والدرس وكان اهم ما ترجم في ذلك العهد - يوم كان الأصمعي طفلاً - كتاب « كلية ودمنة » وهو كتاب وضع في اصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس ؛ وضعه فيلسوف هندي اسمه « بيدبا » ، منذ نيف وعشرين قرناً ، ملك من ملوك الهند يدعى دبليم » ، وجعله على ألسنة الحيوانات كقصص طريقة قصيرة كلها حكم وعبر ونصائح وقد ألف هذا الكتاب باللغة الهندية « السنكريتية » ثم ترجم الى لغة « التibet » ثم الى السريانية ، ومنها نقل الى الفارسية القديمة « الفهلوية » وعن هذه اللغة الأخيرة ترجمه الكاتب المعروف « عبدالله بن المفعع »^(١) لأول مرة الى العربية في اواخر العهد الأموي

(١) توفي ابن المفعع عام ١٤٧ هـ

او اوائل ايام بني العباس

فلا اطلع العرب على ما في هذا الكتاب من آراء قيمة وحكم بالغة ، اعجبوا به ايما اعجاب ، واخذوا يتدارسونه ويتناقلونه وكان بعضهم حسد عبدالله بن المفعع على سبقه في ترجمته هذه ، فترجموه ثانية ، وتصدى البعض الآخر لمعارضته^(١) ونظمه بعض الشعراء تسهيلاً لحفظه ؟ فكان من نظمه شرعاً « الفضل بن نوبحثت » خادم أبي جعفر المنصور ؛ ونظم ايضاً « ابان اللاحقي » واهداه الى يحيى بن خالد البرمكي ؛ ونظم كذلك « علي بن داود » كاتب زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد وقد ضاع معظم هذه المنشومات ، وبقي بعضها مع ترجمة ابن المفعع فلا يستبعد اذاً أن يكون الأصمعي قد تأثر بهذا الكتاب وأمثاله من كتب القصص الأخلاقية التي بدأت طلائعاً تترجم الى العربية في عهده . ولا يستبعد أيضاً ان يكون قد رأى اهتمام الناس بهذا الكتاب واقبلاً ممن الشديد على قراءته ، فراح يقلده ولكن بأسلوب مبتكر جديد ، مشتق من صنيم الحياة الاجتماعية العربية التي يعيش هو فيها ؟ فالف كتابه « نوادر الأعراب » الذي لم يصلنا حتى الآن ؛ وقد قيل عنه أنه كتاب ضخم في مئات من الأوراق ، اقتبس منه اكثريه كتب الأدب ، فرأيناه ينحو فيه منحى « كليلة ودمنة » بما اودع فيه من حكم وعظات ونصائح وطرائف وملح وغير ذلك ، مما يصلح الأخلاق ويهذب النفوس ، بأسلوب ظريف تألفه الأذواق ولا تمل منه

والشبه الواضح بين الكتاين يتركز في فواتح القصص وابتدائهما ففي الكتاب الاول نرى كل قصة تبدأ بكلمة « قال ديشيم الملك ليديبا

(٢) جرجي زيدان : ج ٢ ص ١٣١

الفيلسوف » أو « قال دمنة » أو « قال كليلة، أو قال شتربة .. ». كلاماً يبدأ الأصمعي في كل نادرة من نوادره بقوله « رأيت اعراياً » أو « حدثني أحد الأعراب » أو « مررت بأعرايبة في .. إلى آخر ما هنالك مما يستهوي السمع ويستميل الفكر ولم يكن كتاب « نوادر الأعراب » هو كل ما رواه الأصمعي من النوادر عن هؤلاء القوم سكان البوادي ، بل هو جزء صغير جداً من ذلك التراث الضخم الذي اتجه في هذا الباب ولا نغالي إذا قلنا بأنّ الأصمعي ذهب شوطاً بعيداً في هذا الفن الأدبي حتى قارب ما رواه من اللغة والأدب ، وأصبح يستحق أن يدعى « صاحب النوادر » مثل قولهم « اللغوی » أو « الروایة » وهو لكتة ما انتاج من هذه النوادر ، كان الرشيد إذا مر به حادث أو استهونه فكرة غريبة في مجلسه التفت إلى الأصمعي وقال له أيه يا أصمعي ، ماذما قال العرب في هذا ؟؟ فيجيبه الأصمعي بنادرة طريقة تناسب المقام ، فكأنها كانت حاضرة على لسانه ، وربما كانت من صنعه في تلك اللحظة ؛ شأنه في ذلك شأن الشاعر السريع الارتفاع وهذا ما جعل خصومه يتهمونه بالكذب ويقولون « سئل عبد الرحمن بن أخي الأصمعي أين عمك ؟؟ قال جالس في الشمس يكذب على الأعراب » (١)

ثم إن بعض المستشرقين العتنيين اليوم بدراسة آثار الأصمعي لم يعتبروه أدبياً ، ويكتفون يجعله لغوياً ومحواياً ورواية أدب وأخبار فحسب ، محجة أنه لم ينتج شيئاً من ابداعه الذاتي في الأدب وكأنهم غفلوا عن هذا الجانب من انتاجه ؛ وهو - في رأينا - لا يختلف عن كتابة القصة ونظم

(١) الزهر : ج ٢ ص ٢٥١

الشعر ، فهو في صميم الأدب ، ومن أجله يستحق الأصمي ان يحسب من طبقة الأدباء ، كما يعتبر في طليعة اللغويين ورواة الشعر والأخبار ؛ بل هو « الاستاذ الأول » وواضع الحجر الاساسي « لمدرسة القصة » عند العرب التي تتلخص مراحلها التاريخية على الشكل التالي :

كان الأصمي في إلقاء نوادره - كا اسلفنا - ناجحاً ؛ وبخاصة عندما دخل بلاط هارون الرشيد ، ونثر على بساطه تلك القصص الصغيرة الرائعة عن الأعراب فكان يتقن في روايته لها ، ويقلد لهجات القبائل التي ينسبها إليها ، ويودع فيها البيان العذب واللغة الفصيحة والحكمة البالغة والمثل الشارد والشعر الغريب .. وكان بلاط الرشيد - يومئذ - منبراً للإذاعة والدعاوة ل تلك الشخصيات المرموقة من نوابع الفكر ، يوم كانت اصداء المناظرات والاتجاج الفكري وكل ما يبتكر في مجالس هذا القصر ، ينقل الى الأجواء الأدبية والعلمية في جوانب المملكة فاشتهرت نوادر الأصمي هذه ولاقت رواجاً واستحساناً ، وصارت تتردد على الألسن وتدون في الألواح ، ويشترى بعضها ويباع بين المؤديين كما كانت تباع تواقيع الرشيد ووزرائه على رقاع المظالم^(١)

وقد حاول عدد من معاصريه ، او من جاؤوا بعد عصره ان يقلدوه في هذه النوادر ، فلم يصيروا النجاح الذي اصابه ، لأنهم لم يوهبوا ما وهب من خيال خصب وعلم غزير في اللغة والأدب ، وظرف فطري ، ومعرفة تامة بحياة البدو سكان الصحاري فبقيت نوادره هذه في طليعة ما انتج في تلك العهود من هذا النوع القصصي الجميل ثم تطور هذا

(١) كان الرشيد ووزراؤه البرامكة يعتنون في تواقيعهم على رقاع المظالم و يجعلون جلهم مقتضبة بلغة تفيد معنى قرار الحكم . وكان الأدباء يشترون تلك الرقاع مع التواقيع كأثار ادبية . وقيل ان تواقيع جعفر بن يحيى كان واحدتها يباع بدينار او اكتن .

الأسلوب في العصور التي تلت إلى قصص عن الاعراب اطول من النوادر ، تتلوخى الفوائد اللغوية ايضاً وتعتمد ذكر الغريب منها وكان اشهر من قلد الأصمعي في نوادره مع شيء من الاطالة « احمد بن فارس الرازي » المتوفى عام (٣٩٠ هـ) ؛ ولكنه لم يصل في انتاجه الى تلك الروعة التي وصلت اليها نوادر الأصمعي

ثم آتى - بعد ذلك - اناس نهجوا طريق احمد بن فارس ، وسلك بعضهم سبيل « اقامات » وهي قصص متوسطة تشبه « الدرام » في اللغات الأوربية اليوم ، تروى على لسان رجل خيالي له اسم مستعار ، كما كان الأصمعي يروي نوادره على لسان « اعرابي » مجھول وقد نبغ في هذا الفن « احمد بن الحسين » المعروف باسم « بدیع الزمان المدائني » المتوفى عام (٣٩٨ هـ) فألف كتاباً في اقامات عرف بعنوان « مقامات المدائني » تلوخى فيها الغريب من اللغة ، وتعتمد في كتابتها اسلوب السجع المتلکف ، واسندتها الى رجل سماه « عيسى بن هشام » ثم قلده في ذلك ادباء وكتاب آخرون ، اشتهر منهم « علي بن محمد الحريري » المتوفى عام (٥١٦ هـ) فصنف كتاباً في القامات عرف باسم « مقامات الحريري » نحا فيها نحو بدیع الزمان في السجع والغريب من اللغة واسند قصصها الى شخص وهي ايضاً سماه « أبا زيد السروجي » وحشاها بقطع شعرية من نظمه كما كان الأصمعي يرص نوادره أحياناً بعض الأبيات وجاء بعد هؤلاء كثيرون من رواد هذا الفن الذي أصبح - على مر الأيام - مدرسة مستقلة للقصة ، نعتقد بأن الأصمعي كان رئيسها الاول والمؤسس لها

والجدير بالذكر ، هو انه رغم ما انتج كتاب القصة والقامات بعد

الاصمحي فإن اسم الأصمحي بقي علمًا طاغيًّا على اسماء الآخرين عند الخاصة وال العامة وأدباء العهود المتأخرة ؛ حتى صار الناس يعتقدون - خطأً - في كل ما نشر من التخصص العربية ، بأنها من صنع الأصمحي ، أو ان للأصمحي يدًا فيها ؛ كما سنفصل ذلك في آخر الكتاب

الوان نوادره

قلنا ان انتاج الأصمحي في النوادر كان وافرًا جدًا ، وذكروا بأن ما حمل عليه مما صنع الأدباء منها كثير أيضًا فأصبح مستحيلًا على الباحث ان يميز بين الصحيح والمحول ، وان يفرق بين ما اقتبسه الأصمحي من الغير فرواه ، وبين ما صنعه من عنده فأبدعه فلم يجد لهذه المشكلة حلًا غير ان نركن الى المؤلفات القديمة المعروفة بالبراعة والتشدد في الأخذ ، فتفقظ منها ما نراه متفقاً ونصح الأصمحي العلمي واخلاقه وسيرته التي عرف بها

وقد درسنا مجموعة كبيرة من هذه النوادر التي نعتقد بصحة نسبتها اليه ، فوجدناها على نوعين الأول منها نادرته مقتضبة واسلوب القصة فيها ضئيل أو معدوم الا من سؤال وجواب وأكثر ما يغلب على هذا النوع من النوادر طابع « اللغة » ، لاحتواها على كلمات غريبة صعبة مصنفة تصنيفًا شيئاً يُسهّل حفظها ؛ أو أنها تحمل طابع « الأدب » لاتفاقها على حكمه بالغة ، أو مثل سائر ، أو جواب طريف مسكت ، أو نكتة لاذعة ، أو شعر جزل رقيق ، الى آخر ذلك مما يفيد الفكر ويهذب النفس ويسمى هذا النوع « حديث الأعراش »

اما النوع الثاني فاسلوب القصة في نادرته ظاهر لا يخلو من فكرة وهدف وإن كان في بعض الأحيان قصيراً وقد تكون النادرة فيه

مشحونة أيضاً باللغة الغريبة الفصيحة أو الشعر والأدب ، في مختلف الأذواق من جد وهزل وهو النوع الذي تحدثنا عنه ، وقلنا بأنه كان الأساس في بناء مدرسة القصة العربية

وفي ما يأتي الوان من كلا النوعين (١)

حدثني عربي عن خيل أغارت على قومه ، فقلت له صفها لي ، قال « خرجت علينا مستطرية النفع ، كأن هواديها أعلام ، وآذانها أطراف أقلام ، وفرسانها أسود آجام »

وقلت لأعرابي صف لي ابلك ، فقال « انها لعظام الخناجر ، سبط المشافر ، كوم بهازر ، نكد خناجر اجوافها رغاب ، وأعطانها رحاب تمنع من البُشَّم ، وتبدل للجُمْمُ »

ورأيت أعرابية في الباية ، فسألتها عن ابنتها ، وكنت أراه معها كلاما مررت بمنازلها ، فقالت « مات ، وانس المصاب » ثم اشدت

وكنت أخاف الدهر ما كان آمناً فلما تولى مات خوفي من الدهر

وسمعت اعرابياً في الباية يستغفر ربـه بعد صلاتـه ويقول « اللهم ان استغفارـي ايـك مع كثـرة ذنـوبـي لـلـؤـم ، وـان تـركـي الاستـغـفارـ مع مـعرفـتي بـسـعـة رـحـمـتك لـعـجزـ اللـهـم كـم تـحـبـتـ اليـ بـنـعـمـتكـ وـأـنـتـ غـنـيـ عـنـيـ ، وـكـم اـتـبعـضـ اليـكـ بـذـنـوبـيـ وـأـنـا فـقـيرـ اليـكـ !! سـبـحـانـ منـ اـذـا توـعـدـ عـفـاـ ، وـاـذـا وـعـدـ وـفـيـ »

ورأيت اعرابياً ماسـكاً بـستـارـ الكـعـبـةـ وـيـقـولـ « اللـهـمـ أـمـتـيـ مـيـتـةـ اـبـيـ خـارـجـةـ » فـقـلـتـ لهـ يـرـحـمـكـ اللهـ ، وـكـيـفـ مـاتـ اـبـوـ خـارـجـةـ ؟؟ قالـ

(١) مـصـادـرـ هـذـهـ التـواـدـرـ : كـابـ الـأـمـالـيـ ، وـالـأـغـانـيـ ، وـالـيـانـ وـالـتـبـيـنـ ، وـالـمـارـفـ ، وـالـصـنـاعـتـيـنـ ، وـعـيـونـ الـأـخـبـارـ ، وـالـعـقـدـ الـفـرـيدـ ، وـتـرـهـةـ الـأـلـاءـ ، وـزـهـرـ الـآـدـابـ .

« اكل بذجاً ، وشرب مشعلاً ، ونام في الشمس فات شבעان رياض
دفان »

وخطب رجل امرأة من الأعراب فأكثر الكلام وأطال الخطاب ،
قام من بينهم اعرابي ، وقد مل من طول الحديث ، فالتفت الى الخاطب
وقال « اني والله ما انا من تخطائك وتمطئك في شيء قد متّ
بحرمة ، وذكرت حقاً ، وعظمت موجوداً ؛ فحبلك موصول ، وفرضك
مقبول ، وأنت لها كفٌ كريم ، وقد انكحناك وسلمنا »
سألت اعرابياً قلت له ما فضلبني على بنى فلان ؟؟ قال :
« الكتاب » ، يعني القدر

وقفت بنا اعرابية متسللة فقالت « يا قوم سنة جردت ، وأيد
بجدت ، وحال اجهدت ، فهل من فاعل خير ، وامر بخير ، رحم الله من
رحم ، فأقرض من لا يظلم »
واختص اعرابيان الى شيخ منهم ، فقال احدهما اصلاحك الله ما
يسعد صاحبي هذا آية من كتاب الله عز وجل قال الآخر كذب
والله اني لقاريء كتاب الله ، قال الشيخ فاقرأ ، فقال
علق القلب ربباً بعدهما شافت وشاما
قال الشيخ احسنت ، فقال صاحبه اصلاحك الله ، والله ما تعلمها
الا البارحة

كان اعرابي طويل قبيح ، خطب امرأة ، فقيل له اي ضرب
تريدتها ؟ قال اريدها قصيرة جميلة ، فيأتي ولدتها في جمالها وطولي ؟
فتزوجها على تلك الصفة ، فجاء ولدتها في قصرها وقبه
وأخبرني اعرابي قال خطب منا رجل مغموز امرأة مغموزة ،

فزووجه ، ققيل لهم تعمم لكم فلان فزوجتموه ؟! قالوا « ما تعمم لنا حتى تبرقنا له »

وقال اعرابي لابن عمه « اطلب لي امرأة حديدة ، فرعاء جعدة ، تقوم فلا يصيب قيسها منها الا مشاشة منكبيها ، وحلمتي ثدييها ، وأرنفتني اليتها ، ورضافي ركبتيها » فقال له « وانى بمثل هذه الا في الجنان ؟.. »

وتحاصلت اعرابية مع زوجها ، فقالت له « والله اب شربك لاشتغاف ، وان ضجعتك لانعجاف ، وان شملتك لاتفاق ، وانك لتشبع ليلة تصاف وت تمام ليلة تحفاف » . فقال لها « والله انك لكرداء الساقين ، قعواء الفخذين ، مقاء الرفرين ، مفاضة الكشحين ضيفك جائع ، وشرك شائع ، وزوجك ضائع »

واختصم أعرابيان ، فجعل المدعى عليه يحلف بالطلاق والتعاق ، فقال له المدعى دعني من هذه اليمان ، واحلف بما اقول لك « لا ترك الله لك خفاً يتبع خفاً ، ولا ظلفاً يتبع ظلفاً ، وحتك من اهلك ومالك حت الورق من الشجر ان يكن لي قبلك » فأعطاه حقه ولم يحلف وولى أحد النساء اعرابياً على عمل من أعمال الرعية ، فأصابه عليه خيانة ، فعزله واستدعاه ، فلما قدم عليه قال له يا عدو الله ، أكلت مال الله ؟! فقال الأعرابي « ومال من آكل إذا لم آكل مال الله ؟! اني والله راودت ابليس الف مرة ان يعطياني فلساً واحداً فما فعل »

وجلست عجوز من الأعراب في طريق مكة الى قتيان يشربون نبيذًا ، فسقوها قدحًا فطابت نفسها فقبست ، فسقوها قدحًا آخر فاحمر وجهها وضحكـت ، فسقوها ثالثاً فقالت خبروني عن نسائمكم ، أيـشرـبـنـ هذا ؟!

قالوا نعم ، قالت زنين ورب الكعبة ؛ والله ان صدقتم ما فيكم من
يعرف أباه

ودفعت يوماً في تلمسى بالبادية الى وادٍ خلاء لا أئnis فيه غير
بيت معتز ، بفنائه اعز ، وقد ظمت ؟ فيمته ، فسلمت ، فاذا عجوز
قد بزت كأنها نعامة راخم فقلت هل من ماء ؟ قالت : أو بن ؟؟
قلت اذا يسر الله للبن فأني اليه فقير فشربت ، ثم قلت لها انى
أراك معتزنة في هذا الوادي الموحش ، والعرب منك قريبون ، فلو انضمت
الى جانبهم فأنس بهم ؟! قالت يا بن أخي ، انى لآنس بالوحشة ،
وأستريح الى الوحدة ، ويطمئن قلبي الى هذا الوادي الموحش ؛ فلقد
رأيتها قبلأً آهلاً بأدواح وقباب ، ونعم كالمضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتیان
كارماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح ؛ فاحوال عليهم الجلاء قَسْماً
بقرفة ، فاصبحت الآثار دارسة ، والمحال طامسة ؛ وكذلك سيرة الدهر
بمن وثق به ثم قالت ارم بعينك في هذا الملاً المتباطن ، فنظرت
فإذا قبور نحو الأربعين ؛ فقالت ألا ترى تلك الأجداث ؟! قلت
نعم ؛ قالت : ما انطوت الا على أخ او ابن أخ ، او عم او ابن عم ،
فأصبحوا قد المأتم عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم انصرف
راشدأً رحمك الله «

وبينا انا سائر بناحية بلادبني عامر اذ مررت محلة في غائط ، يطؤهم
الطريق ؛ وإذا رجل في ظل خيمة له ينشد ويقول

كأن فؤادي كلها مر راكب جناح غراب رام نهضاً الى وكر
اذا ارتحلت نحو اليامة رقة دعاك الموى واهتاج قلبك للذكر
فلا رآني اوما اليّ ، فأتيته ، فقال أتعجبك ما سمعت ؟! قلت

اي والله ، قال : من اهل الحضارة انت ؟ قلت نعم ، قال : فمن تكون ؟
 قلت لا حاجة في سؤالك عن ذلك ، قال او ما حمل الاسلام
 الصنائع ؟ وأطفأ الأحقاد ؟ قلت بلى ، قال فما يمنعك اذا ؟ قلت :
 أنا امرؤ من قيس ، قال الحبيب القريب ، من أيهم ؟ قلت من
 بني سعد بن قيس ، ثم احمد بني اعصر بن سعد ، قال زادك الله
 قرباً ثم وثب فأنزلني عن حماري ، وألقى عنه أكافه ، وقيده بقرب
 خيمته ، وقام الى زند فاقتديح وأوقد ناراً ، وجاء بصياداته فألقى فيها تمراً
 وأفرغ عليه سمناً ، ثم ذر عليه دقيقاً وقربه اليه فقلت اني الى غير
 هذا احوج ، قال وما هو ؟ قلت تندبني ، قال اصب ، فاني
 فاعل فلقت لقيمات ، وقلت الوعد ؟ قال ونعم عين ، ثم أنسد :

لقد طرت ام الخسيف وانها اذا صرع القوم الكرى لطريق
 فيا كبدأ يحمى عليها وانها مخافة هيضات النوى لخ فوق

(والقصيدة طويلة) قسمت وأنا من اشد الناس ظماً الى معاودة انشاده
 وزلت بقوم من الأعراب مجتوريين ، فحضرت نادياً لهم وفيهم شيخ
 لهم طويل الصمت عالم بالشعر وأيام الناس ، يجتمع اليه فتيانهم ينشدونه
 اشعارهم فإذا سمع الشعر الجيد قرع الأرض قرعة بمحجن في يده ، فينفذ حكمه
 على من حضر يبكر (ناقه) للمنشد ؛ وإذا سمع ما لا يعجبه قرع رأسه بمحجنه
 فينفذ حكمه عليه بشاة (اي المنشد) ان كان ذات غنم ، وابن مخاض ان كان
 ذات ابل ؛ فإذا اخذ ذلك ذبح لأهل النادي . فحضرتهم يوماً والشيخ
 جالس بينهم ، فأنسد بعضهم فلم يجد ، قرع الشيخ رأس ذلك المنشد ،
 فأخذت منه شاة ، وأنشد آخر فأجاد قرع الشيخ الأرض فأعطيت له بكر ؛
 ثم تقدم من بينهم فتى ، فأنسد ابياتاً لم اسمع اجود منها في وصف ليلة

كان شميط الصبح في آخر ياتها ملأه يُنقى من طيالسة خضر
 تخال بقاليها التي أسرار الدجى تتد وشيعاً فوق اردية الفجر
 قام الشيخ كالجنون مصلتاً سيفه حتى خالط البرك (عدد من الأبل)
 وصار يضرب يميناً وشمالاً وهو يقول

لا تُفرَغْنُ في أذنيّ بعدها
 ما يستفز فارييك فقدها
 اني اذا السيف تولى نَدَّها
 لا استطيع بعد ذاك ردها

وزلت على اعرابية في البادية ، وقد مات ابن لها ، وهي من القلق على مثل الرضفة (اي الحجر المحروقة بالنار) فقمت تعالج لي طعاماً ، قلت لها يا هذه انك لفي شغل عن هذا ، قالت والله لا تجوز بيتي الا مَقْرِيًّا ، ولكن انشدني ابياتاً اسلو بها ، فاني اراك لوذعياً ، فانشدتها ابياتاً لأحد شعاء الأعراب يرثي ابنه وفيها يقول

واني أري للشامتين تجليدي واني كالطاوي، الجناح على كسر
 يُرى واقعاً لم يُدر ما تحت ريشه وان ناء لم يسطع نهوضاً الى وكر
 فلولا سرور الشامتين بكبوتي لما راقت عيناي من واكف يجري
 فكأنى والله زبرت الأيات في صدرها ، فما زالت تنشدتها وتصلح
 طعامي حتى قررتني ورحت من عندها

ومر بنا اعرابي ومحن في المربد ، ينشد ابناً له ، فقال هلرأيت
 ابني ؟؟ قلنا صفة لنا ، قال « كأنه دنانير » قلنا له لم نره . فذهب
 ولم يلبث ان جاء بصغير اسود كأنه الجعل ، قد حمله على عنقه ، قلنا له :
 اهذا هو الدنانير ؟؟ انك لو سألت عن هذا لأرشدناك ، فأنه لم يزل عاملاً

يومه بين ايدينا ؟ فانشد

زينهـا الله في الفؤاد كـا زين في عـين والـد ولـد
واصـابت الأـعـرـاب مجـاعـة ، فـرـرت بـرـجـل مـنـهـم قـاعـدـ مع اـمرـأـتـه بـقـارـعـة
الـطـرـيق وـهـو يـقـول

يا رب اني قـاعـدـ كـا تـرى
وـاـمـرـأـتـي قـاعـدـةـ كـا تـرى
وـالـبـطـنـ مـنـي جـائـعـ كـا تـرى
فـا تـرى يا رـبـنـا فـيـما تـرى ؟؟

ومـرـتـ حـمـىـ «ـ الرـبـذـةـ »ـ فـاـذاـ صـيـانـ يـتـقـامـسـونـ فـيـ المـاءـ ،ـ وـشـابـ جـيـلـ
الـوـجـهـ مـلـوـحـ الـجـسـمـ قـاعـدـ ،ـ فـسـلـمـتـ عـلـيـهـ ،ـ فـرـدـ عـلـيـ السـلـامـ ،ـ وـقـالـ مـنـ
اـيـنـ وـصـخـ الرـكـبـ ؟؟ـ قـلـتـ مـنـ الـحـمـىـ ؟ـ قـالـ وـمـتـ عـهـدـكـ بـهـ ؟؟ـ قـلـتـ :ـ
رـأـحـاـ ،ـ قـالـ وـاـيـنـ كـانـ مـيـتـكـ ؟؟ـ قـلـتـ اـدـنـيـ هـذـهـ الـمـاشـقـرـ فـالـقـيـ نـفـسـهـ
عـلـىـ ظـهـرـهـ ،ـ وـتـنـفـسـ الصـعـدـاءـ ،ـ فـقـلـتـ فـيـ نـفـسـيـ تـفـسـاـ حـجـابـ قـلـبـهـ ؟ـ
ثـمـ اـنـشـدـ

سـقـىـ بـلـدـاـ اـمـسـتـ سـلـيـمـىـ تـحـلـهـ مـنـ الـحـزـنـ مـاـ تـرـوـىـ بـهـ وـتـسـيمـ
وـاـنـ لـمـ أـكـنـ مـنـ قـاطـنـيـهـ فـأـنـهـ يـحـلـ بـهـ شـخـصـ عـلـيـ كـرـيمـ
ثـمـ سـكـتـ سـكـتـةـ كـالـغـمـىـ عـلـيـهـ ،ـ فـصـحـتـ بـالـأـصـبـيـةـ فـأـتـوـاـ بـنـاءـ ،ـ فـصـبـيـتـهـ
عـلـىـ وـجـهـ ،ـ فـافـاقـ وـانـشـدـ

اـذـاـ الصـبـ الغـرـيـبـ رـأـيـ خـشـوعـيـ وـافـسـاسـيـ تـرـىـ بـاـلـخـشـوعـ
وـلـيـ عـيـنـ اـضـرـ بـهـ النـفـاتـيـ الـأـجـرـاعـ مـطـلـقـةـ الدـمـوعـ
الـلـخـلـوـاتـ تـأـنـسـ فـيـكـ نـفـيـ كـاـ اـنـسـ الـوـحـيدـ الـجـمـيعـ

منقولاته ورواياته

يقول الملاحظ عن الرواية والرواة في العهد الذي عاش فيه الأصمعي « ادركت رواة المسجديين والمربيين ؟ ومن لم يرو منهم اشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الاعرافية القصار ، واسعار اليهود ، والاشعار المصنفة ، فانهم كانوا لا يدعونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك ، ووقفوا على قصار الاحاديث ، والقصائد والفقر والتلف من كل شيء ولقد شهدتهم ، وما هم على شيء احرص منهم على نسيب العباس ابن الأحنف فما هو الا ان اورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فزهدوا في نسيب العباس ثم رأيتهم منذ سنوات ، وما يروي عندهم نسيب الأعراب الا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر ، او فتىاني متغزل

وقد جلست الى ابي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو ابن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين فما رأيت احداً منهم قصد الى شعر في النسيب فانشد : وكان خلف الأحمر يجمع ذلك كله ولم ار غاية للنحوين الا كل شعر فيه اعراب ؛ ولم ار غاية لرواية الأشعار الا كل شعر فيه غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ؛ ولم ار غاية رواة الأخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل

ورأى عامتهم - وقد ظالت مشاهدتي لهم - لا يقفون إلا على الأنفاظ المتخيره والمعاني المستخبئه ، وعلى الأنفاظ العذبة او الخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدر عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودللت الأقلام على مدافن الأنفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني ورأيت البصر بهذا

الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعر
أظهر ». (١)

من هذا الوصف الدقيق ، رى بأن رواة الأدب والأخبار لم يتخدوا
في ذلك العهد لوناً واحداً في الرواية ، ولكنهم كانوا يسايرون الذوق العام
المتنقل بين ألوان الأدب والأصمعي أحد اقطاب هؤلاء الذين عناهم
الماحظ في وصفه هذا ، اذ لم تكن روایاته في الأدب والأخبار على نمط
واحد ولون خاص ، وفيها ما كان قد رواه أيام فتوته وشبابه ، وفيها ما
عني به اثناء كهولته وتبسطه في العلم ، حتى اذا بلغ مرحلة الشيخوخة والتضيّع
الثامن في روایاته منحى العلماء الاجلاء ؛ وكان لكل دور من هذه الأدوار
التي اجتازها طابع خاص في الرواية ، وذوق يتميز عنه في الدورين الآخرين ..
وأما قول الماحظ بأنه ما وجد الأصمعي قصد الى شعر في التسبيب فأشده ،
فحق ؛ لأن الماحظ ادرك استاذه الأصمعي متأخراً ، حكم السن

وقد وجدنا الأصمعي - خلال بحثنا عن روایاته في الأدب والأخبار - لم يترك
 شيئاً مما وصفه الماحظ في حديثه هذا إلا رمى فيه سهاماً وافراً يقول
السيوطى « كأن الأصمعي صناعة الرواية والنقاوة ؛ واليه محظ الاعباء
والشلة ؛ ومنه تجبي الفقر والملح ؛ وهو ريحانة كل مقتبقي ومصطبيح ». .

روایاته للشعر

ما أغزر ما روى الأصمعي من الشعر الجيد ، حتى قيل انه اكثراً
من حفظ وروى فيه والعجيب أنه كان يحفظ الدواوين الس الكاملة لمعظم
الشعراء الذين كانت اشعارهم مدونة في عهده ؛ وقد حدثنا هو عن ذلك ،

(١) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٢٩٠

بقوله ، مثلاً « درست ديوان الشنفرى على محمد بن ادريس الشافعى » و « قرأت شعر النابغة الذهبياني على أبي عمرو بن العلاء » إلى آخر ما يدل على أنه كان يدرس دواوين الشعر واحداً واحداً ، وأنه كان - بفضل حافظته - يجمع أكثر هذه الدواوين في صدره ، مع غيرها من قصائد الشعراء الذين لم تجتمع آثارهم كلها ولهم روایات لا تُحصى ولا تُعد في هذا المجال

وغير هذه الأشعار التي لمعت اسماء اصحابها في عالم الأدب القديم والمعاصر ، روى الأصمعي شيئاً كثيراً مما انتجه قرائح شعراء مجهلين من الأعراپ لم يعرفوا ولم تدون اسماؤهم وقد قلنا بأن مذهبه في جمع الشعر وروايته له ، البحث عن قائله ونسبة والتعرف الى سيرته ، والمناسبة التي قيل فيها ذلك الشعر وقصته وخبره ولكننا بجد اثناء لحثنا في آثاره هذه بعض القطع الجيدة في الوان مختلفة ، لم يذكر صاحبها ، ويكتفي بقوله « قال أحد الأعراپ » ، مما يشير الى انه عثر على ذلك الشعر صدفة اثناء محوثه وتحواله بين القبائل ، أو أنه لم يستطع معرفة صاحبه ودراسة أحواله لسبب من الأسباب

وقد يكون الأصمعي سبق غيره من الرواة في جمع بعض القصائد الغر لتحول الشعراء المشهورين في الجاهلية والاسلام ، وبذل الجهد الكبير في البحث عما لم يدون من انتاجهم هذا ، فجمعته ودونه وأسدى الى الأدب خدمة كبرى ؛ ولكننا لا نستطيع معرفة اي القصائد منها كان له قصب السبق في روایتها وتسجيلها ، كما لا نستطيع الجزم في كل ما روي عنه من هذا بأنه لم يسبق أحد اليه ؛ وقد رأينا في بعض القصائد التي رووها اياتاً تختلف في نصها عما رواه الآخرون من الرواة المعاصرین له

غير ان الذي نعتقد هو ان ما جاء لنا به من شعر الأعراب من لم
تعرف اسماؤهم بين مشاهير الشعراء كان من ثمرات جهده وحده لانه أول
من دونه وعني به ورواه على الناس قبل أن يضيع وللأصمعي
- بين الرواية - فضل كبير في ذلك لكثره ما جمع ونشر من هذا وفيما
يأتي صور من روایاته قال

انشدني اعرابي - في أدب الطعام -

اما والذى لا يعلم الغيب غيره ومن هو يحيى العظم وهي ريم
لقد كنت أطوي البطن والزاديشتهى محافظة من ان يقال لئيم
وانى لاستعجى أكيلى ودونه ودون يدي داجي الظلام بهم (١)

وأنشدتني اعرابية احبت فتى وأحبها ثم تزوج غيرها فقالت تعاتبه
ألف اي لما ادمنت لك الموى وأصفيت، حتى الوجد بي للكظاهر
وجاهرت فيك الناس حتى اضر بي مجاهرتني يا ويح فمن اجاهر
فكنت كفيء الفصن بينما يظلني ويعجبني اذ زعزعته الأعاصر
فصار لغيري واستدارت ظلاله وقد لفتحتني من جفاه المواجر (٢)

وسمعت اعرابياً ينشد - في ذم اشرار الناس -

كلاب الناس ان فكرت فيهم اضر عليك من كلب الكلاب
لان الكلب لا يؤذى صديقاً وان صديق هذا في عذاب
ويأتي حين يأتي في ثياب وقد حزمت على رجل مصاب
فآخرى الله اثواباً عليه (٣)

(١) الأمالى : ج ٣ ص ٢٧

(٢) الأمالى : ج ٢ ص ٢٨٣ - ولهذا الشعر قصة يرويها الأصمعي .

(٣) الأمالى : ج ٢ ص ١١٩

وأنشد اعرابي - في الشيب -

كترت ولم تجئ من الشيب مجزعا
تقنع منها رأسه ما تقنعا
يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا
من الجذع المجرى وأبعد مزعاً^(١)

ولأحد الأعراب يبكي ابنًا له يدعى حسن

وكف عني البكاء والحزن
افاحت ان كان لم يب حسن
دار انس جوارهم غبن
كانوا وبيـني وبينهم عدن
خالد وأنت الحديث والوسن
من مات او من أودى به الزمن
لكل حي من اهله سكن^(٢)

اجول في الدار لا اراك وفي الدار
بدلتهم فيك ليت انهم
فإن تعيش فالمـنى حياتك والا
فلا نبالي اذا بقيت لنا
كنـ خابـي وكتـ خاـصـتي

وشهد رجل معركة (الجل) بين علي بن ابي طالب وجيش عائشة

فقال

شهـدت الحروب وشـينـي فـلم تـر عـينـي كـيـوم الجـل
اثـيرـ على مؤـمنـ فـتـةـ وافتـكـ منهـ خـرقـ بطـلـ
فـليـتـ الـظـعـيـنـةـ فـيـ بـيـتهاـ ولـيـتكـ عـسـكـرـ لـمـ تـرـ تـحـلـ^(٣)

ورأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تنشد
يا من بقلـتـهـ زـهاـ الـدـهـرـ قدـ كانـ فيـكـ تـضـاءـلـ الـأـمـرـ

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٨٢ - كلمة (جري) تعنى المزيل .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٩

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٨٧ .

زعموا : قلت وما لهم خبر ،
 يا قبر سيدنا الجبن سماحة
 صلى الله عليك يا قبر
 فإذا غضبت تصدعت فرقاً
 منك الجبال وخافقك الذعر
 وإذا رقدت فأنت منتبه
 وإذا اتبهت فوجبك البدر
 والله لو بك لم ادع أحداً
 الا قلت لفاتني الوتر (١)

ولرجل من بني كلاب - في ذكر الماضي -

سقى الله دهراً قد تولت غياطه وفارقا الا الحشائش باطله
 ليالي خدي كل ايض ماجد يطير هوى الصابي وتعصى عوادله
 وفي دهرنا والعيش اذ ذاك عزة الا ليت ذاك الدهر تشي اوائله
 بما قد غنينا والصبا جل هنا يماليتنا ريعانه ونماليته
 وجر لنا اذياله الدهر حقبة يطاولنا في غيه ونطاؤله
 فسقياً له من صاحب خذلت بنا مطينا عنده وولت رواحله
 اصد عن البيت الذي فيه قاتلي واهجره حتى كأني قاتله (٢)

وقال احدهم - في حبيبه وتدعى كأس -

الا يا (كأس) قد افنيت قولي فلست بسائل الا رجعوا
 ولست بنائم الا بهم ولا مستيقظ الا مروعا
 أو عمل ان القي آل كأس كما يرجو اخوه السنة الربيعا
 وانك لو نظرت فدتك نفسي الى كبدي وجدت بها صدوعا

وقال احدهم في وصف فرس
 قد اطرق الحي على سابق اسطع مثل الصدع الأجرد

(١) الأموي : ج ١ ص ٤٠ .

(٢) الأموي : ج ١ ص ٧٧ .

لما اتيت الحي في دفة
كأن عرجونا بمنى يدي
اقبل بي يختال في شاؤه
يضرب في الأقرب والأبعد
كأنه سكران أو عابس
أو ابن رب حدث المولد ^(١)
وسمعت اعرابياً ينشد - في النص -

واذا اظهرت امراً حسناً فليكن احسن منه ما تسر
فسر الخير موسوم به ومسر الشر موسوم بشر ^(٢)
 وأنشدي اعرابي في طلاق زوجه

وجوتو من غل الوثاق
ظفت امامه بالطلاق
قلبي ولم تدمع مآق
بانت فلم يتألم بها
ودواء ما لا تشبهه النفس
تعجیل الفراق
والعيش ليس بطيب
لو لم ارح برفاقها لأرحت نفسي بالأباق ^(٣)

وتزوج اعرابي بامرأة شريرة فانفذى نفسه منها حمار وقال
خطبت الى الشيطان للحين بنته فادخلها من شقوتي في جباريا
فانفذني منها حماري وجبيتي جزى الله خيراً جبتي وحماريا ^(٤)

وشرب اعرابي خمراً فعادته زوجه فقال :

غضبت علي لثن شربت بسوف
ولثن غضبت لأنشرين "مخروف
دهماء مائة الأناء سحوف
ولثن غضبت لأنشرين "بنعة
كوماء ناوية العظام صفواف

(١) العقد الفريد : ج ١ ص ٦٥ .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٠٤

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ١١٩

(٤) العقد الفريد : ج ٢ ص ١١٩

ولئن غضبت لأشرين بسابـح نهد اشم المـكـبين منيف
 ولئن غضبت لأشرين بواحدـي ولأجعلـن الصـبر منهـ حـلـيفـي
 ولقد شـهـدت انـجـيلـان تـعـثـرـ بالـقـنـاـ وـاجـبـتـ صـوـتـ الـصـارـخـ المـلـهـوـفـ (١)

روايتها للأمثال والحكم

وكانت عنـياتـهـ سـمـعـ الحـكـمـ والأـمـثالـ وـروـايـتهاـ كـعـنـياتـهـ بـجـمـعـ الشـعـرـ
 وـروـايـتهاـ ،ـلـاـ فـيـهاـ ايـضاـ منـ لـغـةـ وـاعـرـابـ وـمعـنـىـ دـقـيقـ وـأـثـرـ فيـ السـمـعـ وـرـيـةـ فيـ
 الـكـلـامـ وـقـدـ مـرـ عـلـىـ بـغـةـ الـعـلـمـ عـهـدـ الـأـصـمـعـيـ فـتـرـةـ مـنـ الزـمـنـ عـنـواـ فـيـهاـ
 بـجـمـعـ هـذـاـ اللـوـنـ مـنـ الـأـدـبـ فـدـونـوـهـ وـفـوـاـ فـيـهـ كـاـلـفـ الـأـصـمـعـيـ كـتـابـهـ
 «ـ الـأـمـثالـ »ـ ايـضاـ وـاخـتـارـ فـيـهـ مـجـمـوعـةـ ثـمـيـنـةـ مـنـهـاـ وـاـذـ كـانـ كـتـابـهـ هـذـاـ
 لـاـ يـزالـ صـائـعاـ قـدـ نـقـلتـ لـنـاـ كـتـبـ الـأـدـبـ مـنـهـ جـزـءـاـ ،ـ مـعـ شـيءـ كـثـيرـ
 مـاـ رـوـاهـ فـيـ مـجـالـسـهـ وـمـعـاضـرـاتـهـ مـنـ الـأـمـثالـ وـشـرـحـ مـعـانـيـهـ وـذـكـرـ حـوـادـثـهاـ
 وـمـنـاسـبـاتـهاـ ،ـ كـقـوـلـهـ :

«ـ مـنـ اـسـتـرـىـ الذـئـبـ قـدـ ظـلـمـ »ـ ايـ منـ وـلـىـ غـيرـ الـأـمـينـ عـلـىـ اـمـرـهـ
 فـالـظـلـمـ جـاءـ مـنـ عـنـدـهـ

«ـ هـذـاـ وـلـاـ تـرـدـيـ تـهـامـهـ »ـ يـضـرـبـ لـرـجـلـ يـجـزـعـ قـبـلـ وـقـتـ الـجـزـعـ .
 «ـ خـرـقاءـ وـجـدـتـ صـوـفـاـ »ـ يـقـالـ لـلـرـجـلـ الـفـاسـدـ يـقـعـ فـيـ يـدـهـ مـالـ
 فـيـعـيـثـ فـيـهـ

«ـ اـسـعـ جـمـعـةـ وـلـاـ اـرـىـ طـحـنـاـ »ـ ايـ اـسـعـ جـلـبـةـ وـضـوـضـاءـ وـلـاـ اـرـىـ
 عـمـلاـ نـافـعـاـ

«ـ كـلـاـ جـانـبـيـ هـرـشـ لـهـنـ طـرـيقـ »ـ يـضـرـبـ لـأـمـرـيـنـ يـشـتـهـانـ وـيـسـتوـيـانـ

(١) الـأـمـالـيـ :ـ جـ ١ـ صـ ١٠٠ـ

في اي مأخذ اخذتها

« حِرَةٌ تَحْتَ قَرْةً » يقال لأمر يظهر وتحته امر خفي خيره

« ان البغاث بأرضنا يستنصر » يضرب للرجل الضعيف يعجز عند

غيرنا وينجبر علينا

« اصرد من عز جراء » يقال للرجل اذا كان شديد الحس بالبرد

« حَنَّ قِدْحٌ لِّيْسَ مِنْهَا » يضرب مثلاً للرجل يدخل نسبه في قوم

ليس منهم

« لا يُعْدِمُ شَقِّيْ مَهْرًا » اي لا يُعْدِمُ الشَّقِّيْ عنَاءً وجزاءً على شقاوته.

« لا تَعْدِمُ الْحَسَنَاءَ ذَامًا » لا يخلو اي رجل من ان يكون به

ما يعاب عليه

« اللَّيلُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ » اي السر في العيب خير من المكاشفة

« قَبْلَ الرَّمَاءِ تَمَلَّأُ الْكَنَائِنِ » يراد به قبل وقوع الأمر يجب ابر

تتخذ له العدة

« حَرَكَ خَشَاشَةً » اي عمل بما يؤذيه

« بَرَّقَ لَمَنْ لَا يَعْرُفُكَ » يقال هذا للذى يتوعد من يعرفه ويعرف

عجزه ، فيقول له اصنع هذا بن لا يعرفك

« لَوْيَ عَنْهُ عَذَارَهُ » اي عصاه فلم يطعه

« العَبْدُ مَنْ لَا عَبْدُ لَهُ » اي من لم يكن له عبد ولا كاف يعينه

امتهن نفسه

« حَرَ اتَّصَرَ » يضرب للرجل ، يُظْلَمُ فِيَنْتَقِمُ

« جَيْءَ بِهِ مَنْ حَسَّكَ وَبَسَّكَ » اي من حيث كان ولم يكن

« شَرَابٌ بِأَقْعُونَ » اي معاود للأمور يأتيها مرة بعد اخرى .

« لو كان ذا حيلة تحول » يراد انه أتي من قبل ضعفه
 « أحسن وذق » مثل للرجل يتعرض لما يكره فيقع فيه .
 « لو كويت على داء لم أكره » اي لو عوتبت على ذنب فعلته
 ما امتعضت

« كمبني الصيد في عريسة الأسد » يطلب الغنية في موضع الملكة .
 « اجود من لافظة » واللافظة هنا البحر
 « اجبن من صافر » كثير الخوف والصافر طير صغير
 « خل سبيل من وهى سقاوه » اي من لم يستقم امره فلا تعباً به .
 « يشوب ولا يروب » مثل للرجل يخالط
 « شر الرأي الدبرى » يراد به الذي يجيء بعد ان فات الأمر
 « كان حماراً فاستأن » للرجل يهون اكثر مما كان هيناً
 « الحى أضرعني اليك » اي ذلت للحاجة

« هما كأسان الشط » « سواسية كأسان الحمار » « كركبي عمير » « كركبتي البعير »	- معناها واحد يقال لشيئين المستويين
--	-------------------------------------

وما رواه في الحكم والمواعظ والنصائح
 يقال في حكم القدماء « ابغض الناس الى الله الثالث » ، والمثلث
 هو الرجل الذي يسعى بأخيه الى الأمام فيهلك نفسه و الاخاه وإمامه (١)
 قال ابن عبيد لا يزال الناس بخير ما داموا اذا اخلج في صدر

(١) المستطرف : ج ١ ص ١٠٤

الرجل شيءٌ وجد من يفرج عنه ^(١)

اوصلت امرأة ابناً لها يريد السفر فقللت اجلس امنحك وصيبي
وبالله توفيقك ايها والهائم فانها تزرع الضفائن ؛ ولا تجعل نفسك
غرضًا للرماء فان المدف اذا رمي لم يثبت ان يشتم ؛ ومثل نفسك مثلاً فما
استحسنته من غيرك فاعمل به وما كرهته منه فدعه واجتنبه ؛ ومن كانت
مودتها بشره كان كالرياح في تصرفها ؛ واذا هزت فاهتز كريماً فان
الكريم يهتز لهزتك ، واياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماوها ؛ واياك
والغدر فإنه اصبح ما تعول به ، وعليك بالوفاء فقيه النماء ؛ وكن بمالك
جواداً وبدينك شحيحاً ؛ ومن أعطي السخاء والحلم فقد استجاد الحلة
ريطتها وسر بالها ^(٢)

قال الحسن البصري « يا ابن آدم ، انت اسير الجوع صريح الشع
ان قوماً لبسوا هذه المطافر العتاق ، والعائم الرقاق ، ووسعوا دورهم
وضيقوا قبورهم ، وأسمنوا دوابهم ، وأهزلوا دينهم ، يتذكى احدهم على
شماله ويأكل غير ماله ، ثم يقول يا جارية هاتي هاضومك ويحلك
وهل تهضم الا دينك؟ » ^(٣)

سئل علي بن ابي طالب كم بين اليمان واليقيين؟ قال اربع
اصابع ؟ قيل وكيف ذلك؟ قال اليمان كل ما سمعته اذناك وصدقه
قلبك ، واليقيين ما رأته عيناك فأيقن به قلبك ، وليس بين العين والأذن
إلا اربع اصابع ^(٤)

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ١٦٠

(٢) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٢٦٤

(٣) العقد الفريد : ج ١ ص ٣٨٧

(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ٣٦٩

سمعت رجلاً يقول الحسد ماحق الحسنات ؟ والزهو جالب لمقت الله
 ومقت الصالحين ؟ والعجب صارف عن الازيداد من العلم ، داع الى التخبط
 والجهل ؛ والبخل أذم الأخلاق وأجلبها لسوء الأحداثة
 وقال آخر ينصح مسافراً آثر بعملك عيادك ، ولا تدع لشهوتكم
 رشادك ، ول يكن عقلك وزيرك الذي يدعوك الى الهدى ، ويعصكم من
 الردى ؛ ألم هواك عن الفواحش ، وأطلقه في المكارم فانك تبر بذلك
 سلفك وتشيد شرفك (١)

تقول العرب لا ثناء مع الكبر ، ولا صديق لذى الحسد ، ولا
 شرف ليسىء الأدب شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء ، والقسوة
 على الضعفاء ، والبخل عند الاعطاء صلة الرحم منسأة في العمر ، مرضاة
 للرب ، محبة في الأهل

يقول حكيم العرب اكثم بن صيفي سوء حمل الفاقه يُحضر -
 يفسد - الحسب ، ويقوى الضرورة ، ويذرئ اهل الشهادة

ويقال أولى الناس بالفضل أعودهم بفضلهم ، وأعوّل الأشياء على
 تذكرة العقل التعلم ، وأدلّ الأشياء على عقل العاقل حسن التدبير وأمتع
 شيء معازحة الحب ، ومحادثة الصديق ، وأمانني تقطع بها ايامك ؛ وأكلم
 المصائب فقد خليل لا عوض منه

وقالوا من لم يرض عن صديقه الا يأشاره على نفسه دام سخطه ؟
 ومن عاتب على كل ذنب كثراً عدوه ؟ ومن لم يؤاخ من الاخوان إلا من
 لا عيب فيه قل صديقه (٢)

(١) الامالي : ج ١ ص ١٩٧

(٢) الامالي : ج ١ ص ١٩٨ - ٢١٤

قال بعض الحكماء لابنه : يابني اقبل وصيتي وعهدي ؟ ان سرعة ائتلاف قلوب الابرار كسرعة اختلاط قطر المطر بماء الانهار ، وبعد قلوب الفجار من الائتلاف كبعد البهائم من التعاطف وان طال ائتلافها على اري واحد ؛ كن يابني بصالح الوزراء اغنى منك بكثرة عدتهم ، فان اللؤلؤة خفيف محملها كثير ثنتها ، والحجر فادح حمله قليل غناوه ^(١)

يقول عروة بن الزبير لبنيه لا يهدين احدكم الى ربه ما يستحي ان يهديه الى حرميه ، فان الله أكرم الكرماء واحق من اختيار له يابني تعلموا العلم فانكم ان تكونوا صغار قوم فسوى ان تكونوا كبارهم ؛ واسوانا ماذا اصبح من شيخ جاهل ؟

يابني ، اذا رأيتم خلة رائعة من شرٍ من رجال فاحذروه وان كان عند الناس رجل صدق ، فان لها عنده اخوات ؛ واذا رأيتم خلة رائعة من خير من رجال فلا تقطعوا إيمانكم منه وان كان عند الناس رجل سوء ، فان لها عنده اخوات ^(٢)

يقول عمر بن الخطاب مروءة الرجل عقله ، وشرفه حاله ويقول احنف بن قيس العقل خير قرين ؛ والأدب خير ميراث ؛ والتوفيق خير قائد

ويقول اكثم بن صيفي خير السخاء ما وافق الحاجة ، ومن عرف قدره لم يهلك ، ومن صبر ظفر ، واكرم اخلاق الرجال العفو ويقول احدهم : فوت الحاجة خير من طلبها من غير اهلها ؛ وعز الزاهة اشرف من سرور الفائدة ؛ وحمل المتن اثقل من الصبر على العدم . ^(٣)

(١) الأمالي : ج ١ ص ٢٣١

(٢) الأمالي : ج ١ ص ٢٤٠

(٣) الأمالي ج ٢ ص ١٦٧

قال الحسن لابنه يابني ، اذا جالست العلماء فكن على ان تسمع احرص منك على ان تقول ، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام ، ولا تقطع على احد حديثاً وان طال حتى يمسك (١)

قال عمر بن العاص ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه الذي يعرف خير الشررين ؛ وليس الواعظ الذي يصل من وصله ولكنه الذي يصل من قطعه

قال زياد بن أبيه - ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه ، ولكنه الذي يحتال للأمر ان لا يقع فيه

قال معاوية لعمرو بن العاص : ما بلغ من دهائك يا عمرو ؟ قال عمرو لم أدخل في امر قط فكرته الا خرجت منه ؛ قال معاوية لكنني لم ادخل في امر قط فاردت الخروج منه (٢)

بلغني ان علي بن ابي طالب كان يقول انا المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المانيا ، ونهب للمصائب ، ومع كل جرعة شرق ، وفي كل اكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة الا بفارق اخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره الا بهدم آخر من اجله ، فنحن اعون الح توف ، .. فاطلبوا الخير واهله ؛ واعلموا ان خيراً من الخير معطيه ، وشرراً من الشر فاعله (٣).

وقال اكثم بن صيفي

« يابني تيم ، لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسى ؛ ان بين حيزومي لبحراً من الكلم ، لا اجد له موقع غير اسماعكم ، ولا مقراً الا قلوبكم ، فلتقوها بسماع صاغية ، وقلوب واعية ، تحملوا عوائقها

(١) الامالي : ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) عيون الاخبار : ج ١ ص ٢٨٠

(٣) الامالي : ج ٢ ص ٥٤ .

ان الموى يقطن ، والعقل راقد ، والشهوات مُطلقة ، والحزن مُ
معقول ، والنفس مهملة ، والرواية مفيدة ، ومن جهة التواني وترك الروية
يَتَلَفَّ الحزن^١

ولن يعدم المشاور مرشدًا ؛ والمستبد برأيه موقف على مدارض الزلل ،
ومن سَمِعَ سَمِعَ به ؛ ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع

ولو اعتُبرتْ موقع المحن ما وُجِدَتْ الا في مقاتل الكرام ؛ وعلى
الاعتبار طريق الرشاد ؛ ومن سَلَكَ الجَدَدَ أَمِنَ العثار ؛ ولن يَعْدَم
الحسود ان يتعب قلبه ويشغل فكره وِيُورِثَ غِيظه ولا يجاوز ضره
نفسه » (١)

رواياته لطراائف والملح

ونعني بالطراائف والملح تلك القصص والأخبار التي جمعها ورواهما عن
اشخاص اشتهروا في التاريخ او نوهت كتب السير والأدب باسمائهم فاصبحوا
من المعروفين في مجالات العلم والأدب وهي غير نوادر الأعراب التي سبق
بمحثها ، لأنها اخبار تاريخية لها صلة بسير هؤلاء الرجال وتاريخ حياتهم ؛
فكأن الأصمي يتوكى الحقائق والصدق في روايتها كفعله في نقل الأخبار
التاريخية ؛ ولم يدع خياله يسترسل في صنعها او الزيادة فيها كما هو شأنه في
صنع نوادر الأعراب

وقد جمع وروى الشيء الكثير بالوان مختلفة من هذه الطراائف والملح ،
فحكى عن مشاهير البخلاء من سائرطبقات ، وعن عقلاط الجانين المعروفين ،
واللصوص الظرفاء من هواة الأدب والشعر ، وعن هفوات وشذوذ بعض

(١) البصائر والنخائر : ١٥١

أرباب السيف والادارة ، وحتى عن بعض الخلفاء وما كان يقع في مجالسهم من نوادر واجوبة مضحكة وطرائف فكرية تستحق الاهتمام
 كان الأصمعي يعني برواية هذه الطرائف في مناسباتها ، ويتأكد في حديثه بها ، فيضفي عليها من جمال صوته وحسن اسلوبه وفصاحة لمجته ما يزيدوها روعة في آذان سامعيه ، وسحراً في نقوشم ، حتى عرف - كما ذكرنا - بهذا اللون من الأدب الظرفيف ، الذي شوق الناس الى مجالسته حتى اوصله الى بلاط الرشيد فكان السبب الرئيسي في ثرائه وقد سبق لنا ان تحدثنا عن ظرفه والوان طرائفه التي رواها في شبابه عن نفسه اثناء معاشرته المسجديين والشعراء الظرفاء ، وهذه صور من الطرائف التي نقلها عن الغير رواها في مجالسه ، قال

سوبيق بين « هبنقة » و « الجرنفس » ايها احق وأجن من الآخر ؟
 ف جاء جرنفس بحجارة خفاف من الجص ، وجاء هبنقة بحجارة ثقال وترس ؟
 فبدأ جرنفس ، فقبض على حجر ، ورفع صوته وقال الترس ؛ فرمى الترس فأصابه فانهزم هبنقة ؟ فقيل له لماذا انهزمت ؟ فقال امارأيت انه قال الترس ، ثم رمى الترس فلم يخطئه ؟؟ فلو أنه قال العين ، ورمها ، أما كان يصيب عني ؟؟ (١)

وكان رجل من اهل البصرة بذياً شريأً يؤذى جيرانهم ويشم اعراضهم فأتأهله رجل ، فوعظه ، وقال له ما بال جيرانك يشكرونك ؟ قال لأنني اشتتهم ، قال ولم ؟؟ قال لأنهم قوم يحسدوني على كل شيء ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : أقبل معي اليهم ؟ فأقبل معه الى جيرانه ؟ قعد متحازناً ، فقالوا له مالك ؟؟ قال : طرق كتاب من الخليفة معاوية ،

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢١١

ان أصلب انا ومالك بن النذر وفلان وفلان ، وذكر عدة رجال من اشراف اهل البصرة ؛ فوثبوا عليه وقالوا له يا عدو الله ، انت تصلب مع هؤلاء ، ولا كرامة لك ؟؟ فالنفت الى الرجل الذي جاء معه ، وقال اما تراهم قد حسدوني على الصلب ، فكيف لو كان خيرا ؟؟

كان « المروزي » يخلياً ، فكان اذا آتاه زائروه قال لهم هل تغدி�تماليوم ؟ فان قالوا نعم ، قال والله لو لا انكم تغدி�تم لأطعكم لوناً ما اكلتم مثله ، ولكن ذهب اول الطعام بشوتكم ؛ وان قالوا لا ، قال : والله لو لا انكم لم تغدوا لستكم اقداحاً من نيد الزبيب ما شربتم مثله .. فلا يصير في ايديهم منه شيء^(١)

مر رجل بابي الأسود « الدؤلي » - وكان يخلياً معروفاً - وهو يقول: من يعشى الجائع ؟ فقال ابو الأسود : علي به ، فأنا بعشاء كثير ، وقال كل حتى تشبع ؛ فلما اكل ذهب ليخرج ، قال اين تزيد ؟ قال اريد اهلي قال ابو الأسود لا ادعك تؤذى المسلمين الليلة بسؤالك ؛ اطرحوه في الأدем ، فبات عنده مكتولاً حتى اصبح^(٢)

ولي رجل قضاء الأهواز ، فابتلاه عليه ارزاقه وليس عنده ما يضحي به ولا ما ينفق ، وشكراً ذلك الى امرأته ، قالت له لا تقم فارعندى ديكأً عظيماً قد سمتته ، فاذا كان يوم الأضحى ذبحناه ؟ فبلغ جيرانه الخبر فآهدى له كل منهم كبشأً حتى بلغوا الثلاثين وهو في المصلى لا يعلم ؛ فلما صار الى منزله ورأى ما فيه من الأضاحي قال لامرأته : من اين هذا ؟ قالت اهدى لنا فلان وفلان حتى سمت له جماعة ، فقال لها

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٣٥٣

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ٣٢٧

يا هذه ، تحفظي بديكنا هذا ، فلهم اكرم عند الله من اسحاق بن ابراهيم عليه السلام ؛ انه فدى ذلك بكبش واحد ، وفدى ديكنا هذا بثلاثين كبشًا (١)

خرج جماعة من « بني غفار » ومعهم رجل مغفل فأصابتهم ريح في البحر آيسوا منها من الحياة ، فأعتق كل واحد منهم ملوكاً او ملوكه ، فقال ذلك الرجل اللهم انك تعلم اني ليس لي ملوك ولا ملوكه ، ولكن امرأتي طالق طلاقة واحدة لوجهك الكريم (٢)

وشهدت رجل عند « سوار » القاضي فقال له ما صناعتك ؟ قال انا مؤدب قال فانا لا بجز شهادتك قال ولم ؟ قال لأنك تأخذ على تعلم القرآن اجرًا قال وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين اجرًا قال انا اكرهت على القضاء ، قال يا هذا ، القضاء اكره عليه ، فهل اكرهت على اخذ الرزق ؟ قال هلم شهادتك فأجازها (٣)

جاء رجل من بني مخزوم الى الحارث بن عبد الله بن نوفل وهو يقضي عن أخيه ديناً قال ان لي على أخيك حقاً ، قال ثبتْ حدقك تعطه ، قال أفن ملأة أخيك ووفائه ندعى عليه ما ليس لنا ؟ قال أمن صدقك وبرك قبل قولك بغير بينة ؟ (٤)

صعد « اليربوعي » ليخطب ، ولكنه ارتج عليه ، فقال « اما بعد ، فوالله ما ادرى ما اقول ، ولا فيم اقتمني ، اقول ماذا ؟؟ »

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٤٤٥

(٢) محضرات الأدباء : ج ١ ص ٩٤

(٣) عيون الأخبار : ج ١ ص ٦٩٠

(٤) عيون الأخبار : ج ١ ص ٢٥٥

فقال له بعضهم قل في الزيت ، فقال « الزيت مبارك ، فكلوا منه
 وادهنوها » ثم نزل ، فضحك الناس ^(١)
 انشدت محمدًا بن عمران قاضي المدينة ، وكان أعقل من رأيت
 يا ايها السائل عن مزلي نزلت في الخان على نفسي
 يغدو علي الخبز من خابر لا يقبل الرهن ولا ينسى
 آكل من كيسى ومن كسرى حتى لقد أوجعني ضرسي
 فقال اكتب لي هذه الأبيات ، فقلت اصلاحك الله ، هذا لا يشبهه
 مثلك ، وإنما يروي مثل هذا الأحداث ؛ قال اكتبها ، فالأشراف
 تعجبهم الملح ^(٢)

ولما مات يزيد بن عبد الملك وصارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك ،
 خر أصحابه سجوداً وشكراً لله ، الا « الأبرش الكلبي » ، فقال له
 يا برش ، ما منعك أن تسجد لله كما سجدوا ؟؟ قال يا أمير المؤمنين ،
 لأنك صرت خليفة فتركتنا وذهبنا عنها ، قال فان ذهبت بك
 معى ؟؟ قال اوتفعل ؟؟ قال نعم ، قال فالآن طاب السجود ، ثم
 سجد ^(٣)

بينما كان « ابن عرباض » الظريف يعشى مقدماً بطنه ، اذ استقبله
 جماعة من الخوارج يحرزون الناس بالسيوف ، فقال لهم هل خرج اليكم
 في اليهود شيء ؟؟ قالوا لا ، ان اليهود اصحاب كتاب ؛ قال فامضوا
 اذاً راشدين ؛ فحسبوه يهودياً ، فتركوه ^(٤)

(١) عيون الأخبار : ج ٢ من ٢٥٦

(٢) زهر الآداب : ج ١ من ١٤٧

(٣) العقد الفريد : ج ١ من ١٨٢

(٤) العقد الفريد : ج ١ من ٢٨١ .

قال « عيسى بن عمر التحوي » قدمت من سفر ، فدخل على الشاعر ذو الرمة ، فعرضت لأن اعطيه فقال : انا وأنت تأخذ ولا تعطي^(١) ركب عيسى بن عمر التقفي التحوي « حماراً له ، وكاب يتقد في كلامه ؛ فقفز الحمار وسقط عيسى مغشياً عليه ، فلما افاق وجد الناس قد اجتمعوا حوله ، فقال لهم « ما لكم تأكلون على كتكأ كثنم على ذي جنة ؟؟ افتقعوا عنني »^(٢)

دخل اعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام عظني يا اعرابي ، فقال كفى بالقرآن واعظاً ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوه يخسرون » ثم قال يا امير المؤمنين ، هذا جزاء من يطفف الكيل والميزان ، فما ظنك بمن يأخذ كله^(٣) ؟؟

زوج « خالد بن صفوان » عبده من امته ، فقال له العبد لو دعوت الناس وخطبت فيهم ! ، قال : ادعهم انت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا تكلم خالد بن صفوان فقال « ان الله اعظم واجل من اب يذكر في نكاح هذين الکلبين ، وانا اشهدكم اني زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية »^(٤)

عرضت السجون بعد هلاك الحجاج بن يوسف فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يحب على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيهم اعرابي أخذ لأنه بال في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن اطلق ، فأنشأ يقول

(١) العقد الفريد : ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) لهن خلakan : ج ٣ ص ٤٨

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٠٢

(٤) العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٠٠

اذا ما خرجن من مدينة واسط خرينا وبننا لا نخاف عقابا (١)
 لما ولي بلال بن ابي برد البصرة ، بلغ ذلك خالد بن صفوان فقال :
 « سحابة صيف عن قريب تتشع » فبلغ ذلك بلالاً ، فدعا به وقال له :
 أنت القائل « سحابة صيف » ؟ قال نعم ، قال اما والله لا
 تتشع حتى يصييك منها شوبوب برد ، فضر به مائة سوط (٢)
 اقبل رجل الى يزيد بن مسلم فقال له انى كنت قبل حول رأي
 الحجاج في النام فسألته ما فعل الله بك ؟ قال قتلني بكل قتله
 قتلة ، وانا منتظر ما ينتظره الموحدون ، ثم رأيته بعد الحول فقلت
 ما صنع الله بك ؟ قال يا عاص بظر امه أما سألتني عن هذا عام اول
 فأخبرتك ؟ قال يزيد بن مسلم أشهد انك رأيت الحجاج حقاً (٣)
 دخل ابو بكر المحرري على الخليفة المنصور فقال يا أمير المؤمنين ،
 تعصي في ، واتم اهل البيت بركة ، فلو اذنت لي قبليت رأسك ؟ فقال له
 المنصور اختر احدها اما ان تقبل رأسي ، او تأخذ الجائزة ! قال يا
 امير المؤمنين ، ان اهون علي من ذهاب درهم من الجائزة اى لا تبقى
 حاكمة في في ففضحك المنصور وأمر له بجائزه (٤)
 كان ابو ذؤيب المذلي يهوى امرأة يقال لها « ام عرو » ، وكان
 يرسل اليها خالد بن زهير فضحانه فيها ، وكذلك كان ابو ذؤيب فعل
 برجل يقال له « عويم بن مالك » وكان رسوله اليها ايضاً فلما علم
 ابو ذؤيب بما فعل خالد صرمتها ، فأرسلت تترضاه فلم يفعل وقال فيها

(١) العقد الفريد : ج ٢ من ١٢٤ .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ من ١٤٧ .

(٣) العقد الفريد : ج ٣ من ٢٥ .

(٤) العقد الفريد : ج ١ من ٩٥ .

وهل يجمع السيفان ويملأ في غمد؟؟
 فتحفظني بالغيب او بعض ما تبدي
 فلت كمال الحب على عمد
 لقوم وقد بات المطي بهم يحدى
 تكون واياها بها مثلاً بعدى (١)

 جاءت امرأة الى قبر « غالب » أبي الفرزدق ، فضررت عليه فسطاطاً ؟
 فأناها الفرزدق فسألها عن أمرها ، قالت اني عائذة بقبر غالب من أمر
 نزل بي ، قال وما هو؟؟ فقد ضمنت امر خلاصك منه ، قالت ان ابني لي
 أغزى الى السندي مع « تميم بن زيد » وهو واحدي واسمي حبيش ؛ قال الفرزدق
 انصرف فلي انصرافه اليك إن شاء الله ، ثم كتب من وقته الى تميم ما يأتي

 تميم بن زيد لا تكون حاجتي بظاهر فلا يخفى علي جوابها
 وهبلي « حبيشاً » وانخذ فيه منه لحرقة ام ما يسوغ شرابها
 انتي فعاذت يا تميم بغالب وبالحفرة السافي عليه ترابها
 فلم يستطع تميم قراءة الأسم ، فرض من معه من الجند فلم يدع احداً
 اسمه حبيش او حبيش الا وصله وادن له بالانصراف الى اهله (٢)

 اجتمع عدة من الشعراء منهم « حميد بن ثور الهلالي » ، ومزاحم بن
 مصرف العقيلي ، والعجير السلمي » فقالوا ايتها بنا منزل « يزيد بن
 الطاثية » نهكم به ؟ فاتوه ، فلم يكن في منزله ، فخرجت صبية له ،
 فنظرت في وجوههم ثم قالت
 تجتمعتم من كل افق وجانب على واحد !! لا زلت قرن واحد

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٦٢

(٢) الأغاني : ج ١٩ ص ٤٦

قالوا فغلبتنا والله (١)

وأنشد أحدهم امام رجل من العجم قول النابعة الجعدي
لبست انساً فأفنيتهم وافنيت بعد اناس انسا
وفسر له ، فقال الأعجمي - بلغته - هذا رجل مشئوم (٢)
وسماع اعرابي جريراً انططفي ينشد قوله
كاد الموى يوم سلماين يقتلني وكاد يقتلني يوماً بنعماز
وكاد يقتلني يوماً بذني خشب وكاد يقتلني يوماً بسلماء
فقال هذا رجل افلت من الموت اربع مرات لا يموت
هذا ابدا (٣)

اسلم اعرابي في ايام عمر بن الخطاب ، فجعل عمر يعلم الصلاة ،
فيقول « صل الفجر اربعًا ، والعصر اربعًا ، والغروب ثلاثة ، والعشاء
اربعًا ، والصبح ركعتين » ، فلم يستطع الأعرابي حفظ ذلك ، وجعل يخلط
بالاعداد ، فضجر عمر فقال ان الاعراب احفظ شيء للشعر ؟ فقل
ان الصلاة اربع واربع
ثم ثلاث بعدهن اربع
ثم صلاة الفجر لا تُضَيَّع

احفظت ؟؟ قال نعم قال عمر الحق بأهلك (٤)
رأى « ابو نحيلة » الراجز على « شبيب بن شيبة » - زعيم المخوارج -
حالة ، فأعجبته ، فسأله ايها ، فوعده ولم يبر بوعده فقال فيه

(١) المنقى : ٣٨

(٢) الأغاني : ج ٤ ص ١٣٠

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٢٣

(٤) المنقى : ٤٠

يا قوم لا تسودوا شبيبا الخائن بن الخائن الكلدو با
 هل تلد الذئبة إلا ذئبا؟
 فلما بلغ ذلك شبيباً بعث اليه بالحللة ، فكتب اليه
 اذا غدت سعد على شبيها على فناها وعلى خطيبها
 من مطلع الشمس الى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها^(١)

روايه للأخبار التاريخية

كان الأصمعي في الطليعة الأولى من رواة اخبار العرب ، ولم يترك
 عهداً من العهود القديمة في الجاهلية والاسلام مما يصلح ان يكون مادة
 للتاريخ العام ، او حلقة في سير مشاهير الرجال ، الا روى فيه ؛
 ونقل لنا اخبار قبائلهم واحوالها مع ما قيل في حوادثها من روائع الأدب ..
 وهذا بعضها

كانت قبائل « حمير » في اليمن تسمى الملك ، اذا لم يفر
 « موبيان » وكانت ملوك حمير قد رتبوا المملكة ان يختار الملك ثانية
 من ابناء الملك يسمونه « الثامنة » يخدمونه فإذا مات الملك انتخب
 اهل المملكة من الثامنة ملكاً ان لم يكن له ابن او ابن اخ ، ثم يؤخذ
 من الاقيال رجل يجعلونه بدل ذلك من الثامنة ، لعام الثانية ؟ ويؤخذ
 من اهل البيت رجل فيجعل قيلا والاقيال ثمانون رجلاً ، واهل البيت
 اكثر من ان يحصوا^(٢)

لما ترعرع « حاتم الطائي » جعل يخرج طعامه ، فان وجد احداً
 اكل معه وان لم يجد احداً طرحة فلما رأى ابوه انه يهلك طعامه قال

(١) طبقات الأدباء : ج ٤ ص ٢٦٠

(٢) الأزمنة والأمكنة : ج ٢ ص ١٥٣

له : الحق بالابل ؟ فخرج اليها ، ووهد له جارية وفرساً وفلوها ؛ فلما
 اتى الابل ، طرق يبغى الناس فلا يجدهم ، ويأتي الطريق فلا يجد احداً
 عليها وبينما هو كذلك اذ بصر بركب على الطريق ، فأتاهم ، فقالوا
 يا فتي ، هل من قرى ؟؟ فقال حاتم تساؤل عن القرى وقد
 رأيتم الابل ؟؟ انزوا و كان الركب من الشعراء الثلاثة « عبيد بن الأبرص ،
 وبشر بن أبي خازم ، و زياد بن جابر المعروف بالنابغة » وهم فحول شعراء
 ذلك المسر ، وكان طريقهم الى (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ؛
 فنحر لهم حاتم ثلاثة من الأبل ، فقال عبيد إنما اردنا اللبن
 وكانت تكفينا بكرة واحدة ان كنت لا بد متتكلناً لنا ؛ فقال حاتم
 قد عرفت ، ولكنني رأيت وجوهًا مختلفة والوانًا متفرقة فعلمت ان البلدان
 غير واحدة ، فأحببت أن يبقى لي منكم في كل بلد ذكر ؛ فقالوا فيه
 شعراً يتقدحونه ويدركون فضله ؛ فقال لهم حاتم إنما أردت أن أحسن
 إليكم فصار لكم علي فضل ، وعلى ان أضرب عراقيب الي ، أو تقوموا
 اليها فتقسموها ، ففعلوا ، فأصاب الرجل منهم تسعة وثلاثون بعيراً ، ومضوا
 على سفرهم الى النعمان وسمع أبوه بما فعل ، فأتاه ، فقال أين الأبل ؟؟
 فقال يا ابتي ، طوقتك طوق الحامة مجده الدهر وكريما ، لا يزال رجل
 يحمل لنا بيت شعر ابداً بأبلك فقال ابوه ابني ؟؟ قال نعم
 قال والله لا اسكن معك ابداً ؟ فخرج أبوه بأهله وترك حاتماً ،
 فقال حاتم

وانى لعف الفقر مشترك الغنى و تارك شكل لا يوافقه شكلي

الى آخر القصيدة (١)

(١) الأمالى : ج ٣ ص ١٥٣

وكان سبب مقتل « ربيعة بن المقدم » هو ان نزاعاً وقع بين نفر من « بني سليم بن منصور » وبين نفر من بني « فراس بن كنانة » فقتلت بنو فراس رجلين من بني سليم ، فخرج « ييشة بن حبيب السلمي » غازياً ، فلقي ظعناً من بني كنانة وفيهم ربيعة بن المقدم ، فنازلهم ربيعة وقتل عدداً منهم فطعنه ييشة بن حبيب طعنة شديدة ، فلحق ربيعة بالطعن يستدمي حتى آتى امه وهو يرتجز وقال لها شدي على يدي عصابة ، فشدت عصابتها عليها وهي ترتجز ايضاً ، فكر على القوم ثانية يشتد عليهم ويبرزه الدم حتى أختن ؛ فلما عسلم انه هالك ، قال للطعن حشوا ركبك حتى ينتهي الى ادنى البيوت من الحي ، فإني هالك ، وسوف اقف دونكن لهم على العقبة ، فأعتمد على رحمي ، فلا يقدمون عليكم رهبة مني ففعل ذلك ، فنجون الى مأهون ؛ وبقي هو ميتاً على فرسه ، وفرسه لا تتحرك ، والقوم لا يقدمون عليه ؛ فقال ييشة بن حبيب انه لما ائل العنق وما اذنه الا قد مات ؛ فأمر رجلاً من خزاعة كان معه ، ان يرمي فرسه ، فرمها قمقست وزالت ، ومال ربيعة عنها ميتاً^(١)

وكان سبب مقتل « زهير العبسي » ان ابنته « شاس بن زهير » وفدت الى بعض الملوك ، فرجع ومعه جباء قد حبى به ، فر بأبيات من بني عامر بن صعصعة وأبيات لبني غني على ماء لبني عامر ، فاغتسل ، فناداه « رياح بن الأمسك الفنوبي » استتر وبحك ، البيوت بين يديك ؟ فلم يحفل ، فرماه الفنوبي بسهم فقتله ، فلتحقه من كان مع شاس من بني عبس ، فانهزم ، ولكنهم ارهقوه فكر عليهم وقتل « حصيناً

(١) الأغاني : ج ١٤ ص ١٣٠

العبي » وأخا حسين ، ثم بجا على وجهه حتى ادركه العطش ، فلجأ إلى منزل عجوز من بني انسان بن جشم ، فقالت له العجوز لا تربح حتى يأتي اولادي فيأسروك ، فأخذ حبراً فشدح به رأسها وهرب ثم تولت بعد ذلك بين الطرفين حروب طاحنة قتل فيها خلق كثير ثم التقى خالد بن جعفر بن كلاب وزهير بن جذيمة العبي ، فقال خالد لزهير أما آن لك أن تستبني وتكتف ؟ (يعني مما قتل بشاس) فأغاظله زهير وحقره ، فتواعدوا وتهدا وافترقا ثم التقى بعد ذلك في حرب طاحنة فتعانقا - خالد وجذيمة - بالأيدي ، وتصارعا ، فجاء رجل من اصحاب خالد فقتل زهيراً وقطع رأسه ^(١)

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل على رجل من الأنصار ، فصاح الرجل بغلاميه يا سالم يا يسار ! قال النبي : « سلمت لنا الدار في يسر » ^(٢)

وكان « عمرو بن معدى كرب » قد شهد فتح القادسية وفتح اليرموك وفتح نهاوند مع ^أ« النعمان بن مقرن » المزي ، فكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن : ان في جندك رجالين « عمرو بن معدى كرب ، وطليحة بن خويلد الأسدى » فأحضرهما الناس وشاورهما في الحرب ولا توليهما عملاً والسلام .. فلما قدم كتاب عمر إلى النعمان ، بعث اليهما فقال : ما عندك يا عمرو ؟؟ قال أروي كبش القوم فاعتنيه حتى يموت أو أموت وقال طليحة آية ناحية شئتم فانا ادخل على القوم منها فلما التقوا ، اتهم طليحة من خلفهم ؛ واما عمرو فشد على كي من القوم فقتله ؛ وقتل النعمان بن مقرن

(١) الأغاني : ج ١٠ ص ١٦ - نقلنا رواية الأصمعي هنا باختصار .

(٢) المقد الفريد : ج ١ ص ٢٢٦ .

يومئذ ، واخذ الراية حذيفة بن اليمان حتى فتح الله عليهم ^(١)
ودخل خالد بن الوليد على عمر بن الخطاب ، وعلى خالد قيس حرير ،
قال له عمر « ما هذا يا خالد ؟؟ » قال وما بأسه يا أمير المؤمنين ؟
ليس قد لبسه عبد الرحمن بن عوف ؟؟ قال عمر « وأنت مثل ابن
عوف ؟ ولك من المال ما لا ين اعوف ؟؟ » ثم التفت الى جماعته وقال
« عزمت على من في البيت إلّا أخذ كل واحد منهم طائفة منه مما يليه »
ففرقوه حتى لم يبق على خالد منه شيء ^(٢)

وذكر « بشر بن ارطاة » علياً بن ابي طالب ، فقال منه ، فضربه
« زيد بن عمر بن الخطاب » - وكانت امه ابنة علي بن ابي طالب -
على رأسه بعصا فشجه ، فبلغ ذلك معاوية بن ابي سفيان ، فبعث
الى زيد بن عمر فقال له اتدرى ما صنعت ؟؟ وثبت على بشر بن ارطاة
وهو شيخ أهل الشام فضربت رأسه بعصاك !! لقد أتيت عظيمًا ثم
بعث الى بشر ، فقال له اتدرى ما صنعت ؟؟ وثبت على ابن الفاروق
وابن علي بن ابي طالب تسبه وسط الناس وتزدريه !! لقد أتيت عظيمًا ..
ثم بعث الى هذا بشيء والى هذا بشيء ^(٣)

وحاصر « مسلمة بن عبد الملك » حصنًا ، فندب الناس الى دخول
نقب منه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ، ففتح
الله عليهم ، فنادى مسلمة أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد ؟ فنادى:
أني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي ، فزمت عليه إلّا جاء فجاء
رجل ، فقال استاذن لي على الأمير ، فقال له أنت صاحب النقب ؟؟

(١) الأمالى : ج ٣ ص ١٤٦

(٢) نزهة الأنبلاء : ج ١ ص ٧٦

(٣) عيون الأخبار : ج ١ ص ٢٠١

قال أنا أخبركم عنه ؟ فأتى الآذن الى مسلمة ، فأخبره عنه فأذن له ، فقال الرجل ان صاحب التقب يأخذ عليكم ثلاثة : الا تسوّدوا اسمه في صحيفة الى الخليفة ، ولا تأموروا له شيء ، ولا تسأله من هو قال مسلمة فذاك له ؟ قال الرجل أنا هو، ثم خرج .. فكان مسلمة لا يصلى بعدها صلاة الا قال « اللهم اجعلني مع صاحب التقب » (١)

وقال رجل من العرب انهزمنا من « قطري بن الفجاءة » - رئيس الخوارج - واصحابه ، فأدركني رجل على فرس ، فسمعت حسناً منكراً خلفي ، فالتفت فإذا أنا بقطري ، فيئست من الحياة ، فلما عرفني قال : اشدد عنانها (اي الفرس) واوجع خاصرتها قطع الله يدك قال فعلت ما قال لي ونجوت منه (٢)

ولما قتل مصعب بن الزبير خرجت زوجته سكينة بنت الحسين ت يريد المدينة ، فأطاف بها أهل العراق وقالوا احسن الله صحبتك يا بنت رسول الله ، قالت لا جزاك الله عندي خيراً ، ولا أخلف عليكم خيراً من أهل بلد ، قتلت ابي وجدي وعيي وزوجي ايتتموني صغيرة وارملتمني كبيرة ! (٣)

وكانت بني أمية لا تباع لبني أمهات الأولاد ، فكان الناس يرون ان ذلك لاستهانة بهم ، ولم يكن لذلك ، ولكن لما كانوا يرون ان زوال ملتهم على يد ابن أم ولد فلما ولـي يزيد بن عبد الملك الملقب (بالناقص) ، ظن الناس أنه الذي يذهب ملك بني أمية على يده ، وكانت أمـهـة بنت يزجـردـ بنـ كـسـرـيـ ، فـلمـ يـلبـثـ الاـ سـبـعةـ أـشـهـرـ حتـىـ

(١) عيون الأخبار : ج ١ من ١٧٢

(٢) عيون الأخبار : ج ١ من ١٧٣

(٣) العقد الفريد : ج ٢ من ٣٢٣

مات ، ووتب مكانه مروان بن محمد - وأمه كردية - فكانت الرواية عليه
ولم يكن لعبد الملك ابن اشد رأياً ولا اذكي عقلاً ولا اشجع قلباً ولا اسمح
نفساً ولا أنسخى كفأ من مسلمة بن عبد الملك ، وانما تركوه لهذا المعنى (١) .
وكان « عبد الله بن عامر بن كريز » من قتيلان قريش جوداً
وحياءً وكرماً ، فدخل أعرابي البصرة فسأل عن دار ابن عامر - وكان والياً -
فأرشد إليها فجاء حتى أنماخ بفنائهما ، فاشتعل عنه الحاجب والعبيد ، فبات
القفر ، فلما أصبح ركب ناقته ، ووقف على الحاجب فأشده بضعة أبيات
يقول في اولها

كأني ونضوي عند باب ابن عامر من الجوع ذئباً قفرة هلعان
فسمع ابن عامر بالخبر فاعقب الحاجب ، وامر ان لا يغلق بابه ليلاً ولا
نهاراً (٢)

وترى عقيل ابن ابي طالب اخاه علياً وذهب الى معاوية ، فقال
معاوية يا اهل الشام ما ظنك برجل لم يصلح لأخيه ؟ فقال عقيل يا
أهل الشام ان اخي خير لنفسه وشرلي ، وان معاوية شر لنفسه وخير لي
وقال معاوية يوماً يا اهل الشام ان عم هذا - وأشار الى عقيل -
ابو هلب ، فقال عقيل : يا اهل الشام ان عمها هذا - وأشار الى معاوية -
حالة الخطب وكانت ام جميل امرأة ابي هلب ، هي اخت ابي سفيان
بن حرب (٣)

وكان عبد الله بن جعفر قد اسلف الزبير بن العوام الف درهم ،
فليا توفي الزبير قال ابنته لعبد الله بن جعفر ابي وجدت في كتب ابي

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢٩٨

(٢) الأمالى : ج ١ ص ٢٧٨

(٣) عيون الأخبار : ج ٢ ص ١٩٧

ان له عليك الف الف درهم ، فقال ابن جعفر هو صادق فاقبضها ان
 شئت ثم لقيه بعد ذلك ، فقال يا ابن جعفر ، انا ومت ، فالمال
 لك عليه ، قال ابن جعفر فهو له قال ابن الزبير لا اريد ذلك ،
 قال فاختر ان شئت فهو له ، وان كرهت ذلك فلنك نظره ما شئت ،
 فان لم ترد ذلك فبعني من ماله ما شئت قال ابن الزبير ابيعك
 ولكن اقوم الاموال ، قومها ثم اناه ، فقال احب ان لا يحضرني
 وياك احد قال ابن جعفر يحضرني وياك الحسن والحسين فيشهدان
 لك ، قال ما احب ان يحضرنا احد قال ابن جعفر انطلق ؟ فمضى
 معه ، فأعطاه ابن الزبير خراباً وشيئاً لا عمارة له ، وقومه عليه بدين ايه ؟
 حتى اذا فرغ قال ابن جعفر لغلامه ألق لي في هذا الموضع مصلٍ
 (اي سجادة للصلوة) ، فالتي له في اغلظ موضع من تلك الموضع مصلٍ ،
 فصلٍ ركعتين وسجد فأطّال السجود يدعوه ؟ فلما قضى ما أراد من الدعاء ،
 قال لغلامه احرف في موضع سجودي ، فحفر ، فاذا عين ماء قد انبطها ،
 فقال ابن الزبير : أقاني . قال ابن جعفر اما دعائي فأجا به الله تبارك وتعالى
 ايي ، فلا اقيلك فصار ما اخذ منه اعمراً ما في يدي ابن الزبير (١)

واشتري عمرو بن العاص جملًا باربعاية دينار ، فوصفه فأطّال وصفه ،
 فدفعه الى الرائض ، فر بعد الله بن جعفر قال : اني لأشتهي من كبد
 هذا الجمل وسنانه ، وأرسل الى الرجل من يدعوه اليه ، فأتى ؟ فأمر ابن
 جعفر خبازه ان ينحر الجمل دون علم رائضه فلما دخل الرائض نحر الخباز
 الجمل ، فأكل عبد الله من كبده وسنانه مع الرائض ، فقال الرائض
 ما اكلت طعاماً قطر أطيب من طعامك هذا قال ابن جعفر هو الجمل

(١) مخطوط المنقى . ٢٣

الذى كنت عليه ، فقال الرأض أنا الله قال ما لك ؟ قال اخذ هذا الجمل بأربعمائة دينار قال عبد الله اعطوه اربعمائة دينار (١)
وقال ابن عون :رأي قاتل الزبير بن العوام ، وقد حمل عليه الزبير ، فقال اشتكى الله ؛ ثم حمل عليه الزبير ثانية ، فقال اشتكى الله ؛ ثم حمل عليه الزبير مرة أخرى ، فقال أشتكى الله فلما انصرف عنه حمل على الزبير وضربه ، فقال الزبير قاتله الله ، مذكّر بالله وينساه (٢)

ولما أتى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، نظر اليه ملياً ، ثم قال متى تلد قريش مثلك ؟؟ ثم قال هذا سيد شباب قريش وقيل عبد الملك أكان مصعب يشرب الطلاء ؟؟ فقال لو علم مصعب ان الماء يفسد مروءته لما شربه ولما قتل مصعب دخل الناس على عبد الملك ابن مروان يهنتونه ، ودخل معهم شاعر فأنسده

الله اعطيك التي لا فوقها
وقد اراد المحدود عوتها
عنك ويأبى الله الا سوقها
اليك حتى قلدوك طوتها

فأمر له بعشرة آلاف درهم وقالوا كان مصعب اجل الناس واسخي الناس واشجع الناس وكان تحته عقيلتا قريش « عائشة بنت طلحة » و « سكينة بنت الحسين » (٣)

(١) المتنقى . ٢٤ .

(٢) الامالي : ج ٣ ص ١١٢ .

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٢٣ .

واخذ « السليك بن السلكة » - العداء الجاهلي - رجلاً من بني
كنانة بن تم يدعى نuman بن عقبان ، ثم اطلقه ؛ ثم قدم بعد ذلك على
كنانة وهوشيخ كبير فأتاه نuman هذا بابنته « الحكم وعثمان » وهم-ا
سيدا بني كنانة ، ونائلة ابنته ، فقال له هذان وهذه لك ، وما املك
غيرهم فقال السليك قد شكرت لك ورددتهم عليك ، فجمعت له بنو
كنانة ابلاً عظيمة فدفعوها اليه ؛ ثم قالوا له ان رأيت ان ترينا بعض
ما بقي من عدوك ، قال نعم ، وابغوني اربعين شاباً ، وابغوني درعاً
ثقيلة ، فاتوه بذلك ، فلبس الدرع ، وقال لاشبان الحقوا بي ان شئتم ؛
وعدا ، فلاث العدو لوثاً ، وعدوا جنبه فلم يلتحقوه الا قليلاً ، ثم غاب عنهم ،
وكر حتى عاد الى الحي هو وحده والدرع في عنقه تضرب كأنها خرقـة
من شدة احضاره (١)

واغار « تأبٍط شرًّا » - العداء الجاهلي المشهور - ، ومعه ابن براق الفهيمي وبعض العدائين ، على قبيلة « بجيلة » ، فاطردوا لهم نعماً ؛ ونذرت بهم بجيلة فخرجت في آثارهم ، ومضوا هاربين في جبال السراة ، وعارضتهم بجيلة في السهل فسبقوهم إلى ماء « الوهط » في الطائف ، فامتهنهم بجيلة حتى وردوا الماء وشربوا وناموا ، ثم شدوا عليهم ، فأخذوا تأبٍط شرًّا ؛ فقال لهم ابن براق دلاني في هذا ، وهو لا يقدر على العدو لعقر في رجله ، فان تبعتموه اخذتموه ، فاكتفوا تأبٍط شرًّا ، ومضوا في اثر ابن براق ، فلما بعدوا عنه عدا في كتابه ، فقاتلهم ورجعوا (٢)

(١) : الاغاني : ج ١٨ ص ١٣٧

(٢) الأغاني: ج ١٨ ص ٢١٢

رواياته لسير الشعراء

يكاد الأصمعي لا يترك شاعرًا قد يمأ عرف في الجاهلية او الاسلام الا روى من اخباره ، وعن اخلاقه وشئونه الخاصة شيئاً ، مما يدل على اطلاعه الواسع في اخبار هؤلاء الذين خلفوا لنا هذا التراث الضخم وقد جاء بعض هذه الروايات قصيراً مقتضباً ، وبعضه واسعاً مفصلاً في صور واضحة يقول

اول من يروى له كلة تبلغ ثلثين شيئاً من الشعر ، هم « المهلل »
وذؤيب بن كعب التميمي ، وصخرة الكناني ، والأضبطة بن قريع «
وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعين سنة وكان امرؤ القيس بعد
هؤلاء بكثير (٢)

وجاءت امرأة الى الشاعر « الأعشى » فقالت اب لي بنت قد
كسدن عليّ ، فشبب بواحدة منهن لعلها ان تنفق ؟ فشبب بواحدة
منهن ، فما شعر الأعشى الا بجزور قد بعثت به اليه ، فقال ما هذا ؟
قالوا زوجت فلانة ؟ فشبب بالاخري ، فاتاه مثل ذلك ، فسأل عنها ،
فقيل زوجت ؟ فما زال بشتب بواحدة فواحدة منهن حتى زوجن
جبيعاً (٣)

وكان « اوس بن حجر » غزاً مغرماً ، فخرج في سفر ؛ حتى اذا

(١) الاغاني : ج ١٨ ص ٢١٢

(٢) المزهر : ج ١ ص ٢٩٦

(٣) الاغاني : ج ٨ ص ٨٢

كان بأرض بني اسد وهو يسير ظلاماً ، جالت به ناقته فصرعته فاندقت
فخذاه ، فبات مكانه ؛ حتى اذا اصبح ، غدا جواري الحى يجتئن الكأة
وغيرها من نبات الأرض ، والناس في ربيع ، فبصرن بناقته تتحول وقد
علق زمامها في شجرة ، وأبصرنه ملقى ، ففرعن فهر بن فدعا بمحارية
منهن ، فقال لها من انت ؟؟ قالت : « حليمة بنت فضالة بن كلدة »
فأعطتها حجراً ، وقال لها اذهي الى ايسلك قولي له « ابن هذا
يقرئك السلام » فعادت وأخبرت اباها بذلك ، فقال يا بنية ، لقد
اتيت اباك مدح طويل او هباء طويل ؟ ثم احتمل هو وأهله حتى بني
عليه بيته حيث صرخ ، وقال والله لا انحول ابداً حتى تبرأ ؛ وجعلت
حليمة تقوم عليه حتى استقل فدحه اوس بن حجر ، ونوه بفضل ابنته
حليمة بـ (ذكر الأصمعي الشعـر) (١)

وقال ابن اسلم نظرت الى امرأة مستترة بثوب ، وهي تطوف بالبيت ، فنظر اليها عمر بن أبي ربيعة من وراء الثوب ، ثم قال ألما بذات الخال واستطلعا لنا على العهد باق ودها ام تصرما ؟؟ فقللت له امرأة مسلمة غافلة محمرة ، قد سيرت فيها شعراً وهي لا تعلم ؟ قال اني قد اشتدت من الشعر ما بلغك ورب هذا البيت ما حللت ازاري على فرج حرام قط ^(٢)

وقال الفرزدق قد علم الناس اني فحل الشعرا ، وربما انت على
ساعة لقمع ضرس من اضراسي أهون علي من قول بيت شعر (٣)
وسائل حمر اي الثلاثة اشعر ، انت ام الفرزدق ام الأخطل ؟؟

(١) الاغانى : ج ١٠ ص ٨

١٧ : (٢) المتنقى

(٣) الأغاني : ج ١٩ ص ٣٦

قال أما الفرزدق فيتكلّف مني ما لا يطيقه ، وأما الأخطل فأشدنا اجتراء
وأرمانا للغرض ، وأما أنا فمدينة الشعر (١)

وادرك جرير الأخطل وهو شيخ قد تحطم وكان جرير يقول
ادركته قوله ناب واحد ، ولو ادركته قوله نابان لا يكفي (٢)

وجلس جریر يملی على رجل قوله

ودع امامه حان منك رحيل ان الوداع لمن تحب قليل

فروا عليه بجنازة ، فقطع الانشاد ، وجعل يبكي ، ثم قال شيئاً بهذه الجنازة ، فقيل له ؟ فعلام تقدّف الحصّنات منذ كذا وكذا ؟ فقال : انهم

يبدونى ثم لا اعفو (٣)

وكان ينهش جزيرًا ثلاثة وأربعون شاعرًا فينبدهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به ؛ وثبت له الفرزدق والأخطل (٤)

وعن أبي الوجه قال دخلت على « ذي الرمة » وهو يجود بنفسه
فقلت له كيف تجحدك ؟ قال « اجدني والله اجد ما لا اجد ايمان
ازعم اني اجد ما لم اجد » وكانت منيته هذه بالجدرى ، وفي ذلك يقول

ألم يأتها أني تلبت بعدها مُفَوَّفةً صواغها غير اخرقا

وكان ذو الرمة ينشد الشعر فإذا فرغ قال يخاطب لسانه والله لا ك Sutton
 بشيء ليس في حسابك «سبحان الله والحمد لله ولا الله الا الله

(١) الأغاني: ج ٧ ص ٦٨

(٢) الأغانى : ج ٧ ص ١٧٢

(٣) الأغانى : ج ٧ ص ٥٩

(٤) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٤٩

والله اكبر » (١)

وكان « عمران بن حطان » - الخارجى - من اهل السنة ، قدم عليه
غلام من عمان كأنه نصل ، قلبه عن مذهبة في مجلس واحد (٢)
كان « وضاح اليمن » يهوى امرأة من كندة يقال لها « روضة »
فلا اشتهر امره معها خطبها فلم يزوجها ، وزوجت غيره ، فمكث مدة
طويلة ثم آتاه رجل من بادها فأسر اليه شيئاً فبكى ، فقال له
اصحابه ما لك تبكي وما خبرك ؟ فقال اخبرني هذا ان روضة
قد جذمت ، وأنه رآها قد القيت مع المخذولين . ويقول الأصمعي : ولم يجد لها
بعد ذلك خبراً يرويه اهل العلم الا لاماً يسيرة وأشياء تدل على ذلك
من شعره ؛ فاما خبر متصل فلم اجده الا في كتاب مصنوع غث الحديث
والشعر لا يذكر مثله وأصابها الجذام بعد ذلك فاقطع ما ينتها ؛ ثم
شباب بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوج الوليد بن عبد الملك
فقتله الوليد لذلك (٣)

ودخل « نصيبي » الشاعر على عبد الملك بن مروان ، فعاتبه ولامه
على قلة زيارته له ، واتيانه اياه فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عبد اسود ولست
من معاشرى الملوك ، فدعاه الى النبيذ ، فقال يا أمير المؤمنين ، أنا اسود
البشرة قبيح المنظره ، وانا وصلت الى مجلس امير المؤمنين بعقلى ، فارأى
امير المؤمنين ان لا يدخل عليه ما يزيله ، فعل ، فأغفاه ووصله (٤)
وقدم « لبيد بن ربيعة » - صاحب احدى المعلقات في الجاهلية - على

(١) الأغاني : ج ١٦ ص ١٢٨

(٢) الأغاني : ج ١٦ ص ١٥٤

(٣) الأغاني : ج ٦ ص ٣٤

(٤) الأمالى : ج ٣ ص ١٢٧

رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفاة بني كلاب بعد وفاة أخيه « أربد » و « عامر بن الطفيلي » فاسلم وهاجر وحسن اسلامه ، ونزل الكوفة ايام عمر بن الخطاب ، فاقام بها ، ومات بها هناك في آخر خلافة معاوية ، فكان عمره مائة وخمساً وأربعين سنة ، منها تسعون سنة في الجاهلية ، وبقيتها في الاسلام ^(١)

وكان عند « مرأة بن ربيعة » سيف جيد ، فحسده النابغة الذهبياني ، فدل على السيف « النعمان بن المنذر » فأخذته من مرأة ، ففقد مرأة على النابغة ، وارصد له بشر حتى تمكن منه ، فوقع فيه عند النعمان فهرب النابغة والتحق بأكمل جفنة في الشام ، وارسل الى العمان قصائده المشهورة التي يعتذر اليها ، ويختلف له ما فرط منه بذنب واشتد ذلك على النعمان ابن المنذر ، وعرف ان الذي بلغه كذب ، فبعث اليه يقول « انك لم تعتذر من سخطة ان كانت بلغتك ، ولكننا تغيرنا لك من شيء ما كنا لك عليه ؛ ولقد كان في قومك منع وتحصين ، فتركته ، ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبيني وبينهم ما قد علمت » ^(٢)

وكان الشاعر « راعي الابل » يقضي للفرزدق على جرير ويفضله ؛ وكان راعي الابل هذا قد ضخم امره وصار من شعراء الناس ؛ فلما اكثرا من ذلك ، خرج جرير الى رجال من قومه وقال لهم هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق علي وهو يهجو قومه وانا امدحهم ؟؟ ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته قاصداً مقابلة الراعي ؛ وكان له مع الفرزدق وجلساًهما حلقة بأعلى المربد في البصرة يجلسون فيها قال

(١) الأغاني: ج ١٤ ص ١٣٠.

(٢) خزانة الأدب: ج ٢ ص ٣٩٣.

جرير فخررت اتعرض له لأنقاه من حيال ، حيث كنت اراه يمر اذا انصرف من مجلسه ، وما يسرني ان يعلم احد بي حتى اذا هو قد مر على بغلة له ، وابنه « جندل » يسير وراءه على مهر له ؛ فاستقبلته وقلت له : مرحباً بك يا ابا جندل ، وضررت بشالي على معرفة بغلته ؟ ثم قلت يا ابا جندل ، ان قولك يستمع ، وانك تفضل الفرزدق على تفضيلاً قبيحاً ، وانا أمدح قومك وهو يهجوهم ، وهو ابن عمي ، ويكتفيك من ذلك اذا ذكرنا ان تقول كلامها شاعر كريم ؟ فلا تتحمل مني ولا منه لائمة . قال جرير فلم يرد علي بذلك شيئاً ، حتى لقاه ابنته جندل ، فرفع عصاً كرمانية فضرب بها عجز بغلة ايه ثم قال له لا اراك واقفاً على كلب منبني كليب ، كأنك تخشى منه شراً او ترجو منه خيراً ؟! وضرب البغلة ضربة اخرى فرحمتني رحمة وقعت منها قلسوتى ، فاخذتها فمسحتها ، ثم اعدتها على رأسي ، ثم قلت

اجندل ما تقول بنو نمير اذا ما الأير في است ابيك غالباً ؟

فسمعت الراعي يقول لابنه اما والله لقد طرحت قلسوتة طرحة مشئومة قال جرير ولا والله ما القلسوتة بأغليظ امره الي لو كان حاج علي - اي اهم بكلامي - فانصرف جرير غضباناً ، حتى اذا صلى العشاء بمنزله - في علية له - قال : ارفعوا لي باطية من نبيذ ، واسرجوا لي - اي اصيروا لي السراج ، ففعلوا - ، فجعل يهضم ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرجة حتى نظرت اليه ، فاذا هو يحبو على الفراش عرياناً ، لما هو فيه ؛ فانحدرت فقالت ضيفكم مجانون ، رأيت منه كذا وكذا ، فقالوا لها نحن اعلم به وبنا يمارس فما زال كذلك حتى كان وقت السحر ، ثم اذا هو يكبر ، وقد قالها قصيدة هجاء - ثمانين بيتاباً في بنى نمير (وهي القصيدة المشهورة)

اقلي اللوم - عاذل - والعتاباً وقولي ان اصبت لقد اصبا

فليا ختمها بقوله

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

كَبِرَ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ أخْزِيْتَهُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ثُمَّ اصْبَحَ ، حَتَّىٰ إِذَا عَرَفَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ جَلَسُوا فِي مَجَالِسِهِمْ بِالْمَرْبَدِ ، إِذَهَنَ وَكَفَ رَأْسَهُ - وَكَانَ حَسْنُ الشِّعْرِ - ثُمَّ قَالَ يَا غَلَامُ اسْرِجْ لِي حَصَانًا ثُمَّ قَدَّ مَجْلِسِ رَاعِيِ الْأَبْلِ وَالْفَرِزْدَقِ وَجَمَاعَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مَوْقِعُ السَّلَامِ لِمَسْلِمٍ ، وَقَالَ يَا غَلَامُ ، قُلْ لِعَبِيدِ - أَيْ رَاعِيِ الْأَبْلِ - ابْعِثْنِي نَسْوَتِكَ تَكْسِبِينِ الْمَالِ بِالْعَرَاقِ ؟؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ جَرِيرٍ يَبْدِئُ لِتَرْجِعِنِ الْيَهْنِ بِمَيْدَنِ يَسْوَهِنِ وَلَا يَسْرِهِنِ ؟ ثُمَّ اندْفَعَ فِي قَصِيدَتِهِ فَأَنْشَدَهَا قَالَ فَنَكْسَ الْفَرِزْدَقِ وَرَاعِيِ الْأَبْلِ ، وَازْمَنَ الْقَوْمَ ، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ مِنْهَا جَرِيرٌ سَارَ وَتَرَكَهُمْ ؛ فَرَكِبَ رَاعِيِ الْأَبْلِ بَغْلَتِهِ بَشَرٌ وَعَرٌ ، وَخَلِيَ الْمَجْلِسُ ، حَتَّىٰ إِذَا رَاعِيِ الْأَبْلِ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي يَبْرُلُهُ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : رَكَابُكُمْ رَكَابُكُمْ ، فَلَيْسَ لَكُمْ هَذَا مَقْامٌ ، فَضَحِّكُمْ وَاللَّهُ جَرِيرٌ . فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ ذَاكَ شَوْمَكَ وَشَوْءُمَكَ ابْنَكَ

قال الأصمعي فما كان الا ترحلهم ويحلف بالله راعي الابل ويقول
 «انا وجدنا في قول جرير (فضض الطرف انك من نمير) ما لم يجده
 انسى قط ؟ وان جرير اشياعاً من الجن تعينه على الشعر » ومنذ ذلك
 اليوم صار بنو نمير يتشارمون براعي الابل ، ويشتمونه وابنه ، وهم
 يتشارمون به حتى الان (١)

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٤٩ - قيل ان الرجل من بنى تمير صار بعد هذه القصيدة اذا سئل عن نسبة لم يقل بأنه من تمير .

وكان لامتوكل بن عبد الله الكناني امرأة حسنة تكنى « ام بكر »
 فأقعدت - اي اصابها شلل في رجليها - فسألته الطلاق ، فقال ليس
 هذا حين طلاق ؟ فأبانت عليه ، فطلقتها ، ثم انها برأت بعد الطلاق ،
 فقال في ذلك - وهي قصيدة من غرر الشعر الغزل -

طربت وشافي يا أم بكر دعاء حامة تدعوا حاما
 فبت وبات همي لي بجيَا اعزي عنك قلباً مستهاما
 اذا ذكرت لقلبكَ ام بكر يبيت كأنما اغتبق المداما
 ابي قلبي فا يهوى سوهاها
 وينام الليل كل خليٌّ ههمٌّ
 على حين ارعويت وكان رأسي
 سعى الواشون حتى ازعجوها
 فلست بزائل ما دمت حيَا
 ترجيها وقد شحطت نواها
 خدلجة لها كفل وثير
 مخصرة ترى في الكشح منها
 اذا ابتسمت تلاؤ ضوء برق
 واب قامت تأمل رائياها
 وان خطرت تقول ديب شول
 فلو اشكوا الذي اشكوا اليها
 احب دنوها وتحب نائي
 تساقط انساً نفسى عليها
 غشيت لها منازل مقررات عفت الا الأياصر والثاما

صليني واعلمي اني كريم وار حلاوي خللت غراما
 واني ذو مُجاحَة صليب خلقت لمن يمسكني لاما
 فلا وأبيكِ لا أنساك حتى تجاوب هامتي في القبر هاما
 ومر « دريد بن الصَّمَمَه » بالخنساء بنت « عمرو بن الشريد » وهي
 تهناً بغيراً لها ، وقد تبذل ، حتى فرغت منه ؛ ثم نضت ثيابها عنها ،
 فاغسلت ، ودريد يراها وهي لا تشعر به ، فاعجبته ، فانصرف الى رحله
 وأنشأ يقول

حيوا « تماضر » واربعوا صحي
 وقفوا فان وقوفكم حسي
 « أخناس » قد هام الفواد بمك
 واصبه تَبَلَّ من المحب
 ما إن رأيت ولا سمعت به
 كاليم طالي أنيق جرب
 متبدلاً تبدو محاسنه يضع المنساء مواضع التقب
 فسلهم عن خناس اذا عض الجميع الخطب ما خطبي ؟
 فلما أصبح غدا على أيها فخطبها اليه ؛ فقال له ابوها مرحبا بك يا
 أبا فرّه انك للكريم لا يطعن في حسنه ، والسيد لا يرد عن حاجته ،
 والفال لا يقع أنهه ؛ ولكن هذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها ، وانا
 ذاكرك لها وهي فاعلة ثم دخل اليها ، وقال لها يا خنساء امالك فارس
 « هوازن » وسيدبني جَسْمٌ دريد بن الصمه يخطبكم وهو من تعلمين
 - ودريد يسمع قولهما - ، فقالت يا ابتي ، أتراني تاركةبني عمي مثل
 عوالى الرماح ، وناكحة شيخ بني جسم ، هامة اليوم أو غد ؟؟ فخرج اليه
 ابوها فقال : يا أبا فرّه قد امتنعت ، ولعلها ان تنجيب فيها بعد ، قال قد
 سمعت قولكم وانصرف (١)

(١) الأغاني : ج ٩ ص ١٣

الأصمعي بعد موته

كان تراث الأصمعي الضخم - كما قلنا - عاملاً رئيسياً من عوامل خلوده وكان انتاجه وآثاره التي امتدت في كل لون من الوان الجد والهزل وما ينتمي لها قد جعلت دائرة الأخذ عنه واسعة سهلة ، حتى كاد لا يخلو كتاب في اللغة أو الأدب والأخبار ، مما الف بعده ، الاكار ضيفاً على هذا التراث الجيد وليس ثمة واسطة للخلود اوسع نطاقاً من هذا والذي زاد في هذا النطاق سعةً ايضاً هو ما أحاط بشهرته بعد موته من تضخم صنعته اقلام الأدباء وألسنة القصاصين والمتظرفين والنديماء ، حتى كادت تصبح شخصيته خيالية بين الناس والأكثر في هذا يعود الى ذلك النجاح الذي صادفه نوادره وطراائفه وملحنه في حياته فلما مات وترك تلك الآثار الطريفة المسلية مبثوثة في كتبه ، وفي الواح طلابه ، وتصور مجالسيه ، وملازمي حلقاته ، وكل من صادفه وحادثه ، الى آخر ذلك ، صار الناس ينشدون هذه الآثار ويبحثون عنها باعتبارها ، هي وأمثالها ، الوسيلة الوحيدة للتسلية وطرد الملل والأسأم في العصور المتعاقبة ، يوم لم يكن هنالك مسارح شعبية ولا قصص مشوقة ولا ما يشبه ذلك

فكان طبيعياً ان يتصرف بها الأدباء والمتدرّون والكتاب حسب اهوائهم ومذاهبهم ؟ فلم يسلم بعضها من التعليق والحواشي والزيادات فكان بعض تلك الزيادات موقتاً مقبولاً ؟ وجاء البعض الآخر تافهاً مشوهاً لدبياجة الأصل ، او مسيئاً للحقيقة فيها ومتلاً على ذلك ، انا قرأنا طرفة من طرائفه في كتاب « البخلاء » للباحث بالنص التالي « قال الأصمعي كان للمغيرة بن عبد الله الثقيفي - والي الكوفة - جدي

يوضع على مائدهه عند الطعام ، ولم يكن أحد يمسه ، اذ كان هو لا يمسه . فاقدم عليه أعرابي يوماً ، ولم يكن يعرف سيرة اصحابنا فيه ، فلم يرض بأكل لحمه بل تعرق عظمه ؛ فقال له المغيرة : يا هذا ، تطالب عظم هذا البائس بذحل ، فهل نطحتك امه ؟؟ » (١) فلما تناقل الأدباء هذه الظرفة النادرة تصرفوا بها وأضافوا عليها ؛ فكان شكلها النهائى كما رواها صاحب كتاب « المستطرف » قال « ق قال له المغيرة يا هذا ، انك تطالب عظم هذا المسكين بذحل كأن امه نطحتك !! فأجابه الأعرابي في الحال وأنت تدافع عنه كأن امه ارضعتك » (٢) ، وراح الأدباء بعد ذلك يتناقلونها بالشكل الذي صارت اليه

ولم يقف الأمر عند هذا الحد في التصرف والزيادة في نوادره ؛ بل راح بعض الأدباء - على مر الأجيال - يصنعون النوادر للناس وينسبونها للأصمي ليضفوا على انتاجهم قيمة ادبية تروج برواج هذا الاسم وربما ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فادعوا بأن الأصمي رواها في مجلس هارون الرشيد ؛ وقد تكون تلك النوادر المنتحلة تافهة ، او على جانب من قلة الذوق او الجحون ، فيساء بهذا الى سمعة الأصمي والرشيد في آن واحد وهكذا حمل على هذا الرجل مجموعة كبيرة من الطرائف والنوادر لم يكن قائمها ولا سمع بها ، وفيها الجيد الموفق ، وفيها الركيك الفاشل ، أو البذيء المبجوج ؛ وفي بعضها ما كان متطاولاً على الدين او مخالفًا للواقع التاريخي ، مما يبرأ منه الأصمي وتآباه سيرته ولكن هذا ، وان اساء الى سمعته وشوهد الحقيقة في سيرته ، اضاف شيئاً آخر الى ما احتوته آثاره من عوامل البقاء والخلود في العصور المتعاقبة

(١) البخلاء : ١٢٥

(٢) المستطرف: ج ١ ص ١٧٣

وقل كذلك عن آثاره ورواياته في الأخبار؛ وقد ذكرنا بأنه روى الكثير من اخبار العرب الأقدمين، وقص علينا ايام الجاهليين وحروبهم ومنافراتهم وأحلافهم، فبقيت روایاته تلك تتعدد بين الناس كما هي، ثم اضيف عليها من قبل رواة الأخبار المتأخرین، ثم نسبت اليه اخبار لم يكن رواها عن هؤلاء القوم؛ وكانت الغاية من حملها عليه اعطاءها القيمة التاريخية، واضفاء شيء عليها من صفة الصدق والتتحقق من التي عرف بها الأصمعي

قصة «عنتر»، وغيرها

وفي القراء الرابع المجري، بدأ العرب يؤلفون القصص عن مناقب عرب الجاهلية وحالاتهم الاجتماعية وما كان فيها من شجاعة وبطولات ووفاء وحماية للجبار والأخذ بالثأر وغيرها، معتمدين في ذلك على الروايات المبعثرة التي جاء بها رواة الأخبار في عصر الأصمعي وما بعده فكانوا يجمعون تلك الروايات المنقطعة المقرونة بالأشعار والخطب والكلام البليغ، ويربطونها بعضها حتى أصبحت قصصاً قصيرة، ثم جمعت في شكل ملامح وروايات طويلة في اسلوب شيق يعجب السامع او القارئ الاستمرار في سماعه لها او قراءته ايها كلها وكان من اكبر هذه القصص واللامح وأروعها اسلوباً قصة «عنتر بن شداد» التي نسبها البعض الى الأصمعي وان لم تكن من صنعه

كان الأصمعي قد روى الشيء الكثير من اخبار بني عبس وأبطالهم؛ وقيل انه روى معظم شعر عنترة بن شداد الذي قاله في المغازي والمحروب، حتى اصبح اسم الأصمعي مقروناً بأشعار هذا البطل العبسي وأخبار غزواته. (١) وكان قواد جيوش المسلمين يأمرون بقراءة قصص الأبطال على جنودهم

(١) الأغاني : ج ٣ ص ١٨٩ - يقول الأصمعي : ذهب عنترة بعامة ذكر الحرب .

ورواية اشعارهم المليئة بالغمارات والمحروب ، لكي يذكروا في نفوس هؤلاء النخوة والاقدام فكانت اشعار عنترة في مقدمة القصائد الحماسية التي تتلى على هؤلاء الجنود مع ذكر مناسباتها وشيء من الاضافة عليها ؛ فبدأت اخبار عنترة تتسع شيئاً فشيئاً ، ثم صارت قصصاً صغيرة مقطعة لا تجتمعها جامدة ، ومعظمها كان ينسب في الرواية الى الأصمعي ، والقسم الآخر الى غيره من الروا

وفي اواخر القرن الرابع للهجرة ، في زمن الخليفة الفاطمي « العزيز بالله » جمعت هذه الاخبار والقصص في رواية واحدة متسللة سميت « قصة عنترة » وقد جاء في سبب جمعها وتدوينها ان رجلاً اسمه الشيخ « يوسف ابن اسماعيل » كان يتصل بباب العزيز بالله الفاطمي فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز ، لهجت ألسن الناس بها في المجالس والأسواق ؟ فساءه ذلك ، وأشار الى الشيخ يوسف المذكور ان يطرف الناس بما عساه اى يشغلهم عن هذا الحديث وكان الشيخ يوسف واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والأحاديث ؛ وكان قد اخذ روايات شتى عن الأصمعي وأبي عبيدة ونجد بن هشام وجهينة الاخبار وغيرهم من الرواة فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها في الناس ، فأعجبوا بها وانشغلوها عن سواها ؛ وكان من تلطف هذا المؤلف انه قسمها الى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل كتاب ان يقطع الكلام عند معظم الأمر الذي يستحق القراءة والسامع الى الوقوف عند تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به مثلاً انتهى في الاول ، وهكذا الى نهاية القصة . وقد اثبت في هذه الكتب ما ورد من اشعار العرب المذكورين فيها ، ولكن تداول الناسخين افسد روایتها

ولما كان الكثير من روايات هذه القصة منسوبة إلى الأصمعي ، وكان الأصمعي من أشهر من عرف في الروايات عند الأدباء والمتآدبين ، حسبه أكثر الناس انه هو كاتب هذه القصة او راويها كلها ؟ فزاد هذا في شهرته وطغى اسمه على غيره من الرواة من جاء بعده وأصبحت شهرته بهذه القصة شعبية عامة ، وتحدث باسمه الناس من سائر الطبقات المختلفة

ثم انتشر فن القصة بعد ذلك وكثرت القصص وتنوعت ، فصار الناس ينسبون - خطأ - جل الأخبار العربية فيها للأصمعي . وزاد في هذا ان بعض مؤلفي هذه القصص انفسهم ينسبون الأخبار التي يصوغونها او يقتبسونها في مؤلفاتهم إلى كبار الرواة ، وفي مقدمتهم الأصمعي ، مستندين على رواياتهم لأشعار العرب الأقدمين وقد ظهر في العصور المتأخرة قصص متعددة منها ما كان بين الرواية التاريخية الصحيحة وبين المصنوع الملفق ، ومنها ما هو مترجم واضيف عليه ، ومنها ما كان هزيلاً لا قيمة علمية له

ومن أشهر القصص العربية التي ورد فيها اسم الأصمعي وأخذ بعض أخبارها منه

«كتاب الجمرة» الله اللغوي الأخباري «عمر بن شبة»^(١) أحد طلاب الأصمعي ، وقد أخذ عنه الكثير من أخبار هذا الكتاب ؛ وهو يشتمل على حوادث عديدة أكثراها وقع بين بنى ربيعة وخصومهم . وأخبار هذا الكتاب وسط بين التاريخ والقصة ، وبطلها الأشهر «البراق» وهو شاعر قديم من ربيعة من أقرباء المهليل وكليب . وقد توسع هذا المؤلف ولكنه بقي أقرب إلى الحقيقة من قصة عنتر «قصة بكر وتغلب» وفيها خبر كليب وجساس في حرب البسوس .

(١) توفي عمر بن شبه عام ٢٦٢ هجري

والقصة فيه أقرب إلى التاريخ منها إلى الرواية وقد زاد فيها المؤلف من عنده تفاصيل خيالية

وقصص أخرى أمثال « حرب شيبان مع كسرى » و « قصة أبي زيد الملالي » و « جمِيل بشينة » وغيرها ؛ وفي كل منها نجد ذكر الأصمعي مع غيره من رواة الأخبار والأدب في العصر الأول
العباسي

من هذا كله وما لدينا من أخبار أخرى نجد الأصمعي سعيد الحظ موفقاً في حسن سمعته أثناء حياته ، فلما توفي ، وخفت عنه غواائر خصومه ، تكشف فضله عن ذي قبل ، وصار العالم والمتعلم يذكوه بكل اجلال واحترام ؛ وربما تباهى البعض بأنَّه كان قد جالسه أو لازمه أو ناظره ؛ وعدوه حجة في آرائه وروياته ، وربما جعلوا آرآءه تلك حكماً بينهم إذا اختلفوا في مسألة من المسائل يقول أحد طلابه ، أبو عثمان المازني « حضرت أنا ويعقوب بن السكري في مجلس الوزير محمد بن عبد الملك الزيات (١) ، وافضنا في شجون الحديث ، فاختلقنا على الفرق بين كلمتي (بينا ، وحين) قلت كان الأصمعي يقول بینا انا جالس اذ جاء عمرو فقبل هذا الرأي » (٢)

وما يدل على مكانته عند معاصريه ما روي عن أبي العيناء قال : « كان سبب تحوله من البصرة أني رأيت غلاماً ينادي عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يساوي ثلاثة أيام دينار ، فاشتريته وكانت ابني داراً ، فأعطيته عشرين ديناراً لينفقها على الصناع ، فأنفق عشرة وعشرين ملبوساً له ، فقلت

(١) كان محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً للمتوكل فقضى عليه وقتلته .

(٢) ترفة الأباء : ٤٢

ما هذا ؟؟ فقال لا تعجل ، فان ارباب المروءات لا يعتبون على غلامنهم
هذا فقلت في نفسي انا اشتريت الأصمعي ولم ادر »^(١)
ويقول البحترى^(٢) ، في قصيدة وجهها الى ابراهيم بن المدور يهجو
بها أحد المعلمين^(٣)

غير ان المعلمين على حا ل قليلو التمييز ضعى العقول
فإذا ما تذكر الناس معنى من متين الأشعار والمجهول
قالوا هذا لنا ومحن كشفنا غيبة للسؤال والمسؤول
ضرب الأصمعي فيهم ام الا حمر ام الفحوا ب... الخليل ؟
وقال ابو منصور الشعائى للأمير ابي الفضل^(٤)
لك في الفضائل معجزات جمة ابداً لغيرك في الورى لم تجتمع
حران حمر في البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
كانور أو كالسحر أو كالدرا أو كالوشى في برد عليه موش^(٥)
وفي حديث لسيوطى في كتابه « المزهر »

« وهذا الأصمعي وهو صناعة الرواة والنقلة واليه محظ الأباء والنقلة ،
ومنه تجى الفقر والملح ، وهو ريحانة كل مقتبى ومصطباح »^(٦)
الى آخر ذلك مما قيل في تمجيده جيلاً بعد جيل وعصرأ بعد عصر
حتى يومنا هذا وقبل ان تبدأ النهضة العربية الأخيرة في العصر الحاضر
وتكثر المطبع وتنشر الكتب ويتسرب حصولها لدى القراء ، كانت الكتب

(١) طبقات الأدباء : ج ٧ ص ٧٠

(٢) توفي البحترى عام ٥٢٨٤ .

(٣) زهر الآداب : ج ١ ص ٢٥٥

(٤) توفي الشعائى عام ٤٤٢٩ .

(٥) زهر الآداب : ج ١ ص ١٢٦

(٦) المزهر : ج ٢ ص ٢٦١

الخطية هي المصادر الوحيدة لطلاب العلم ؛ ولم تكن هذه المصادر متيسرة لندرتها وقلة المتعلمين وصعوبية نقل الكتب باليد ؛ فكان اقرب ما يتناوله العامة سماع قصص البطولات وهي تقرأ في المقاهي وال المجالس كقصة عنترة وغيرها وكان طبيعياً ان يتعدد اسم الأصمعي على الأسماع في كل مكان ، ويعرف عليه العامة بالصورة التي تعطى لهم ، فأصبحت شخصية الأصمعي عند البعض رمزاً للبلاقة والذكاء والتصنيف والتلقيق ، وراح البعض ايضاً يشك بصحة وجود الأصمعي ويتصوره شخصية خيالية من صنع واضعي القصص ، واعتقد آخرون بأنه شخص قد يكون حقيقياً ولكنه غلف بروايات وقصص مصنوعة نسبت اليه ، كما غلت شخصية عنترة نفسه بتلك الروايات المزيفة . وقليل من العلماء من كان يعرف - يومئذ - كنه الأصمعي وحقيقة سيرته . فصارت العامة تطلق كلمة « الأصمعي » على كل مفكر لبق ، او داهية مقتدر ؛ فيقولون على صيغة التعجب « اي اصمعي هذا !! » وربما غلا البعض منهم فأطلق هذه الكلمة على كل شيء يستحسن او يكبره ، فيقول « حسان اصمعي سابق » و « قصر اصمعي فخم » و « الأصمعان » في اللغة هما الأصمعي والقلب الذكي

انتهى الطبع

١٣٧٥ صفر ٢٤
١٩٥٥ تشرين اول ١٠

الفهرست

صفحة

٧	كلمة :
٩	المقدمة : نظرة في تاريخ البصرة ١٤٠٥ - ٢١٧٥ :
١١	بناء البصرة و عمرانها
١٤	النسمة الاقتصادية .
١٩	الحركة الفكرية .
٣٣	الشعوبية .
٣٧	الأدوار السياسية ، وقبيلة باهلة
٤٧	الأصمعي : القسم الأول
٤٩	بنو أصم في البصرة .
٥٤	مولود الأصمعي ونشأته .
٥٨	دراساته وتحصيله .
٦٨	اساتذته
٧٧	خصوصاته في مجتمعه
٩٣	شخصيته وأخلاقه : القسم الثاني
٩٥	دمامته واهتمامه ، وفتور غريزته .
١٠٠	بنجله وحرصه .
١١٣	ظرفه وخفة روحه
١٢٠	تدينه ، وصدق هجته .

١٢٩	مكانته العلمية	القسم الثالث
١٣١	حلقه في مسجد البصرة .	
١٤٠	علومه ، ومذاهبه فيها .	
١٤٠	في اللغة والنحو .	
١٤٨	في الأدب والشعر	
١٥٥	في الأخبار والأنساب وغيرها .	
١٦٠	في اللغة الفارسية .	
١٦٣	في دار الخلافة ، ١٧٣ - ١٨٧ م	القسم الرابع
١٦٥	الأتصال بهارون الرشيد .	
١٧٣	في مجالس الرشيد .	
١٨٩	الفوائد الثلاث	
٢٠٠	أثره في مصرع البرامكة	
٢١١	تركه بلاط الرشيد .	
٢١٥	المرحلة الأخيرة ، ١٨٨ - ٢١٧ م	القسم الخامس
٢١٧	الاستقرار في البصرة .	
٢٢٣	مرضه وموته .	
٢٢٩	ذريته .	
٢٣١	طلابه .	
٢٤٣	دراسة آثاره	القسم السادس :
	- انتاجه	
٢٤٤	تصانيفه ومؤلفاته	
٢٥٥	نقده وآراؤه في الأدب ، واقواله	
٢٦٢	شعره .	

صفحة

٢٦٦	نوادره عن الأعراب ، ومدرسة القصة
٢٧٣	الوان نوادره
٢٨١	— منقولاته ورواياته :
٢٨٢	روايتها للشعر
٢٨٨	روايتها للأمثال والحكم
٢٩٥	روايتها للطراائف والملح
٣٠٤	روايتها للأخبار التاريخية
٣١٤	روايتها لسير الشعراء .
٣٢١	— الأصمعي بعد موته
٣٢٣	قصة عنتر وغيرها

المراجع الرئيسية

المراجع العربية :

- ١ - ابن الأثير : علي بن احمد بن ابي الکرم ، (توفي عام ٦٣٠ هـ = م ١٢٣٨) كتاب «الکامل في التاریخ» - بولاق ١٢٧٤ هـ
- ٢ - الأصبهاني : ابو الفرج ، علي بن الحسین بن محمد الأموي ، (ت ٣٥٦ هـ = م ٩٦٧) «الأغافی» - بولاق ١٢٧٤ هـ
- ٣ - الانباري : ابو البرکات ، عبد الرحمن بن ابي الوفاء ، (ت ٥٧٧ هـ = م ١١٨٢) «نرفة الأباء» القاهرة ١٣٤٧ هـ
- ٤ - البغدادي : عبد القادر بن طاهر ، (ت ٤٢٠ هـ = م ١٠٢٩) «الفرق بين الفرق» - القاهرة / ١٣٢٨ هـ
- ٥ - البغدادي : عبد القادر بن عمر ، (ت ١٠٩٣ هـ = م ١٦٨٢) «خزانة الأدب» - القاهرة / ١٣٤٧ هـ
- ٦ - البلاذري : احمد بن حمیی بن جابر ، (ت ٢٧٩ هـ = م ٨٩٢) «فتح البلدان» - القاهرة / ١٣١٨ هـ
- ٧ - البلخي : ابوزید ، احمد بن سهل ، (ت ٣٢٢ هـ = م ٩٣٣) «البدأ والتاریخ» - باریس ١٨٩٩ م
- ٨ - البکوی : عبد الله بن عبد العزیز الأؤینی البکوی، (ولد عام ٤٨٧ هـ)

- ٩ - **البيروني** « سبط الآلي في شرح امالي القالب » - القاهرة / ١٣٤٢ م
 ابو الرحيم ، محمد بن احمد ، (ت ٤٤٠ = ١٠٤٨ م)
- ١٠ - **ابن بطوطة** : محمد بن عبد الله ، (ت ٧٧٩ = ١٣٧٧ م)
 « تحفة النظار » - باريس / ١٨٥٣ م
- ١١ - **التوحيدى** ابو حيان ،
 « البصائر والذخائر » - القاهرة / ١٣٧٣ م
- ١٢ - **الجهمي** ابو عبد الله ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ = ٩٤٢ م)
 « الوزراء والكتاب » - القاهرة / ١٩٣٨ م
- ١٣ - **الملاحظ** ابو عثمان ، عمرو بن محرر ، (ت ٢٥٥ = ٨٦٩ م)
 « البيان والتبيين » - القاهرة / ١٩٢٨ م
 « الحيوان » - القاهرة / ١٣٥٩ م
 « البخلاء » - القاهرة / ١٣٧٠ م
- ١٤ - **ابن ابي الحميد**: عبد الحميد بن هبة الله ، (ت ٦٥٥ = ١٢٥٧ م)
 « شرح نوح البلاغة » - القاهرة / ١٣٤٥ م
- ١٥ - **ابن حجة المهوبي**: نقى الدين بن علي ، (ت ٨٣٧ = ١٤٣٣ م)
 « خزانة الأدب » - بولاق / ١٢٩١ م
- ١٦ - **ابن حزم** ابو محمد ، علي بن احمد ، (ت ٤٥٦ = ١٠٦٤ م)
 « الفصل في الملل والأهواء والتحل » - القاهرة / ١٣١٧ م
- ١٧ - **الحضرمي** ابو اسحاق ، ابراهيم بن علي بن قيم ، (ت ٤٥٣ = ١٠٦١ م)
 « زهر الآداب » - القاهرة / ١٢٩٣ م
- ١٨ - **ابن حوقل** ابو القاسم ، محمد بن حوقل ، (ت ٣٨٠ = ٩٩٠ م)
 « المسالك والمالك » - ليدن / ١٨٨٩ م
- ١٩ - **المخضري** محمد المخضري -
 « تاريخ الدولة العباسية » القاهرة / ١٩١٦ م
- ٢٠ - **الخطيب البغدادي**: ابو بكر ، احمد بن علي ، (ت ٤٦٣ = ١٠٧١ م)
 « تاريخ بغداد او مدينة السلام » - القاهرة / ١٣٤٩ م

- ٢١ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، (ت ٨٠٨ = ١٤٠٦ م)
 « المقدمة » - بيروت / ١٨٨٦ م
 « كتاب العبر » القاهرة - هـ ١٢٨٤
- ٢٢ - ابن خلkan ابوعباس ، شمس الدين احمد بن محمد ، (ت ٦٨١ = ١٢٨١ م)
 « وفيات الأعيان » - بولاق / ١٢٨٣ م .
- ٢٣ - خليفه مصطفى كاتب شابي ، حاجي خليفه ، (ت ١٠٦٧ = ١٦٥٧ م)
 « كشف الظمون » - ليسيك / ١٨٣٥ م
- ٢٤ - الخوارزمي ابو بكر ، محمد بن العباس ، (ت ٣٨٣ = ٩٩٣ م)
 « مفید العلوم » - مصر / ١٣١٠ م .
 « رسائل الخوارزمي » - مصر / هـ ١٣١٠ .
- ٢٥ - الدميري كمال الدين ابوالبقاء محمد بن موسى بن عيسى (ت ٨٠٨ = ١٤٠٦ م)
 « حياة الحيوان » - القاهرة / هـ ١٣٤٥
- ٢٦ - ابن رشيق ابو علي ، الحسن بن علي ، (ت ٤٦٣ = ١٠٧١ م)
 « العمدة » - القاهرة / هـ ١٣٤٣
- ٢٧ - الوبعي عبد الله بن احمد بن زبو -
 « المنتقى من اخبار الأصممي عن مجلة المجتمع العلمي في دمشق ١٩٣٣ م
- ٢٨ - زيدان جرجي بن حبيب ، (ت ١٣٣٢ = ١٩١٤ م)
 « تاريخ التمدن الإسلامي » - القاهرة / ١٩٠٢ م
 « تاريخ الأدب العربي » - القاهرة / هـ
- ٢٩ - ابن الساعي علي بن النجاشي بن عثمان ، (ت ٦٧٤ = ١٢٧٥ م)
 « مختصر اخبار الخلفاء » - بولاق / هـ ١٣٠٩
- ٣٠ - ابن سلام الحافظ ، ابو عبيده ، القاسم ، (ت ٢٢٤ = ٨٣٩ م)
 « كتاب الأموال » - القاهرة / هـ ١٣٥٣
- ٣١ - السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت ٩١١ = ١٦٠٥ م)
 « تاريخ الخلفاء » - القاهرة / هـ ١٣٥١
 « نزهة المجالس » - مصر / ١٩٠٨
 « المزهر » - القاهرة / هـ ١٣٢٥

- ٣٢ - **السيرافي** ابو سعيد، الحسن بن عبد الله السيرافي (ت حوالى ٥٣٨٠ = ٩٩١ م)
 « اخبار النحوين البصريين » - بيروت / ١٩٣٦
- ٣٣ - **الشهرستاني** : محمد بن عبد الكريم بن احمد ، (ت ٥٤٨ = ١١٥٣ م)
 « الملل والنحل » - القاهرة / ١٣١٧ هـ
- ٣٤ - **ابن شاكر** : محمد ، (ت ٧٦٤ = ١٣٦٢ م)
 « فوات الوفيات » - بولاق | ١٢٨٣ هـ
- ٣٥ - **الطرطوشى** : محمد بن الوليد ، (ت ٥٢٦ = ١١٢٦ م)
 « سراج الملوك » بولاق / ١٢٨٩ هـ
- ٣٦ - **القططي** : محمد بن علي ، (ت ٧٠٢ = ١٣٠١ م)
 « الفخرى في الآداب السلطانية » - القاهرة / ١٩٢٣ م
- ٣٧ - **الطبرى** ابو جعفر ، محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ = ٩٢٢ م)
 « تاريخ الأمم والملوك » - ليدن / ١٩٠١ م
- ٣٨ - **ابن طيفور** ابو الفضل ، احمد بن ابي طاهر ، (ت ٨٩٣ هـ ٢٨٠ م)
 « تاريخ بغداد - الجزء السادس » القاهرة / ٩٤٠ م
- ٣٩ - **ابن عبد وبه** : شهاب الدين احمد ، (ت ٣٤٩ = ٩٤٠ م)
 « العقد الفريد » - القاهرة / ١٣٤٦ هـ
- ٤٠ - **ابن عرب شاه** : احمد بن محمد بن عبد الله (ت ٨٥٤ = ١٤٥٠ م)
 « فاكهة الخلفاء ... » - القاهرة / ١٨٨٩ م
- ٤١ - **الفزالي** ابو حامد ، محمد بن محمد ، (ت ٥٠٥ = ١١١١ م)
 « المنقد من الضلال » - دمشق / ١٣٥٣ هـ
- ٤٢ - **ال العسكري** ابو هلال ، الحسن بن عبد الله ، (ت ٣٨٢ = ٩٩٣ م)
 « ديوان المعاني » - القاهرة / ١٣٥٢ هـ
 « الصناعتين » - الآستانة / ١٣٢٠ هـ
- ٤٣ - **ابو الفدا** اسماعيل بن علي عماد الدين ، (ت ٧٣٢ = ١٣٣١ م)
 « تقويم البلدان » - باريس / ١٨٤٠ م
 « المختصر ... » - الآستانة / ١٢٨٢ م

- ٤٤ - الفيروزابادي : محمد بن يعقوب بن ابراهيم ، (ت ٨٦١ هـ = ١٤١٣ م)
 « القاموس المحيط » - القاهرة / ١٣١٢ هـ
- ٤٥ - القالبي : ابو علي ، اسماعيل بن القاسم ، (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م)
 « الامالي » - القاهرة / ١٣٤٤ هـ
- ٤٦ - ابن قتيبة ابو محمد ، عد الله بن مسلم ، (ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م)
 « المعارف » - القاهرة / ١٣٥٣ هـ
- ٤٧ - قدامة بن جعفر : ابو الفرج ، (ت ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م)
 « مختصر كتاب الحراج » - باريس / ١٨٦٢ م
- ٤٨ - الفزويني : زكريا بن محمد بن محمود ، (ت ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م)
 « اخبار العباد وآثار البلاد » - كوتينج / ١٨٤٨ م
- ٤٩ - الفلقشندی احمد بن علي ، (ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م)
 « صبح الأعشى » - القاهرة / ١٩١٢ م
- ٥٠ - الكندي : ابو عمر ، محمد بن يوسف ، (ت ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م)
 « كتاب الولاية والقضاء » - لندن / ١٩١٢ م
- ٥١ - الماوردي ابو الحسن ، علي بن محمد ، (ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م)
 « الأحكام السلطانية » - القاهرة / ١٢٩٨ هـ
 « ادب الدنيا والدين » - الاستانة / ١٢٩٩ هـ
- ٥٢ - البردی محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، (ت ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م)
 « الكامل » - القاهرة / ١٩٢٨ م
- ٥٣ - المرزوقي احمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ، (ت حوالي ٤٦٠ هـ = ١٠٦٣ م)
 « الأزمنة والأمكنة » - حيدر اباد - دكن - / ١٣٣٢ هـ
- ٥٤ - المسعودي ابو الحسن ، علي بن الحسين ، (ت ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م)
 « مروج الذهب » - باريس / ١٨٧١ م
 « التنبية والاشراف » - ليدن / ١٨٩٣ م

- ٥٥ - المقدسي
ابو عبد الله ، محمد شمس الدين بن احمد (ت ٣٨٧ = ٩٩٧ م)
« احسن التقايم في معرفة الاقاليم » ليدن / ١٨٧٧ م
- ٥٦ - المقربي
احمد بن محمد ، (ت ١٠٤١ = ١٦٣٣ م)
« نفح الطيب » - القاهرة / ١٢٧٩ م
- ٥٧ - المقرizi
تقي الدين ، احمد بن علي ، (ت ٨٤٥ = ١٤٤١ م)
« رسائل المقرizi » - الآستانة ١٢٨٩ م
- ٥٨ - ابن منجج
ابو القاسم ، علي بن منجج ، (ت ٥٤٢ = ١١٤٧ م)
« الاشارة الى من نال الوزارة » - القاهرة / ١٩٢٤ م
- ٥٩ - الميداني
احمد بن محمد النيسابوري الميداني ، (ت ٥١٨ = ١١٢٣ م)
« امثال الميداني » = القاهرة / ١٣٤٢ هـ
- ٦٠ - النويحي
ابو محمد ، الحسن بن موسى ، (ت ٢٠٢ = ٨١٧ م)
« فرق الشيعة » - استنبول / ١٩٣١ م
- ٦١ - النويوي
شهاب الدين ، احمد بن عبد الوهاب ، (ت ٧٣٢ = ١٣٣٢ م)
« نهاية الارب في فنون الادب » خطوط بدار الكتب المصرية.
- ٦٢ - ابن هشام
ابو محمد ، عبد الملك بن هشام ، (ت ٢١٨ = ٨٣٣ م)
« السيرة النبوية » - القاهرة / ١٣٣٢ هـ
- ٦٣ - ياقوت الحموي: شهاب الدين ابو عبد الله ، (ت ٦٢٦ = ١٢٢٩ م)
« معجم الأدباء » - القاهرة ١٩٣٦ م
- ٦٤ - اليعقوبي
احمد بن ابي يعقوب بن جعفر ، (ت ٢٨٢ = ٨٩٥ م)
« قاریخ اليعقوبي » - ليدن / ١٨٨٣ م

المراجع الأجنبية

الفرنسية

Le Bon. G.

« La Civilisation des Arabes » — Paris 1882.

Bouvat.

« Les Barmacides d'après les Historiens Arabes et Persans. » —
Paris 1912.

Carra de Vaud.

« Les Penseurs de l'Islam » — Paris 1892.

Machuel.

« Les Auteurs Arabes » Paris 1919.

Encyclopédie de l'Islam.



الإنكليزية

Arnold. T. W.

« The Califate » — Oxford 1924.

Palmer.

« Haroun el Rashid » — London 1881.

Nicholson. A. R.

« Literary History of the Arabes » — Cambridge 1930.

Le Strange.

« Bagdad during the Abbassid Caliphate » — Oxford 1900.

فهرس الأعلام

- ١ -

- | | |
|--|----------------------------------|
| ابن معن : ١٢٦ | أبان اللاحقي ٢٦٩ |
| ابن ميادة : ٢٥٩ | ابراهيم الحراني : ٢٢٢ |
| ابن النديم : ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ | ابراهيم بن سفيان الريادي : ٢٣٥ |
| ابن هرمة : ٢٦٢ ، ٢٥٩ | ابراهيم بن المدور : ٣٢٩ |
| ابو الأسود الدؤلي : ٢٩٧ | ابراهيم بن المهدى : ٢١٧ |
| ابو بكر الصديق : ٤٢ | ابراهيم الموصلى : ١٩٤ ، ١٧٦ |
| ابو بكر المجري : ٣٠١ | الأبرش الكلائى : ٢٩٩ |
| ابو البيداء الرياحى : ٧٦ | ابن ابي الدنيا : ٢٣٢ |
| ابو جعفر المنصور : ٣٩ ، ٤٥ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٣٠١ | ابن ابي العلاء : ١٤٦ |
| ابو جعفر بن ناصح : ٢٣٩ | ابن ابي عينة - سفيان : ١٧ |
| ابو حاتم السجستاني : ١٤٢ ، ١٤٧ | ابن ابي مریم المدنی : ١٧٦ |
| ابو حبطة : ٢٣١ ، ٢٢٥ | ابن الأجيد - مولى قريب : ٨٧ ، ٥٣ |
| ابو حفص المطرنجي : ١٨٥ | ابن اسلم : ٣١٥ |
| ابو حيان التوحيدى : ٩٩ | ابن الأعرابى : ١٤٩ ، ٩٠ ، ٨٩ |
| ابو حبوة بن لقيط : ٧٧ | ابن براق الفهمي : ٣١٣ |
| ابو دواود - سليمان بن عبد : ٢٣٨ | ابن جنى : ١٤٤ ، ٢٥٦ |
| ابو الدقش : ٧٧ | ابن خلكان : ٢٤٣ |
| ابو الدهاء : ٨٥ | ابن دريد : ٣٣٢ |
| ابو دؤاد الأياidi : ٢٦٢ | ابن رشيق : ٢٤٣ |
| ابو ذؤيب المزنلى : ٢٥٧ ، ٣٠١ | ابن السكيت : ٣٢٨ ، ٢٣٤ |
| ابو ربيعة : ١٩٥ | ابن عبد ربہ : ٢٤٣ |
| ابو زيد الانصاري: ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ | ابن عرباض : ٢٩٩ |
| ابو زيد الهلالي : ٢٢١ ، ١٤٨ | ابن عنون : ٣١٢ |
| ابو سوار الفنوی : ٧٦ | ابن قتيبة : ٢٤٣ |
| ابو الشقمق : ١١٥ | ابن الكلائى - هشام بن محمد : ١٥٩ |
| ابو طفيلة : ٧٧ | |

- ٣٤١ -

ابو هاشم الباهلي : ١١٦	١٤٠٠ ، ١٢٥٤٥
ابو هلال العسكري : ٢٤٣ ، ١٥٣	ابو العباس الكدعي: ٢٣٩
ابوهودة : ٤٢	ابو العباس بن الفرج ٢٦٦
ابوالوجيه : ٣١٦	٨٦٠ ، ٨٢٠ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩
ابويوسف القاضي : ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٣	١٦٦ ، ١٥٢ ، ١٤٨ ، ١٤٠ ، ١٣٤
٢٤٨ ، ٢١٢ ، ١٩٧	٢١٣ ، ٢١٢ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٦٧
احمد بن ابراهيم ٢٥٧	٢٨١ ، ٢٢١ ، ٢١٩ ، ٢١٤
احمد امين : ٢٦٧	٢٠٧ ، ١٨٥ ، ١٧٧ ، ١٢٦
احمد بن بكير النجوي ٢١٩	٢٦٠ ، ٢١٢
احمد بن حاتم الباهلي : ٢٢٠ ، ١٣٨ ، ٥٣	ابو عثمان المازني : ٣٢٨ ، ٢٣٤
٢٥٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩	ابو عثمان بن نقية : ٢٣٩
احمد بن حنبل : ١٢٥ ، ٥	ابو عرار الجلبي : ٧٦
احمد بن ابي طاهر : ٢٣٣	ابو علي القالي : ٢٤٣
احمد بن فارس : ٢٧٢	ابو عمran - موسى بن عبد الملك ٢٣٤
احمد بن محمد البريدى : ٢٣٩	ابو عمرو الجرمي - صالح بن اسحاق : ١١١
احنف بن قيس : ٢٩٣ ، ٣٤	٢٣٣
الاحوص : ١٠٩	ابو عمرو بن العلاء : ٦٩ ، ٦٤ ، ٦٠ ، ٢٨
الاخطل : ٣١٦ ، ٣١٥ ، ١٢٣	١٤٩ ، ١٣١ ، ١٢١ ، ٨٩ ، ٧٠
الاخفش : ٢٥٨ ، ١٤٠	٢٨١ ، ١٥١
اربde بن ربيعة : ٣١٨	ابو العتبس : ١٠٧
اسحاق الموصلى : ١٨٢ ، ١٧٦ ، ١١٢ ، ٥	ابو العيناء - محمد بن القاسم : ١٣٦ ، ١٠٥
٢١٣ ، ٢١٢ ، ١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٤	٣٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٢٧
٢٣٩ ، ٢١٨	ابو الفرج الأصفهاني ٢٤٣
اسعاعيل بن يسار ٣٥	ابو هلب : ٣٠١
اشعش بن قيس : ٨٥	ابو محمل الشيباني : ٧٧
اصمع بن مظہر ٤٩	ابو مسلم الحراساني : ٢٠٩
الاضبط بن قريح : ٣١٤	ابو مهدية الأعرابي : ٨٦ ، ٧٧
اعشی باهلة : ١١٥	ابو موسى الأشعري : ٤٩ ، ١٣
اعش قيس ٣١٤ ، ٢٢٥	ابو النجم الراجز : ٢٥٩ ، ١٥٣
افون التغلبى : ١٧٩	ابو نخيلة : ٣٠٣
اکم بن صيفي : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤	ابو النفناش : ١٨٠ ، ٨٥
ام البنين بنت عبد العزيز بن مروان : ٣١٧	ابو نواس ١٢٠ ، ٨٩ ، ٨٢ ، ١٧ ، ٥
ام جيل بنت حرب : ٣١٠	١٧٧ ، ١٦٧ ، ١٦٧ ، ١٢٤
امرؤ القيس : ١٧٨ ، ١٥٣	٢٣٩ ، ٢١٣

امية بن ابي الصلت : ٢٦٠

الأباري : ٢٤٣

اوس بن حجر : ٣١٤

- ب -

البحتري : ٣٢٩

بديع الزمان الهمذاني : ٢٧٢

البراق : ٣٢٧

برصوم : ١٧٦

البسوس : ٣٢٧

بشار بن برد : ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٠ ، ١١٥

بشر بن أرطاة : ٣٠٨

بشر بن خازم : ٣٠٥

بشر بن موسى الاسدي : ٢٣٩

بوالو الفرنسي : ١٧٧

- ت -

تأبط شرآ : ٣١٣

الترمذى - محمد بن عيسى : ٢٣٨

التوزي - عبد الله بن محمد : ٢٣٥ ، ٢٢١

- ث -

الشعابى - ابو منصور : ٣٢٩

تعلب - احمد بن يحيى : ١٨٩

- ج -

الماحظ - عمرو بن بحر : ٥ ، ٣٦ ، ٩٨ ، ٩٤ ، ١٠٤

١٣٦ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ٢٣٨

٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٣٢٣

جبريل بن بختيشوع : ١٧٦

جحدر : ١٥٦

جرير الحطافى : ٢٧ ، ٢٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٣

٣٠٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٦

٣٢٠ ، ٣١٩

جساس بن مرة : ١٥٦ ، ٣٢٧

جعفر بن سليمان العباسى : ١٠٩

جعفر بن موسى الهاشمى : ٢٠٧

جعفر بن يحيى البرمكى : ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٧

- خ -

خالد بن صفوان : ١٦ ، ٢٧ ، ٣٠٠ ، ١٠٢

خالد بن الوليد : ٣٠٨

الخطيب بن أسلم : ٢٥٢

خلف الأحرر : ٢٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٩ ،

٢٨١ ، ١٨٠ ، ١٤٥ ، ١٢٦

الخليل بن أحمد الفراهيدي : ١٢١ ، ٧٠ ، ٦٠

١٤٥ ، ١٤٠

الحسناء بنت عمرو بن الشريد : ١٥٦ ، ١٥٠

٣٢٢

الميزران - أم الرشيد : ٢٠٢ ، ٢٠١

- ٥ -

دريد بن الصمة : ١٥٦ ، ٣٢٢

دكين الراجز : ٢٠٩

الدميري : ٢٤٨

- ٦ -

ذو الرمة : ٣١٦ ، ١٧١ ، ١٤٣

ذؤيب بن كعب التميمي : ٣١٤

- ٧ -

«راسين» الفرنسي : ١٧٧

راعي الابل - الشاعر : ٣١٨ ، ١٧٨ ، ٢٧

٣٢٠ ، ٣١٩

رافع بن الليث : ٢١٢

ربيعة الصربي : ٧٧

ربيعة الرقي : ١٤٢

ربيعة بن المقدم : ٣٠٦ ، ١٥٦

رجاء بن الجارود : ٢٣٩

رؤبة بن العجاج : ٢٦٢ ، ١٧١

«روشفوكو» - الفرنسي : ١٧٧

روضة السكندية : ٣١٧

الرياشي - العباس بن الفرج : ٢٣٢

- ٨ -

زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد : ٢٠٢ ، ١٨٨

٢١٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٣

الزبير بن العوام : ٣١٢ ، ٣١٠ ، ٣٨

زلزل - الوسيقار : ١٧٦

الزهرى : ٢١٩

- ص -

ساعدة بنت جدية : ١٤٩

سبحان وائل الباهلي : ٤٢ ، ٢٧

سران الباهلي : ٥١

سعيد بن سلم الباهلي : ٩٠ ، ٥٧ ، ٤٥

١١١ ، ١١٢ ، ١٦٧ ، ١٩٣ ،

٢١٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢

سفيان بن عيينة : ٧٠

سفيان بن معاوية المهاي : ٤٥

سكينة بنت الحسين : ٣٠٩

سليم بن قتيبة الباهلي : ٥٢٠ ، ٤٥٤ ، ٤٤

١١٥ ، ٨٤ ، ٥٧

سلمان بن ربيعة الباهلي : ٤٢

سليك بن السلكرة : ٣١٢ ، ١٥٧

سليمان بن عبد الملك الاموي : ١٨٨ ، ٤٤

سليمان بن المغيرة : ٧٤

الستندي بن شاهك : ٢١٠

سوار القاضي : ٢٩٨

السيوطى : ٢٥٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٣ ، ٢٣٦

٢٨٢

- ش -

الشافعى - محمد بن ادريس : ١٤٥ ، ٧٥ ، ٥

٢٨١ ، ٢٣٨

شبل بن عرعرة الضبعى : ٧٦

شبيب بن شيبة : ٣٠٣

شعبة بن الحجاج : ١٣٣ ، ٧٣

الشماخ بن مزرد : ١٧٢

الشترى : ١٥٧ ، ٢٢

- ط -

طهيل السكاني : ٢٦٢ ، ٢٥٩

طلحة الفياض : ٣٨

- ع -

عائشة بنت أبي بكر : ٢٨١ ، ٣٨

عائشة بنت طلحة : ٣١٢

عامر بن الطفيلي : ٣١٨

الباس بن الأحنف : ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ١٤٦

الباس بن رسم : ٢٣٩ ، ١٣٦ ، ١٠٢

الباس بن محمد العباسي : ١٧٦

عبد الحميد الساكت : ٣١

عبد الرحمن بن عبد الله الأصمعي : ١٤١ ، ٥٣

٢٥٢ ، ٢٣٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٠

عبد الرحمن بن عوف : ٣٠٨

عبد الله بن جعفر : ٣١١ ، ٣١٠

عبد الله السفاح : ٤٥

عبد الله بن عامر : ٣١٠ ، ٥١

عبد الله بن عون المزني : ٧٤

عبد الله بن قریب : ٥٦

عبد الله المأمون : ٢٠٦ ، ٢٠٣ ، ١٨٧

٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢٠٩ ، ٢٠٧

٢٢٠

عبد الله بن المقفع : ٢٦٨ ، ٣١

عبيد بن الابرص : ٣٠٥

عبد الملك بن صالح العباسى : ١٩٠

عبد الملك بن علي : ٥١

عبد الملك بن مروان : ٥١ ، ٤٣ ، ٣٤ ، ١٦

٣١٧ ، ٣١٢

عتبة بن غروان : ١٥ ، ١١

عثمان بن عفان : ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٢ ، ٣٥

المجير السلي : ٣٠٢

علي بن الرقاع : ٢٥٩ ، ١٧١ ، ١٣٩

المديلين بن الفرج العجلبي : ١٨٤

عروة بن الزبير : ٢٩٣

- ف -

الفراء : ٢٢١

الفرزدق : ٢٧ ، ٣١٨ ، ٣١٥ ، ٣٠٢ ، ٣١٨ ،

٣٢٠ ، ٣١٩

الفضل بن اسحاق : ٢٢٨

الفضل بن الريبع : ١٦٦ ، ١٦٢ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ،

١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧

٢١٨

- المبرد - محمد بن يزيد : ١٤٠ ، ٢٣٢
 المتوكل - الخليفة العباسي : ٢٣٤
 محمد بن اسحاق الصاغاني : ٢٣٩
 محمد الأمين : ١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
 محمد بن سلام الجحدري : ٢٣٦
 محمد بن عبدالله العلوى : ٣٩
 محمد بن عبد الملك بن زنجويه : ٢٣٩
 محمد بن عبد الملك الزريات : ٣٢٨
 محمد بن أبي العناية : ٢٢٨
 محمد بن عمران القاضي : ٢٩٩
 محمد بن يحيى البرمكي : ٢١٠
 مراجل - أم جعفر البرمكي : ٢٠٣
 مرار الأستدي : ١٣٧
 مروان بن أبي حفصة : ١٢٤ ، ١٧٧ ، ١٧٦
 مروان بن محمد : ٤٥ ، ٣١٠
 المروزى : ٢٩٧
 مره بن ربيعة : ٣١٨
 مزاحم بن مصرف العقيلي : ٣٠٢
 مزدك - الفارسي : ٢٠٨
 مزان - الفرنسي : ١٧٧
 مزرد بن ضرار : ١٨٤
 مسرور - خادم الرشيد : ١٩٦ ، ٢١٠
 مسمر بن كدام : ٧٤
 مسلم بن عمرو بن الحصين : ٥١ ، ٤٣
 مسلمة بن عبد الملك : ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٠٨
 مصعب بن الزير : ٤٣ ، ٣١٢ ، ٣٠٩
 معاوية بن أبي سفيان : ١٣ ، ٣٤ ، ٣١٨
 معد بن عدنان : ٤٠
 المفيرة الثقفي : ١٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣
 مؤرخ بن عمر السدوسي : ٧٣
 موسى المادي : ٢٠١ ، ٢٣٢
 « مولير » الفرنسي : ١٧٧
 المهدى - محمد بن المنصور : ١١٦ ، ٢٩
- الفضل بن نوبخت : ٢٦٩
 الفضل بن يحيى البرمكي : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٦
 القاسم بن سلام : ٢٣٥
 قنادة السدوسي : ٢١٩
 قتيبة بن معن : ٤٠
 قتيبة بن مسلم الباهلي : ٤١ ، ٤٣ ، ٥١
 قرة بن خالد : ٧٤
 قريب - عاصم بن عبد الملك الاصمعي : ٥١ ، ٥٦ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٢
 قطرب : ٧٣
 قطرى بن الفجاءة : ٣٠٩
 قيس بن زهير العبسى : ١٥٦
 قيس بن الملوح : ١٥٨
 - ك -
- الكسائى - علي بن حمزة : ٧٦ ، ١٦٦ ، ١٧٨
 ٢١٢ ، ١٧٩
 كسرى : ٣٢٨
 كلبي - امير ربيعة : ٣٢٧
 الكيميت : ١٤٢
 كيسان النحوى : ٨٦
 - ل -
- « لا بروير » الفرنسي : ١٧٧
 « لا فونتين » الفرنسي : ١٧٧
 ليد بن ربيعة : ٢٢٥ ، ٣١٧
 « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا : ١٧٧
 - م -
- مالك بن اعصر : ٤٠
 مالك بن انس : ٧٤ ، ١٢٥ ، ١٩١
 مانى بن فتك بن بابل : ٩٩

الوليد بن عبد الملك : ٤٣	المهلب بن أبي صفرة ٤٣ ، ٤١٠ ٣٨
الوليد بن يزيد الاموي : ١٧١	المهملل بن ربيعة ; ١٥٦ ، ٢١٤ ، ١٥٦
— ي —	— ن —
يجي بن خالد البرمكي : ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠١	النابغة الذئاني ٣١٨ ، ٣٠٥ ، ٢٥٧
يجي بن نجيم : ٢٨١	نافع بن عبد الرحمن بن نعم : ١٣١ ، ٧٤
البربوعي : ٢٩٨	نصر بن عدي الجهمي : ٢٣٩ ، ٢٢٠ ، ٢١٩
يزد جرد بن كسرى : ٣٠٩	نصيب — الشاعر : ٢١٧
يزيد بن الطڑية : ٣٢	النظام ١٠٤
يزيد بن عبد الملك الأموي : ٢٩٩	النعمان بن المندز ٣١٨ ، ٣٠٥
يزيد بن مزيد الشيباني ١٧٦	تفيق بن الحارث بن كلدة : ١٥
يزيد بن مسلم : ٣٠١	— ه —
يزيد بن معاوية : ٤٣	هارون الرشيد ٣٧ ، ١٥ ، ١٤ ، ٥
يزيد بن المهاج : ٤٤	٢١٧ ، ٢١٤ ، ١٦٥ ، ١١٧ ، ١٠٤
البربدي — يحيى بن المبارك ٢١٣ ، ٨٩	٣٢٤ ، ٢١٩ ، ٢١٨
يعقوب بن داود : ٣٧	هرثمة بن اعين : ١٧٦
يعقوب بن سفيان العشوي : ٢٣٩	هشام بن ابراهيم السكرمانى ٢٣٦
يعقوب بن محمد بن طلاء : ٧٤	هشام بن عبد الملك : ٧٨ ، ٣٠٠
يوسف بن اساعيل : ٣٢٦	— و —
يموت بن يزرع : ٢٣٣	وائل بن معن :
يونس بن حبيب التجوي : ١٢٠ ، ٧١ ، ٦٠	الواشق — الخليفة العباسي : ٢٣٤
١٤٠ ، ١٣٥	وضاح اليمن : ٣١٧

فهرس القبائل والشعوب

- ح -

ش . « الحبش » ١٩

ق . حمير ٣٠٤

- ذ -

ق . ذبيان ٢٥٧ ، ١٥٦ ، ١٣٦ ، ٤١
٢٥٨

- و -

ق . ربيعة ٢٢٥

ش . « الروم » ١٩

ق . رياح ٧٦

ق . رياش ٢٣٢

- ز -

ق . زياد ٢٣٥

- ص -

ق . سدوس ٧٣

ق . سعد ٤١

ق . سليم ٣٠٢

ق . سليم ٣٠٦

- ش -

ق . شبيان ٣٢٨ ، ١٧٦

- ض -

ق . الصيادة ٦٢

ش . « الصين » ١٩

- أ -

قبيلة الأزد : ٤٤ ، ٤١

ق . اسد ١٣٧ ، ٧٧ ، ٦٣ ، ٢٣٩
٣١٥ ، ٣٠٧

ق . إيلاد ٢٦٢

ق . الأنصار ٢٢٦ ، ١٤٣ ، ٧٩

- ب -

ق . بعلة ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٩

٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٥ ، ٤٤

٨٩ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٥٧ ، ٥٦

٢٣٧ ، ٢٠٥ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ١٠٠

٢٥٢

ق . بكر ٢٢٧ ، ١٥٦

ش . « الترك » ١٩

ق . تقلب ٢٥٨ ، ١٧٩ ، ١٥٦

ق . تيم ٣١٤

ق . تيم ٦٩

- ث -

ق . ثعلبة ٦٣

ق . ثيف ٧٠

- ج -

ق . جرم ٢٢٣ ، ١١١

ق . جشم ٣٢٢ ، ٢٢١ ، ١٥٦

ق . جعدة ٣٠٣ ، ٢٦٢ ، ٢٣٩ ، ٢٣٦

٢٠٨ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ٨٦ ، ٨٣ ٢١٧ ق . فزارة ٤١ - ق - ق . قيس ٤١ - ك - ق . كلب ٢٩٩ ق . كلاب ٢٨٦ ق . كانه ٣٢١ ، ٣١٤ ، ٢٦٢ ق . كدة ٣١٧ - م - ق . مازن ٦٩ ، ٧٧ ، ٣٢٨ ق . مزنة ٧٤ - ن - ق . نمير ٢٦ ، ٢٣٦ ، ٣١٩ ، ٢٢٠ - ه - ق . هذيل ٣٠١ ق . هلال ٢٥٧ ، ٣٠٢٦ ، ٣٢٨ - ي - ق . يربوع ٢٩٨	- ض - ق . ضبع ٧٦ ق . ضبة ٧١ - ط - ق . طلي : ١٥٦ ، ٣٠٤ - ع - ق . عامر ١٥٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ق . عبس ١٥٦ ، ٣٢٥ ق . عجل ٧٦ ق . عجلان ٦٧ ق . عذرہ ٢٦٢ ق . عقيل ٣٠٢ ق . عمالقة ٢٥٨ ق . المنبر ٦٢ - غ - ق . غفار ٢٩٨ ق . غني ٧٦ - ف - ق . فراس ٣٠٦ ش . «الفرس» ١١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٧٨
--	--

فهرس الأماكن

الحجاز ٣٨ ، ١٥٢ ، ٦٩ ، ٣٩ ، ١٨٩ ٣٠٩ حي بني اصم ٥٤ الحيرة ٣٠٠ - خ -	الألبة ١٤ اذربيجان ٤٢ ارمينية ٤٢ اصبهان ٢٥٢ اسبانيا ٢٤٩ - ح الأسكوريال ٢٤٩ - ح الأنبار ٢١٠ الأهواز ٣٨ - ب -
خراسان ١٧ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ١٧ ٢١٧ ، ٢١٢ الخليج الفارسي ١٧ ، ١٥ خوارزم ٤٤ - د -	بُر الحفيت ٤٣ ، ٥٧ ، ٥٦ باريس : ٢٤٧ - ح بخارى ٤٤ بغداد ١٩٤ ، ١٨٩ ، ١٦٦ ، ٣٦ ، ١٨ ٢٢١ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٣ ، ٢١٠ بيروت ٢٥١ ، ٢٥٠ - ح
الرصافة ٢١٠ الرقة ٤٣ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٨٦ ، ٢١٠ ٢١٤ - س -	تركستان ٤٤ التبت ٢٦٨ - ج -
سفوان ٥٠ ، ١٤ سمر قند ٤٥ ، ٤٤ سناباز ٢١٢ السند ٤٤ السودان ١٩ - ش -	جزر الهند الشرقية ١٦ الجزيرة العربية ٢٦ ، ٦٢ ، ٤٣ ، ٢٨ ، ٦٣ ١٦ ، ٦٨ ، ٦٣ - ح -
الشام ٣٠٨ ، ٣٦ ، ١٨ ، ١٦ شط العرب ١٥	الحبشة ١٩ ، ١٢

<p>- ل -</p> <p>لبيزك ٢٥١ ح</p> <p>- م -</p> <p>المدينة المنورة ٣٧ ، ٧٤ مدينة السلام - بغداد ٢٦٢</p> <p>المربد ١٤ ، ٣٨ ، ٨٢ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٣ ، ١٤ ٦٦ ، ٦٣ ، ٦١ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٩</p> <p>٣١٨ ، ٢٢٤ ، ١٠٠ ، ٧٩</p> <p>مصر ١٨ ، ٢٤٩ مكة ٧٤ ، ٢٢٤ الموصل ١٤٢</p> <p>- ن -</p> <p>نجد ١٥٢ النوبة ١٩</p> <p>- و -</p> <p>وادي الرافدين ١١</p> <p>- ه -</p> <p>الهند ١٦ ، ٢٨٦ ، ١٦ ، ١١</p> <p>- ي -</p> <p>العامة ٤٣ اليمن ١٥٩ ، ١٨</p>	<p>- ص -</p> <p>الصين ١٦</p> <p>- ط -</p> <p>الطائف ٧٤ طوس ٢١٢</p> <p>- ع -</p> <p>العمر ٢١٠</p> <p>- ف -</p> <p>فارس ، ١٢ ، ١١ فرنسا ١٧٦ فرغانة ٤٤ فيينا عاصمة النمسا ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٠ ح</p> <p>- ق -</p> <p>القادسية ٣٠٧ ، ٤٢ قصر الحلد ١٦٨ ، ١١٧</p> <p>- ك -</p> <p>كافش ٥١ ، ٤٤ الkovـه ٧٦ ، ٤٣ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٢٠ ٣٢٣ ، ١٦٥ ، ١٠٢</p>
--	--



إنهى طبع هذا الكتاب على
مطبع دار الكشاف - بيروت -
في الرابع والعشرين من شهر صفر
١٣٧٥
والعاشر من شهر تشرين
الأول (أكتوبر) ١٩٥٥

